القصص الشعبي

حمزة البهلوان

بقلم:

حسن جوهر

محمد أحمد برانق

أمين أحمد العطار

الطبعة الأولى

٢٠٢٤

دار المعارف

تأسست ١٨٩٠

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

رئيس مجلس الإدارة
سعيد عبده مصطفى

سلسلة القصص الشعبي

تصميم الغلاف:
محمد عطية

التصميم الداخلي:
دينا أحمد

جوهر، حسن.

حمزة البهلوان/ بقلم: حسن جوهر، محمد أحمد برانق، أمين أحمد العطار.

ط 1 – القاهرة: دار المعارف، 2023.

252 ص، 24 سم.

تدمك 2 9406 02 977 978

1 – القصص الشعبية.

(أ) برانق، محمد أحمد. (مؤلف مشارك)

(ب) العطار، أمين أحمد. (مؤلف مشارك)

(ج) العنوان.

تصنيف ديوي: 398,2

رقم الإيداع: 28882 / 2023

رقم أمر التشغيل: 71 / 2023 /7

رقم الكونجرس: 6 – 841774 – 01 – 2

لا يجوز استنساخ أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة كانت إلا بعد الحصول على تصريح كتابي من دار المعارف.

تم التنفيذ بمركز زايد للنشر الإلكتروني بدار المعارف
– ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة – جمهورية مصر العربية

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

حُلْم كسرى

﴿ ١ ﴾

كانت دولة الفرس في الأيام الغابرة ذات قوة وسطوة، وثراء واسع وجاه عريض، دان لحكمها كثير من الملوك، وخضع لها عرب الحيرة، فكانوا يعطونها الجزية كل عام عن طريق ملكهم النعمان.

وكان ملكها يقيم في المدائن عاصمة ملكه، وله إيوان رفيع البناء، واسع الرقعة، يتسع لألوف من الناس؛ فرش بالبسط الوثيرة، وصُفَّت به الكراسي الذهبية، وفي صدره سرير الملك، وزنته بضعة قناطير من الذهب النقي الصافي.

وكان دين الفرس وقتئذ «المجوسية»، فهم يعبدون النار، ويسجدون لها، ويقدسونها، ويجعلون لها خدمًا يشعلونها ويحرسونها.

عرف ملكها «كسرى أنوشروان»، إذ ذاك بالحلم، ولين الطبع، وكريم المعاملة، وكان له وزيران عاقلان: أحدهما «بزرجمهر»، وهو يعبد الله الذي آتاه من الحكمة والفطنة وكريم الخلق حظًا عظيمًا. وثانيهما «بختك بن قرقيش»، وكان من سراة المدينة وأشرافها، ويحبه كثير من الفرس.

رأى ملك الفرس في منامه ذات ليلة ما أيقظه خائفًا مضطربًا، ثم غلبه النعاس، فرأى الحلم الذي رآه وأفزعه، فانتبه من نومه أشد خوفًا واضطرابًا، وبات يرتقب الصباح في هم يضطرم في صدره، وخوف باعد بينه وبين نومه وراحته، ليستفتي وزيره بزرجمهر في رؤياه.

جلس الملك في إيوانه، ودعا بوزرائه وأعيانه؛ فلما حضروا قال لوزيره بزرجمهر: إني أعرف إخلاصك في الولاء لي، وأنك لا تخفي عني شيئًا، وقد أحضرتكم الآن لأمر أفزعني وأذهب النوم عن عيني.

فقال بزرجمهر: وقيت الشر والأذى! وما ذاك يا مولاي؟!

فقال كسرى: رأيت في المنام أني جلست على سريري هذا، وفي إيواني هذا،

وكنت شديد الجوع؛ فوضع أمامي مائدة من ذهب، عليها وعاء من العاج قد زين بالنقوش الفارسية، وفي هذا الوعاء وزة قد أجيد طهيها واشتهيت أكلها؛ ولكن كلبًا قصير الأرجل، كبير الرأس، يغطي جسمه شعر طويل، هجم عليَّ نابحًا وكاشرًا عن أنيابه، ففزعت منه ورجعت بنفسي إلى الوراء؛ وتقدم الكلب وحمل الوزة في فمه وارتد راجعًا، وأنا منزو على السرير لا أتحرك، فدخل على الكلب أسد وضربه بيده فألقاه ميتًا، وأخذ الوزة وأهداها إلى دون أن يأكل منها شيئًا، واستيقظت بعد ذلك وأنا أرتعش من الخوف. ثم أخذتني سنة من نعاس فرأيت فيها هذه الرؤيا كما رأيتها من قبل، ثم قال: فعبر لي هذه الرؤيا ولا تُـخْفِ عني شيئًا مهما يكن وقعه ثقيلا على سمعي.

فأطرق الوزير برهة ثم رفع رأسه في خشوع وقال: بان لي يا سيدي أن المائدة مدينتك وعاصمتك، وأن الوعاء والوزة خزينتك وسريرك، وما الكلب إلا فارس من خيبر يقاتلك وينزع الملك من يدك، وأما الأسد فهو فارس حجازي يقتل عدوك ويرد إليك ملكك. وهذا تأويل رؤياك.

وكان الوزير قد بان له من الرؤيا أن الفارس الحجازي سيستخلص عرب الحيرة من حكم الفرس، وأنه سيحاربهم ويهدم معابد نيرانهم وينشر فيهم دين الإيمان بالله وعبادته؛ ولكنه أخفى ذلك في نفسه ولم يبده لملكه. فقال الملك: وهل تعرف ذلك الفارس الحجازي؟ أظهر أم لايزال في عالم الغيب؟

فقال بزرجمهر: لا أعرف يا مولاي عنه شيئًا، ولكن يظهر لي أنه من مكة التي يفد إليها الحجيج كل عام من كل صوب.

فقال الملك لوزيره: خذ من خزينتي كثيرًا من الذهب والجواهر واذهب إلى مكة، وامنح والد هذا الفارس ذلك المال هبة مني، وبلغه أن ينفق من هذا المال على تربيته، حتى إذا كبر وحان وقت نفعه استدعيناه وكان لنا وقاية وملاذًا.

فرح الوزير لأنه سيزور مكة والكعبة، ولأنه سيلتقي بذلك الفارس الذي سيبطل عبادة النار، وينشر دين الإيمان بالله، وأخذ المال وجماعة من الخدم وسافر إلى مكة، وكان حاكمها إذ ذاك رجلا مؤمنًا اسمه إبراهيم،

وبلغه قدوم بزرجمهر، فخف إليه واستقبله استقبالا كريمًا. ورجع به إلى بيته في حفاوة بالغة. ولما اطمأن بهم مجلسهم سأل الوزير إبراهيم: ألك أبناء يا إبراهيم؟

فقال: لا ولكن زوجتي ستلد بعد قليل، وأرجو أن يهب لي ربي غلامًا زكيا.

فقال الوزير: أبشرك يا إبراهيم بغلام تهابه الملوك والجبابرة، ثم حكى له ما رآه ملك الفرس في منامه، وقال له: وقد بعثي إليك بهذا المال لتنفق منه على تربيته، فشكر له إبراهيم وقال: أرجو أن يكون ما بشرتني به..

ولد الغلام بعد خمسة عشر يومًا من قدوم الوزير، وكان بهي الطلعة، حسن الخلق، فانتشر خبر ولادته والفرح به، وقال إبراهيم للوزير: لقد أوتيت العلم والحكمة وأود أن تختار اسمًا لابني، فقال: سميته حمزة. وعرف الوزير أن كل من ولد في هذا اليوم فهو سعيد، فأمر أن يؤتي بكل مولود في ذلك اليوم إلى ديوان الحاكم إبراهيم، وكان يسمي كل من يأتيه باسم يختاره،له وينفح والده شيئًا من المال، ويكتب اسم المولود في قرطاس معه، ووصى بتربيتهم والإنفاق عليهم من هذه الأموال التي بعثه بها ملك الفرس.

وكان لأحد عبيد إبراهيم امرأة مضى على حملها سبعة أشهر، فطمع في مثل المال الذي أخذه الآباء وذهب إلى امرأته وأمرها أن تضع من في بطنها فقالت: ومن تستطيع أن تضع حملها قبل أوانه؟! فنهض غاضبًا إلى عصاه، وانهال عليها ضربًا وهو يقول: سيأتيك أوانه... ودوي صوت استغاثتها، فأقبل الناس إليها، وكان الضرب قد أسقط حملها، فأخذه العبد وجرى به إلى الديوان، وكان الناس قد سبقوه إلى الحاكم وقصوا عليه ما فعله في بيته، فلما أقبل بابنه فرحًا بالمال الذي سيأخذه أوقفه إبراهيم الحاكم أمامه موقف الجاني وسأله: لم فعلت بامرأتك ما فعلت من الضرب بالعصا حتى وضعت حملها قبل أن تتم مدته؟

فلم يحر جوابًا ووقف واجمًا مبهوتًا، فقال الوزير: أرني ابنك يا رجل، فبسط به الرجل يديه، وأجال الوزير فيه نظره ثم قال: لا تؤذوا هذا الرجل،

واعلم يا إبراهيم أن هذا الغلام سيكون لابنك أقوى نصير، وسينفس عنه كربًا كثيرة، وسيكون عياره، وقد سميته عمر فاتخذه من الآن أخًا لابنك، واكفل تربيتهما، ولا تهمل شأنهما، ثم منح العبد بعضًا من المال فأخذه وانصرف، وأمر إبراهيم أن يكون عمر مع ابنه وتحت رعايته.

ودع الوزير إبراهيم ورجاله، وانقلب إلى بلاده مسرورًا، وأخبر كسرى بما كان من ولادة حمزة، ومن ولد معه في يومه، وعرفه أن هؤلاء الغلمان سيكونون جنده البواسل الذين يعتمد عليهم في القتال والحروب. فاطمأن ملك الفرس وسُري عنه ما كان في صدره من هم وحزن.

❊❊❊

﴿ ٢ ﴾

أشرق صدر إبراهيم بالمستقبل الزاهر الذي ينتظر ابنه حمزة وعمر عياره، فأحسن القيام بتربيتهما وتعليمهما ضروب القتال، وركوب الخيل، واقتناص الوحوش، وصيد الأبطال، حتى مهر ابنه وفاق الأقران، وحذق عمر ما أهلته الفطرة للتبريز فيه، فكان عيارًا لا يدانيه أحد، وأمده الله بالقدرة على الجري السريع، والخفة في الحركة، كما أمده بحدة الذكاء، وإجادة الكيد، وسرعة التخلص، وسبك الحيل سبكًا لا ضعف فيه. وقد أحبه حمزة حبًا جمًا، واتخذه أخاه الذي لا يستغنى عنه ساعة. وقد اهتم إبراهيم بتعليم الغلمان الثمانمائة ضروب الفروسية والبطولة كما وصاه الوزير، وقد التفوا حول ابنه حمزة وكانوا له أطوع من ساعده. وكان حمزة قد دأب على الخروج إلى الصيد هو وعياره، ويأتي قومه بأنواع من الوحوش والغزلان كانت مثار دهشتهم وإعجابهم.

وأوغل ذات يوم حمزة وعياره في البرية، فلقيهما أسد كشر عن أنيابه، ولوح بذنبه، وزأر زئيرًا كأنه الرعد، وأقبل عليهما معجبًا بقوته مترفقًا من تيهه يبغي افتراسهما، فنزل حمزة عن جواده، وأقبل عليه كأن إنسانًا يريد أن يصافح أخاه، ثم ابتدره بضربة من سيفه فأرداه قتيلا، وشق بطنه، وأخرج قلبه فشواه على الصخر، وجعل يأكل منه هو وأخوه، ثم رجعا وكأن حمزة لم يفعل شيئًا. وأعلن عمر بين القوم ما فعله حمزة في الأسد ففرحوا وقالوا لأبيه: صدق ما قاله الوزير بزرجمهر، وسيكون خلاص عرب الحيرة من حكم الفرس على يد ابنك السعيد.

وأمعن هو وأخوه في المسير يومًا حتى غرق في متاويه الصحراء، واشتد به العطش فجف ريقه والتهبت أحشاؤه، فقال لعمر أخيه: ابحث لنا عن ماء فقد كدت أزهق عطشًا، فقال له عمر: انتظرني في ظل هذه الشجرة المنعزلة

حتى أرجع إليك بالماء، ثم انفلت كالريح باحثًا عن ماء يطفئ به نار العطش عند أخيه، ولاح لحمزة بعد أن فارقه عمر فارس مقبل إليه على جواد ناصع بياضه، ومن تحته قربة مملوءة بالماء، ولما دنا منه وجده شيخًا ذا لحية بيضاء يشرق وجهه بالهيبة والوقار، فتقدم إليه في جرأة وثبات وقال: إني عطشان وأريد منك شربة ماء أحيي بها نفسي، وأطفئ لهيب العطش في أحشائي.

فأجابه الفارس في هدوء الوقار وعزة السلطة: قف مكانك، واعرف من أمامك، واعلم أن هذا الماء لك.

فلم يجسر أن يتحرك وقال: ومن أنت يا سيدي؟! وكيف عرفت حاجتي إلى الماء؟!

فقال: اعلم أني أنا الخضر، وقد عرفني ربي ما حدث وما سيحدث لك، فاقترب أولا مني واشرب من القربة حتى تروى، ثم قف واستمع لحديثي.

فأقبل حمزة وشرب حتى ارتوى ثم وقف في أدب وقال: سمعًا وطاعة لما تقول يا سيدي.

فقال الخضر: أنت الرجل الذي سيخلص العرب من حكم الفرس، ويرتفع بك شأنهم.

ثم حكى له رؤيا ملك الفرس وتأويلها كما فسرها وزيره بزرجمهر. ثم قال له: ارجع الآن إلى أبيك واطلب منه أن يجمع لك الغلمان الثمانمائة الذين ولدوا يوم ولادتك، واتخذهم رفقاءك وأنصارك الذين لا يفارقونك، فهؤلاء جنودك الذين ستدوس بهم رقاب الجبابرة، وتبطل كل دين فاسد، وتنشر الإيمان، وتبسط نوره في البلاد والممالك. فأشرقت أسارير وجه حمزة، وأقبل يبغى تقبيل يدي الخضر، ولكنه لم ير أحدًا أمامه. فوقف وقفة الذاهل لا يلتفت يمنة ولا يسرة. وأقبل أخوه عمر بالماء حينئذ، فظن أنه في فتور العطش وإعيائه وذهوله، فأسرع إليه وقال: هذا الماء فاشرب حتى ترتوي، فابتسم وقال: سقاني ربي، ولا حاجة بي إلى مائك، فاشرب أنت منه ما شئت.

فقال عمر: ومن أين جاءك الماء وأنت ما برحت مكانك؟! فحكى له ما

فاقتنع حمزة وشرب حتى ارتوى

جرى له في غيبته. فقال عمر: لا خوف عليك بعد الآن، وستكون في وقاية من رعاية الله وعنايته، وستجد من الخضر معونة لا يقدر عليها إنس ولا جان، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

رجع حمزة إلى أبيه وأخبره بما كان من الخضر عليه السلام، ففرح أبوه وجمع له الغلمان ووضعهم تحت أمره ونهيه، وكانوا هم قد فطروا على محبته وطاعته، فجعل يدربهم على القتال وفنونه، واتخذ عمر أخوه منهم أربعين ودربهم على فنون العيارة والحيل والخداع ورمي النبال حتى كان له من العيارين فئة لا يجاريهم أحد في عملهم، وجعل حمزة من ذلك الحين يغير على القبائل حتى ذاع صيته، وملأ الخوف منه قلوب من عرفه، وعرف الناس له قوته وشرف محتده.

وخرج حمزة ذات يوم إلى قوم كانوا قد اعتدوا على قومه فأغار عليهم بعصبته وأدبهم وغنم منهم أموالا كثيرة، ثم رجع، ولما قرب من مكة وجد خيامًا مضروبة لطوائف من جنود العرب والعجم، فأرسل عياره عمر ليرجع إليه بأنبائهم، فكان كلمحة البرق في ذهابه وجيئته وقال: هؤلاء جنود من العرب للنعمان، وجنود من العجم لملك الفرس، وقد جاءوا في موعدهم من كل عام ليأخذوا من العرب الجزية التي اعتادوا أن يرفعوها إلى ملك الفرس كل سنة.

فقال حمزة: عجبًا للعرب!! كيف يذلون للعجم وهم أثبت قدمًا، وأجرأ قلبًا، وأمضى سيفًا، وأقدر على خوض الأهوال والمعارك من هؤلاء الأعجام الذين انغمسوا في الترف، وألفوا الراحة والنعيم؟! ثم قال لأخيه عمر: لن تسكن لي ثائرة حتى أطرد هؤلاء الجنود أذلة صاغرين، ولا يهمني غضب النعمان ولا ملك الفرس، فما أنا ممن يخاف لهم بأسًا أو سطوة، ثم هجم هو وعصبته على هؤلاء الجنود هجمة أهلكت بعضهم، فركنوا إلى الفرار ناجين بأنفسهم تاركين أسلابهم وما جمعوه من أموال الجزية؛ فغنمها حمزة ورجع إلى مكة قرير العين مطمئنًا.

خاف أبوه أن يثير عمله هذا غضب النعمان وكسرى فيرسلوا جنودًا

من قبلهم للانتقام وأخذ الجزية غصبًا، وأنحى عليه باللائمة؛ فقال لأبيه: مضت تلك الأيام التي كان فيها كسرى وحليفه النعمان يتوهمان أن العرب أضعف جندًا منهما، وسأسير بجندي إليهما لأحاربهما وأهزمهما، فقال أبوه: يا بني؛ الرأي قبل الشجاعة، والعقل أشد سطوة من حد السيف، فحكِّم العقل والرأي في أمرك، وإياك والمجازفة فإنها غير مأمونة العاقبة.

فقال: قد عقلت ورأيت ولن يكون إلا ما أردت، ولا بد من المسير إليهما، فلن يصبر حمزة على ضيم العرب وسيفه في يده.

وقال قوم أبيه: لا تعترض سبيل ابنك، واذكر ما بشرك به بزرجمهر، وأنه مخلص العرب ورافع رأسهم، فقال أبوه: لك الله يا بني فيما رأيت وفعلت.

سار حمزة وعصبته جادين دائبين، واعترضهم أسد في الطريق فتصدى له حمزة وقتله، والتفت نحو جبل هناك فرأى فارسًا يندلق إليه فلبث مكانه حتى جاءه وقال له: إن كنت قد نجوت من رفيقي فلا منجاة لك من سيفي، فقال حمزة: ومن رفيقك يا هذا؟ فقال: هذا الأسد الذي قتلته، فقال حمزة: وكيف جمعتكما شريعة وأنتما متباينان في الصفات والفطرة؟! فقال: جمعتنا الشفقة والاعتراف بالجميل، فقال حمزة: وكيف كان ذلك؟!

فقال الفارس: إني من فرسان النعمان، وله بنت اسمها القناصة، تجيد ركوب الخيل ومنازلة الأبطال، ورغبت في الزواج منها ولكني لم أستطع إبداء رغبتي لأبيها.

وذات يوم وجدنا المدينة قد أحيطت بجنود كالجراد، وما كنا نعرفهم ولا نعرف سببًا لمجيئهم، ودخل على النعمان رسول يحمل كتابًا فدفعه إليه، ولما قرأه عرف أنه من الأمير غشام أحد أمراء العراق وأنه يخطب القناصة لنفسه، وينذره بسببها إن لم يزوجه إياها. فقال رجال النعمان: استشر ابنتك فإن رضيت فذاك وإلا قاتلنا دونها، واستشار النعمان ابنته فأبت وقالت: ادعه إلى مبارزتي فإن غلبته وقهرته، فقد دفعته عنكم من غير أن يراق دم، وإن غلبني كنت زوجته، فقال لها أبوها: إنه فارس غلاب قاهر، فقالت: أنا أعرف بنفسي فاكتب إليه بذلك، فكتب النعمان: إن ابني أقسمت ألا تتزوج

إلا ممن يغلبها في ميدان المبارزة، فإن أردت ذلك فالتق بها في الميدان غدًا. فوافق غشام على مبارزتها.

وفي الصباح جال غشام في الميدان وفاء بما وعد، وبرزت إليه القناصة ونشبت بينهما مبارزة حامية انتهت بأن خطفها بيده ومضى بها إلى قومه فقال الفارس لحمزة: وكان سببُها هذا نكبة لم أطق احتمالها، فأصررت على أن أمضي ليلا إلى معسكر غشام وأخلصها من أسرها، وأكون بذلك قد قدمت معروفًا إلى أبيها وإليها، وقويت أملي في رضاها.

ولما جاء الليل انسللت في الظلام إلى صوان غشام فذبحت حارسه ودخلت عليه فألفيته يغط في نومه فذبحته، ثم فككت قيودها وانسللت بها إلى أبيها، فجعلت تشكرني وتحمد لي صنيعي، وسألتني عما دفعني إلى هذا العمل الذي فيه خطر على حياتي، فأعلمتها أن هذا عمل يعمله كل رجل فيه مروءة ونخوة.

وفي الصباح جمعنا مجلس النعمان وانتظرت قدومها لأسمع قصتها لأبيها، فلما دخلت وقف الحاضرون إجلالا لها وعجبوا أن رأوها داخلة عليهم بعد أن سباها الأمير غشام وهنأوها بخلاصها من أسرها، وشكرت لهم جميل تهانيهم ثم قالت لأبيها: إني ما سبيت أمس عن ضعف مني، ولكن القدر أسلمني إلى غشام لقتله في صوانه، وكان ما دبرته؛ فقد استغفلته وذبحته وفررت في الظلام ورجعت إليكم - قال الفارس - فعجبت لكذبها وجحودها المعروف، ونقضها العهد وقلت لأبيها: لقد كذبت القناصة وما أبدت وفاء ولا صدقًا، ثم قصصت عليه ما فعلته، فانبرت غاضبة حاقدة وقالت: ما هذا إلا كذاب أشر، وما حمله على ذلك إلا رغبته في الزواج مني، وذلك أمر بعيد، فإذا كنت قد أبيت أن أتزوج من الملوك فهل يصح في العقل أن أتزوج كذابًا كهذا؟!

فقلت لها: أتنكرين أني قتلت الحارس، وقتلت غشامًا، وفككت قيودك، وخرجت بك في جنح الظلام؟! أين شكرك الذي قلدتني إياه؟ ما كنت لأنتظر من أميرة أبوها من كبار الملوك أن تدنس نفسها بالكذب والخيانة.

ولما وجد أبوها في قولي صراحة وقسوة طردني، وأمر أن أنفي من المدينة ولا أعود إليها. فخرجت من المدينة وأويت إلى هذا الجبل، فربما وجدت الوفاء في وحوشه وسباعه، وبينما كنت سائرًا فيه اعترضني هذا الأسد الذي قتلته، وقامت بيني وبينه معركة كنت فيها الغالب، فقد ضربته «بالدبوس» ضربة قوية أصابت رأسه فوقع على الأرض متأثرًا بها، وأسرعت إلى سيفي أبغي ذبحه أو تقطيعه، فنظر إلى نظرة من عينين تسيل منهما دموع الاستعطاف والرحمة، فأغمدت سيفي، ومسحت بيدى عينيه وربت على صدره، فنهض يلوح بذنبه، ويطامن من رأسه، ويتمسح في ثيابي كأنه يشعرني بأنه معترف بالجميل، ويريد أن يكون لي صديقًا ورفيقًا؛ ودار بخلدي هذا الشعور فصحبته، وجعل ينتظر العابر في هذا الطريق فيخيفه أو يفتك به ويأتيني بما معه من مال وزاد، حتى قدمت أنت وخرج إليك فقتلته وهذه قصتي.

فقال حمزة: وما اسمك؟! فقال: مخلوف. فقال حمزة: إني ذاهب إلى النعمان لأحاربه، فتعال معي، وادخل في طاعتي، وكن من فرساني، وإني أعدك أن أزوجك القناصة بنت النعمان. وفرح مخلوف وقال: وإني لك من الآن الخادم المطيع الذي لا يفارق ركابك.

وسار حمزة وجنوده، وتقدمهم هو وعمر ومخلوف حتى انتهوا إلى طريق ضيق فوجد فيه أربعة من العجم، فقال لعمر: هاتهم إليّ. فلما جاء بهم وجدهم حفاة عراة مقيدين، فبكوا وقالوا: أتبغي بنا شرًّا أكثر مما نحن فيه؟ فقال حمزة: لا خوف عليكم، فقد وقعتم في يد من يكشف الضر عنكم، فقصوا عليّ قصتكم، وأمر عمر أن يفك قيودهم ويأتيهم بطعام يأكلونه، ولما أكلوا وشبعوا واطمأنوا قال أحدهم: اعلم أيها السيد الكريم أننا من تجار العجم، نجول ببضاعتنا في البلاد، وكنا قد بعنا البضاعة ورجعنا بثمنها، فلقينا في الطريق فارس ومعه أربعون على شاكلته فقلنا له: إننا من رجال ملك العجم نحمل إليه أمواله، فسلب ما معنا من الأموال، وحبسنا في الأغلال، وقال: اذهبوا إلى ملككم وبلغوه الذي نهب أموالكم وحبسكم في أغلالكم «أصفران الدرنبدي» فإن كان لديه نخوة وقوة فليأتني في حصني.

فقال لهم حمزة: سيروا أمامي ودلوني على هذا الذي فعل بكم ما فعل، لأرد إليكم أموالكم ومعها أموال من أموالهم، فقالوا: لقد نجونا بأنفسنا وإن رجعنا إليه أهلكنا، ومن الخطأ أن نعود إلى مواطن الهلكة بعد أن نجونا منها، فقال: لا تخافوا، وسترون ما يحل به، وأن أموالكم وأموالا معها سترد إليكم، فاطمئنوا ولا تفزعوا. وسار معهم حتى بانت قلعة الدرنبدي، فقالوا: هذه قلعته وسنختبئ في مكان بعيد ولا نظهر له، ولا لأحد من أتباعه إلا إذا انتصرتم عليه وقهرتموه فقال: ما أجبنكم! وما أضعف الرجولة فيكم!! فاختبئوا حيث تشاءون، ثم مضى ثلاثتهم في سبيلهم إلى القلعة: حمزة وعمر ومخلوف، وكان الدرنبدي من الفرسان المعدودين، أوى إلى قلعته هذه ومعه أربعون من الفرسان الأقوياء، وقطعوا السبيل، فكانوا ينهبون كل عابر فردًا كان أو جماعة حتى امتلأت قلعته بالأموال الكثيرة.

وبينما هو جالس في قلعته سمع حمزة يناديه، فأطل من النافذة ونظر إليه في ازدراء وسخرية وقال: من أنت؟! وما تريد؟ فقال حمزة: أريد أن أقطع رأسك بسيفي هذا، وأريح الناس من شرك، فاخرج من قلعتك ولا تطل في القول، فاغتاظ الدرنبدي وكبر عنده هذا التهديد الصارخ، وركب جواده وخرج إليه؛ فلما رأى ملامح الشجاعة بادية فيه قال له: عرفني بنفسك أيها الغلام، فربما أشفقت عليك وأبقيتك مكتفيًا بأخذ ما معك من الجواد والسلاح.

فقال حمزة: لا سبيل إلى معرفتي الآن، وقد جئت لأرد للأعجام أموالهم التي سلبتها ظلمًا، ولأكف يدك عن ظلم العابرين والاعتداء عليهم. فإن رضيت بذلك عفوت عنك وإلا فسأسقي سيفي من دمك ودماء من معك، ولن تجد مني غير ما سمعت. وكان أصحاب حمزة قد وصلوا إليه، وأصحاب الدرنبدي قد خرجوا من القلعة على جيادهم، وسل الدرنبدي سيفه وانقض على حمزة يريد افتراسه، فلقيه حمزة بما أفزعه وضيع صوابه؛ ثم اختطفه من ظهر جواده وقال لعمر: خذ هذا وكتِّفه واحفظه عندك حتى أقضي على أتباعه. فقال الدرنبدي: عفوًا أيها الأمير عفوًا يا سيدي حمزة،

فاتخذني رفيقًا لك وصديقًا أسر في ركابك وأتبعك بسيفي حيث تريد، فعاملني بما جبلت عليه من العفو والرحمة.

فعجب الأمير حمزة حين ذكر اسمه ولم يكن قد عرفه به وقال: وكيف عرفتني وما التقينا من قبل؟ فقال: مررت ذات يوم بمغارة في لحف جبل فأويت إليها من حر الشمس، فوجدت فيها شيخًا أبيضَّ شعره وطال، وأوهنه الكبر حتى عجز عن النهوض والقيام، ولكن وجهه يشرق وضاءة ونورًا؛ فأخذتني الهيبة منه. ولما رآني قال: تعال يا أصفران فقد حان الأجل وأنت الموعود بأن توارى جسمي التراب، فزادت هيبتي ومخافتي منه، وأدركت أنه من أولياء الله الصالحين، وخطر ببالي أن أسأله عن مصيري فقلت: لقد خوفت بسيفي كل بطل مغوار، وكل ملك مستكبر جبار، فهل سيجود الزمن بمن يفوقني؟ فقال: لا يغرنك شأنك فمنذ أعوام قليلة ولد بمكة حمزة ابن أميرها إبراهيم وهو الذي يفوقك ويكيدك، وستكون من أتباعه وينالك منه الخير. وسيخلص العرب من أيدي العجم، ويملك البلاد، فإذا قابلته فبلغه تحياتي، وإياك أن تقاتله أو تعترض سبيله.

قال أصفران: ثم فاضت روحه، وواريته التراب ورجعت إلى قلعتي أنتظر حمزة بن إبراهيم حتى جئتني وخرجت إليك وحدثتك بما سمعت. فأطرق حمزة قليلا ثم رفع رأسه وقال: حمدًا لله وشكرًا، وأنت الآن من أتباعي، وفي المنزلة التي تليق بشجاعتك وقوتك؛ وأريد منك الآن أن ترد إلى العجم الأربعة أموالهم – وكانوا قد رأوا ما كان من أصفران – فظهروا من مخبئهم، وجاءوا إلى أصحاب حمزة، فقال أصفران: ألا تعلم يا سيدي أن الأموال التي نهبتها من العجم هي أموال العرب التي "يأخذونها منهم جزية وخراجًا ظلمًا وعدوانًا؟ فتلك أموالنا ردت إلينا، فقال حمزة: أعلم ذلك، ولكن نهب الأموال بتلك الطريقة لا يرضي الله.

فقال الدرنبدي: الأموال في القلعة والأمر لك، وأود أن تضيفني في القلعة لأعطيك أمانة من الشيخ الصالح الذي عرفني بك في المغارة، وهي ستة معاضد من ذهب، واحد منها لك، وخمسة لأولادك.

فقال حمزة: وما فائدتها؟ فقال: أخبرني ولي الله هذا أن لابس المعضد لا

تنفذ فيه مكيدة، وإذا أمسك قطعة من حديد لانت في يده، فلواها أو قطعها كما يشاء.

فرح حمزة ودخل القلعة ومن خلفه رجاله، وفيها أعطى الأعجام أموالهم، ونفحهم أموالا فوق أموالهم فأخذوها فرحين وانصرفوا إلى بلادهم، وأقام هو ورجاله ثلاثة أيام، وأخذ المعاضد ولبس واحدًا منها، وحفظ الباقي عنده إلى حينه، ثم أخذوا جميع ما في القلعة من الأموال ورحلوا ورحل معهم الدرنبدي ورجاله وأصبحوا من أتباع حمزة.

***

﴿ ٣ ﴾

دخل حمزة ورجاله أرض النعمان، وكان قد بلغه من رجاله المهزومين في مكة ما فعله حمزة بهم وبرجال ملك العجم التابع له، فكتب إليه بما حصل من حمزة لجباة الجزية من رجالهما وانتظر أن يجيبه بما يرى.

اضطرب النعمان لقدوم حمزة فجمع رجال الرأي عنده وشاورهم فيما ينبغي أن يفعله، فأشاروا عليه أن يطاول في قتاله حتى يأتيه رأى ملك العجم، وقالت ابنته القناصة: يا أبي، إن حمزة ما جاءنا إلا ليهلكنا ويخرب ديارنا، ويطردنا من أرضنا، ولا بد من قتاله وكسر شوكته وإني قادرة على أن أرده عنكم وأكفيكم شره، وأفعل به ما فعلته بالأمير غشام، فقال أبوها ما كل مرة تسلم الجرة، وهذا غلام لا تستطيعين الوقوف أمامه فلا تجعلي مرة واحدة انتصرت فيها عرضًا واتفاقًا دستورًا لك في حياتك، واعلمي أن حمزة غير غشام وأن هدفه من القتال غير هدف غشام، فقالت: ستعلم يا أبي أينا أهدي سبيلا، وسترى من كيد ابنتك وخداعها ما تقر به عينك.

فقال أبوها: لك ما تختارين، فنهضت القناصة وسارت إلى حمزة في طائفة من البنات لتلتقي به في مكان بعيد عن الحيرة، وفي نفسها أن تقتله أو تأسره بالمكر والخديعة إن لم تظهر عليه بسيفها وشجاعتها.

نزل حمزة ورجاله في أرض بينها وبين مدينة النعمان مسيرة اثنتي عشرة ساعة ليأخذوا جمامهم ويستريحوا، ثم يستأنفوا مسيرهم، وقبل أن يرحلوا منها جاءت القناصة وبناتها ونزلن في ناحية من تلك الأرض تجاه حمزة ورجاله، فسأل مخلوفًا عن هذه الفئة النازلة، فربما كانت قافلة عابرة. فقال مخلوف: تلك القناصة بنت النعمان وفئتها من البنات، وأغلب الظن أن أخبارنا وصلت إليها وإلى أبيها فكفلت لقومها وأبيها طردنا وردنا بما عرفت به من المكر والكيد، فجاءت ونزلت تجاهنا حيث نزلت من أجل ذلك، وإني

أحب أن أبرز إليها في القتال لعلي أظهر عليها وأسبيها، فأنت تعلم ما جرى بيني وبينها، وكيف جحدت فضلي وأنكرت معروفي؟!!

فقال حمزة: لك يا مخلوف ما شئت.

وفي الصباح أسرع مخلوف إلى الميدان وجال فيه جولات الثابت الواثق من نفسه، فبرزت إليه القناصة وقالت: ألا تزال حيا ترزق؟! لقد حسبتك هلكت مع الهالكين أيها الكذاب. فقال: عجبًا لك تكذبين وترمين الأبرياء الصادقين بالكذب، فما أجرأك على الإثم والعدوان، ثم جالا وتصاولا وكان مخلوف ظاهرًا عليها. ولما عجزت عن قهره لجأت إلى الكيد والحيلة فقالت: دعني أخفف عني بعض الدروع لأن الحر شديد لا أحتمله، فقال: افعلي ما شئت، وما أنا بتاركك إلا مقتولة أو مسبية، ثم كشفت عن صدرها متأففة عسى أن يكون تألمها سببًا في تخفيف حملته، ولكن حمزة أدرك المكيدة التي نصبت شركها لمخلوف وخشي أن يقع فيه فأسرع إليها وقال لها: اتركي هذا الكيد الذي اتخذته لك بضاعة، وابرزي إلى من يضيع عنده كيد أمثالك، فأيقنت القناصة أنها مغلوبة وطلبت منه الأمان وأن تسلم نفسها إليه، فقادها إلى رجاله الذين فرحوا بأسرها. أما البنات اللائي كن معها فلم يتعرض إليهن حمزة ولا أحد من رجاله، ورجعن إلى النعمان وأخبرته بما وقع لابنته.

سبى حمزة القناصة ووفى بوعده لمخلوف الذي تزوجها، ولكنها كانت تضمر لمخلوف شرًا، فجعلت تتودد إليه وتمنيه بالمستقبل السعيد والعشرة الطيبة حتى اطمأن ونام، ثم نهضت إلى سيفه فذبحته، وأخذت رأسه وانفلتت به في جنح الليل ومضت إلى أبيها.

وقلق حمزة في آخر الليل وذكر ما قالته القناصة في غشام، وأنها خدعته حتى قتلته، فخشى أن تفعل بمخلوف ما فعلته بغشام حسب قولها؛ وذهب إلى صوانه فوجده،مذبوحا ولم يجد القناصة معه، فدعا عمر وأمره أن يأتيه بجواده وقال: هيا بنا لندرك القناصة الخائنة في طريقها إلى أبيها، وأحس الدرنبدي بذلك فركب جواده وتهيأ للمسير معه، وهب رجاله بقيادة رئيسهم عقيل، وساروا من خلف حمزة وكان قد انطلق بجواده في الطريق وعمر يجري بين يديه كأنه الريح القاصف.

وصل حمزة إلى قصر النعمان فنزل عن جواده وأسلمه إلى عياره ودخل القصر، ولم يكن أحد يعرفه فوجد القناصة واقفة أمام والدها تحمل رأس مخلوف وتقول له: لقد أسرت باختياري وتدبير مني لآتيك برأس مخلوف، وقد نجح تدبيري وجئتك به، وسآتيك في المرة الثانية برأس حمزة. فقال لها حمزة: ومن يبقيك حتى تغدري وتخوني؟! ثم ضربها بسيفه فشقها نصفين، وهجم الحرس عليه فابتدرهم بسيفه ومزقهم، وأفسح الطريق لنفسه حتى خرج من القصر فركب جواده واستعد للقاء من يأتيه من جند النعمان.

وكان النعمان قد خرج من باب آخر وأخذ يجمع الجند لقتال حمزة، فما كاد حمزة يخرج من القصر حتى وجد الجنود تندلق عليه من كل فج، فهاج فيهم وعمر من خلفه يحمي ظهره، وكان رجاله قد حضروا ورأوا القتال دائرة رحاه بين زعيمهم حمزة، وجنود النعمان، فانهالوا عليهم وجعلوا يتخطفون أرواحهم حتى شردوا وهربوا، ووقع النعمان أسيرًا في يد حمزة.

دخل حمزة قصر النعمان وجلس على كرسي ملكه ثم دعا به فأحضروه بين يديه فقال: يا عمر.. خذ هذا الرجل واقطع عنقه، فاستغاث النعمان وقال: إني عربي وأحب أن أكون معك، فلا تحرمني لذة وجودك ومعونتي لك، فقال: إنك رجل تركت عبادة الله، ودخلت في دين العجم وهذا كاف عندي لقتلك، فقال: ما دخلت في دينهم إلا مكرهًا، وإن أحب الأشياء إلى نفسي أن أعبد الله وحده كما كان يعبده آبائي وأجدادي وإني من الآن قد آمنت بالله، ودخلت في طاعتك فاتخذني لك نصيرًا وأبقني إلى أن أراك جالسًا على عرش العجم كما بشر بذلك الوزير بزرجمهر، فقال كبار رجال النعمان: ونحن قد آمنا بالله، وأسلمنا إليك أمرنا، ولن تجد في المدينة أحدًا بعد ذلك على دين العجم. فنهض حمزة وقال له: قد عفوت عنك فاجلس على عرش ملكك، وإياك أن تعرف ملك العجم، أو تدين له بالطاعة، فقال النعمان: شكرًا لك، وما أنا وجنودي و بلادي إلا ملك لك وفدية لحياتك.

أبدى حمزة رغبته في المسير إلى ملك العجم فقال النعمان: أود ألا تستعجل القدر، وأحب أن تعود إلى مكة حتى يستنجد بك ملك العجم فتقهر خصمه،

لقد أسرت باختياري وتدبير مني لأتيك برأس مخلوف

وحينئذ يدين لك بالمعروف، ويستسلم لك، فإن أطاعك واتبعك فذلك ما تريده، وإن أدبر واستكبر أذللته بسيفك وملكت بلاده، فقال حمزة: لا بأس في ذلك، وكل أمر مرهون بوقته؛ ثم أمر بالرحيل والعودة إلى مكة.

***

﴿ ٤ ﴾

هدأت الحال، وسكنت ريح الخلاف، واستقرت السيوف في أغمادها، واطمأن كل في بلده شهرًا أو يزيد. وعلى بغتة من هدوء ملك العجم وأمنه بلغه أن «خارتين» صاحب حصن خيبر جمع الألوف من رجاله، ودخل أرض العجم، فهو لا يترك بلدًا أو مدينة إلا أدخلها في طاعته، أو دمرها، وهو في طريقه إلى المدائن ليجلس على عرش كسرى، فأمر وزيره «بختك بن قرقيش» أن يلقاه بالجيوش في ظاهر المدينة ويهلكه ويهلك جنده.

هذه الحرب قائمة أمام المدائن، وهؤلاء جنود العجم يكافحون العدو المغير، وهذا خارتين الخيبري يقدم جنده فيجتاح الجناح الأيمن من العجم تارة، ويجتاح الجناح الأيسر تارة أخرى، ثم يهجم على القلب فيصدعه، واستمرت أيامًا وجنود العجم لا يزيدهم مضي الأيام إلا بأسًا، واضطر كسرى إلى أن يأخذ نفائسه وأهله ووزراءه ويرحل إلى طهران.

دخل خارتين إلى المدائن وجلس على عرش كسرى، ونادى باسمه ملكًا، وأرسل في طلب الحكام التابعين لدولة العجم فما جاءه أحد منهم، أما كسرى فقد ذكره الوزير بزرجمهر برؤياه، وأن حمزة العرب ورجاله الذين رباهم بأمواله هم الذين سيخرجون العدو ويطردونه صاغرًا، فأرسل في الحال وزيره بزرجمهر إلى مكة ومعه الأموال والنفائس لينفح حمزة بها ويدعوه إلى أن ينقذ البلاد من خارتين الخيبري وجنوده. فأسرع بالرحيل وكان بمكة بعد بضعة أيام، وهناك عرفه إبراهيم والد حمزة فأحسن استقباله وأكرم ضيافته. ثم أعطاه الهدايا وذكره بالرؤيا وقال: إن كسرى بعثني إلى حمزة مستنجدًا مستنصرًا، فقد أغار عليه خارتين الخيبري وملك المدائن ونادى بنفسه ملكًا على العجم والعرب وقال: وسأغزو قبائل العرب حتى يدخلوا في طاعتي صاغرين، فقال حمزة: ولن يخرس لسان هذا المغرور بنفسه الإسيفي، ثم

أمر رجاله بالرحيل إلى بلاد العجم ليجدع أنف هذا الخيبري المستكبر. أما الوزير فإنه ودعهم ورجع إلى ملكه ليبشره بقدوم حمزة وعودته إلى عاصمة ملكه.

رحل حمزة ورجاله ونزل على النعمان الذي أصر أن يكون معه هو وجنوده. وبعد ثلاثة أيام أقامها عند النعمان للراحة سافروا جميعهم إلى المدائن، وأشار النعمان عليه أن يعسكر في ظاهر المدينة، ويبعث إلى خارتين كتابًا يخبره فيه بين الطاعة والقتال.

عسكر حمزة ونزل بجنوده أمام المدينة، وبعث عياره عمر بكتاب قال فيه:

«من حمزة أمير العرب إلى خارتين الخيبري

لقد اعتديت على ملك كسرى، ودخلت عاصمته قسرًا وظلمًا، وقد جئتك لأطردك منها صاغرًا فإما أطعت وأسرعت بالهرب إلى بلدك، وإما خرجت أنت وجنودك إلى قتالي».

دخل عمر على خارتين في ديوانه وناوله الكتاب، فلما قرأه فار على كرسيه فوران القدر وقال: ومن حمزة هذا؟! وهل في الدنيا من تحدثه نفسه بقتالي؟! فقال عمر: اكتب إليه بما تختاره لنفسك، فقال: ومن هذا الذي أكتب إليه؟! ألا فلترجع إلى سيدك، وبلغه أني سألقاه غدًا في ميدان القتال. فرجع عمر وبلغ حمزة ما قاله خارتين، وبات الفريقان على أن يتقاتلا غدًا.

لبث حمزة منتظرًا حتى عبأ خارتين جنوده أمام المدينة، وتجاه حمزة ورجاله، ثم بدأت الحرب فتواثب الفريقان واندفق كل على أخيه اندفاق السيل، وأحس خارتين وجنده أنهم ألقوا بأنفسهم في بركان الفناء، ففزعوا لما أصابهم، وزادهم رعبًا أن رأوا خارتين ملكهم قد ضربه حمزة بالسيف ضربة قطعته نصفين، فهموا أن يفروا إلى المدينة يلوذون بها، ولكن العجم كانوا يستقبلونهم بسيوفهم عند أبوابها، فوجدوا أنهم يحصدون من الخلف حصدًا، ويحصدون من الأمام حصدًا، فسلكوا المهارب ذات اليمين وذات اليسار، وخرجوا من بلاد العجم خروج الشعرة من العجين.

ودخل حمزة المدائن، واستقبله أهلها فرحين به؛ فجلس على عرش كسرى، ووجد في خزائنه كثيرًا من أموال خارتين التي كان قد نهبها من

البلاد المغلوبة، فقال النعمان: هذه الأموال لنا لأننا كسبناه بسيوفنا من أعدائنا، فقال حمزة: إنا نقاتل عن كسرى وكل مغنم كسبناه فهو له، يتصرف فيه كما يشاء، وليس العرب طلاب مال، ولكنهم طلاب مجد وسيادة وشرف ورفعة، ودخل عليه عمر عياره إذ ذاك يحمل رأس خارتين فقال له حمزة: ولم كلفت نفسك حمل رأس هذا الكلب النجس؟! فقال: أعلم أنك ستبعثني إلى كسرى لتبشره برجوعه إلى ملكه وعاصمته، فقلت: إذا كان معي رأس خارتين كان أبلغ في فرحه وتأثير البشري في نفسه. فأعطاه حمزة كتاب البشري وأمره أن يسير به إلى كسرى في طهران.

دخل عمر العيار على كسرى في مجلسه وكان حافلا بوزرائه وكبرائه الذين صحبوه إلى طهران، فألقى رأس خارتين بين يديه وناوله الكتاب وقال: أبشر بهلاك عدوك خارتين وهذا رأسه بين يديك، وأبشر بعودتك إلى ملكك، وإن سيدي يدعوك إلى الجلوس على عرشك في عاصمتك، وهذا كتابه إليك بما سمعت، فقرأ الكتاب وكاد هو وجلساؤه يسكرون من شدة الفرح، وقال كسرى: لا زالت الدنيا عامرة بك يا حمزة، وما أنت فينا إلا مشرق حياة، ومنبع فضل ونعمة؛ فهيا بنا إلى المدائن لنشرف بلقائه، ونؤدي واجب الشكر له. ثم قال لعمر: بلغ سيدك أننا قادمون إليه في أثرك.

وقال النعمان لحمزة: يحسن أن نقيم في خيامنا حتى إذا جاء كسرى وجلس على عرش ملكه دعانا إليه وذهبنا إليه أعزة مكرمين. فكان ما أشار به النعمان وأقاموا في خيامهم يرتقبون.

دخل كسرى المدائن بسيف حمزة بعد أن أخرجه خارتين الخيبري منها مطرودًا، ولما جلس في إيوانه، أحس هو وأهل المدينة ما لحمزة ورجاله العرب من الفضل الجزيل عليهم، وأنهم مدينون لهم بهذا الملك العريض، وسأل عن حمزة فقيل: إنه مقيم في خيامه بين رجاله، وما دخل المدينة إلا لمشاهدة ما فيها من جمال وحضارة، وقد عف عن أن يأخذ من الأموال التي غنمها من خارتين شيئًا وقال: إنها لكسرى وما ينبغي لنا أن نأخذ منها درهمًا، فكان لهذا وقع جميل في نفسه، وقال لوزيره بزرجمهر: اذهب

إليه وادعه إلينا لنؤدي واجب الشكر له ونحظى بلقائه، فقال الوزير: إن العجم اعتادوا أن يلقوا العرب بالازدراء والسخرية وعلى أنهم عبيد لهم أذلة وأخشى أن يلمح حمزة شيئًا من هذا فلا يطيق احتماله. وحينئذ يجرد سيفه ويعمله فينا حتى يرغمنا على احترام العرب وإجلالهم، فإذا أعلنت في المدينة وفي مجلسك أن نلقاهم بالمحبة والإجلال، وأن من أبدى سخرية لهم قتلته ذهبت إليه ودعوته إلى مجلسك، فقال: ذلك حق، وقد أمرتك أن تعلن هذا في المدينة، وأن يستقبله الوزير بختك بن قرقيش في موكب رسمي من أبهى المواكب وأفخمها، فصدع الوزير بزرجمهر بأمره، وإن كان هذا لا يرضي بختك بن قرقيش لأنه يبغض العرب، ويضمر لهم في نفسه كل شر وأذى. وقد أعلم النعمان الأمير حمزة أن بختك لا يحب العرب وأنه يتربص بهم كل دائرة، ويحط من قدرهم بكل ما أوتي من قدرة. فقال حمزة: ومثل هذا لا ينبغي تركه لكفره بالله وكراهيته للعرب المؤمنين، ومن الواجب أن نسعى في قتله إذا أصر على كيده وكفره.

ذهب الوزير بزرجمهر إلى حمزة ودعاه إلى كسرى، فسار معه هو والنعمان وكبراء رجالهما، وكان بختك في استقبالهم بباب المدينة في موكب عظيم، وكثير من أهل المدينة رجالها ونسائها، ولما كان أمام الإيوان أراد بختك أن يأخذ من حمزة سيفه لأن كسرى لا يدخل عليه أحد يحمل سلاحًا، فامتنع حمزة ونظر إلى الوزير بختك نظرة استنكار وعجب، فلما مد يده لأخذ سيفه مرة أخرى صفعه حمزة على وجهه صفعة قوية أسالت دمه، وأسقطت بعض أسنانه، ودخل يصرخ إلى كسرى وشكا إليه ما فعله حمزة به لأنه أراد أن يدخله من غير سلاح، فقال كسرى: أذنت له أن يدخل ومعه سيفه وبالحالة التي يختارها لنفسه، وأراد النعمان أن يترك سلاحه كعادته فمنعه حمزة وأمره أن يدخل معه حاملا سيفه ففعل. وقضوا مع الملك وقتًا طويلا في سرور وأكل وشرب، وكان الوزير بختك منزويًا في ذلته، وعزم في نفسه أن يدبر مكيدة للانتقام من حمزة وقتله، ثم انفرط المجلس ورجع حمزة ومن معه إلى خيامهم، وأوى كل إلى فراش نومه.

بات حمزة في خيمته وعمر أخوه يحرسها فهو لا يفتأ يمشي حولها في يقظة وانتباه عظيمين، ولاح له شبح إنسان قريب من الخيمة فذهب إليه وأمسكه وقال: من أنت؟! ولم جئت في هذا الوقت من الليل؟! فقال: إني رسول ابنة كسرى «مهردكار» ومعي له منها كتاب وخاتم، فقال عمر: هات ما معك وانتظرني هنا حتى أوصله إليه.

دخل عمر على الأمير حمزة وأيقظه فقال: ما بك يا عمر؟! فقال: كل خير، وهذا كتاب وخاتم وطعام، أتي به إليك الآن رسول «مهردكار» ابنة كسرى، وهو في الخارج ينتظر إجابتك.

أخذ حمزة الكتاب وفضه فوجده مكتوبًا بلغة العرب، وقرأه على ضوء شمعة كان عمر قد أشعلها حين دخل، وظنه حمزة لأول وهلة في شأن من شئون القتال، وفضله على أبيها بأن سحق أعداءه وأرجعه إلى عرشه ولكنه وجد فيه:

- «ما خطر لقلبي أن يعلق بفتى من الفتيان أبدًا، أو يستجيب لدعوة الهوى الذي يسيطر على قلوب الفتيات طلبًا لمتعة أو إشباعًا لرغبة، ولأول مرة أغرم بشجاعتك، وخلقك الكريم، ودينك الحق الذي عرفت به رب السموات والأرض وعبدته حق عبادته، ولهذا فقد ربطت حياتي بحياتك، واخترتك لي من دون الناس زوجًا، ولن أبغي عنك حولا، فإما أحييتني بالزواج منك حياة طيبة قوامها عبادة الله والاعتصام بشريعته، وإما أهلكتني بالحرمان وتركي أعمه في ظلمات الجهل والشيطان، ولا إخالك إلا داعيًا إلى الله راغبًا فيمن يطيعك فيه، ولأن يهدي الله بك فتاة واحدة خير لك من الدنيا وما فيها. وقد أرسلت إليك خاتمي لتذكر به من كتبت إليك هذا، وعاهدت ربها على الاستمساك بما فيه والسلام».

كان حمزة يقرأ الكتاب جهرة أمام عمر أخيه، فلما انتهى من قراءته التفت إليه وسأله: ماذا ترى يا عمر؟ فقال: أجب رغبتها فإنها ربح للدين في قومها، وستكون ذريتها من بعدها أعظم ربحًا. فقال: بلغ رسولها رضاي وقبولي، ولكن اكتم أنت هذا السر حتى نعرف السبيل إلى تنفيذه فخرج عمر إلى

رسول «مهردكار» وقال له: بلغ سيدتك أن تطمئن؛ فقد رضى سيدي بما طلبت، وهو فرح به كل الفرح.

لبث الوزير بختك بن قرقيش يفكر في وسيلة يقتل بها حمزة دون أن ينسب إليه فيها ريبة، ثم اهتدى إلى طريقة أهلكت عددًا من أبطال العجم وفرسانهم قبله.

دخل عمر على حمزة في صوانه وقال: بالباب رجل يتكلم باللسان العربي، ويقول إنه رسول الوزير بختك في أمر فيه صلاحك وخيرك. فقال: ما وراء بختك إلا كل شر، فاحذر هذا الرسول وعليَّ به، فلما كان بين يديه حياه وقال: إن سيدي الوزير عاتب عليك أنك ترتاب في إخلاصه إليك ومحبته لك، ويود أن تتخذه أخًا وفيًّا تعتمد عليه في شدتك، وكاشف الغمة في محنتك، وزاده رغبة في التقرب إليك أن وجدك حين صفعته شهمًا أبيًا طموح النفس عالي الهمة لا تستكين ولا تلين، ومن أمارات إخلاصه ومحبته أنه بعثني إليك في أمر لك فيه الغناء والخير، فقال حمزة: هات ما عندك يا هذا، فقال: إن لدي كسرى فرسًا اسمه الأصفران أهداه إليه الروم وهو لا يصلح إلا لفارس مثلك، ولأنه عزيز عند كسرى فإنه لا يفرط فيه أبدًا، وستجد صعوبة في أخذه منه والحصول عليه، وستجده في حومة الوغي ماردًا من مردة الشياطين، فقال حمزة: بلغ سيدك تحياتي وأني سأسعى في الحصول على هذا الفرس بأية وسيلة، قال الرسول: وإن سيدي يوصيك ألا تطلع الملك على أن الوزير له يد في إخبارك، فقال: إن شاء ربي. وانصرف الرسول وفكر حمزة في أمر هذا الفرس، ووجد أن الحصول عليه لا ضرر فيه ما دام قادرًا على إذلال أي فرس مهما يكن جموحًا شموسًا.

وذات يوم طلب حمزة من كسرى «الأصفران» فعجب وقال: ما دلك عليه إلا عدو يبغضك ويسعى في هلاكك، لقد أهدانيه الروم من زمان طويل، ونحن قائمون بإطعامه وخدمته لما نرجوه من النفع الذي يدل عليه خلقه ومزاياه، ولكننا في حيرة من أمره، فكلما تقدم إليه فارس وامتطى صهوته جمح وقذفه عن ظهره جثة هامدة، وخسرنا في ذلك فرسانًا لا تزال

قلوبنا من أجلهم دامية، وما كنت لأفرط فيك وألقي بك إلى تهلكة محتومة، فدع عنك أمر الفرس فما من سبيل لأحد إليه. فقال حمزة: شكرًا للملك على عطفه وحرصه على حياتي، ولكني أطمئنك فلن يكون الفرس معي كما كان مع الفرسان الذين سبقوني إليه، وسترى صدق ما أقول، وألح عليه حمزة حتى أذن له أن يذهب إليه في إصطبله الخاص ويفعل ما يشاء، فقال: غدًا سآتي به في ساحة المبارزة واللعب فاجمع من شئت من أهل المدينة لينظروا ما يكون من أمري معه. وبات الوزير بختك وهو موقن أن حمزة سيلقي حتفه غدًا في الساحة وعلى مشهد من الناس رجالهم ونسائهم صغيرهم وكبيرهم.

جاء الغد واجتمع الناس في الساحة والملك والوزراء على رأسهم وانتظروا قدوم حمزة والأصفران، ودخل حمزة الاصطبل فلما رآه الفرس رفع رأسه وصهل صهيل الفرح والحنان، وفهم حمزة منه ذلك فدنا منه وربت بيده على ظهره، ومسح معرفته ورأسه، فكان الفرس يرفع رأسه ويخفضه في هدوء ووداعة كأنه يرحب بفارسه ويقول: ها أنذا بين يديك وطوع إشارتك، ودعا حمزة بالسرج فوضعه على ظهره وأحكم وثاقه، ثم فكه من قيوده، وامتطى صهوته واندلق يجري به إلى الساحة، وهناك أبدى من ألوان الركض وضروب الكر والفر ما أعجب الناظرين وأدهشهم، ودار بخلدهم جميعًا أن هذا الفرس لم يخلق إلا للأمير حمزة. وكبت الوزير بختك بن قرقيش لأن حمزة لم يزد بمكيدته إلا محبة وإجلالا، وقد كان يبغي له الفناء العاجل، ومنحه الملك تقديرًا له وإعظامًا، ثم انصرف الناس وألسنتهم تلهج بالثناء على حمزة وشجاعته.

ما سكت الوزير بختك عن السعي في هلاك حمزة أو حط منزلته فأرسل إلى مقبل البهلوان وهو من أعظم فرسان العجم، وكان غائبًا عن شمس فارس ويقيم في بلد بعيد من المدائن، ووصاه أن يطلب من الملك مبارزة حمزة، وأن يقتله أو يغلبه لتنحط منزلته، وعرفه ما يقوله لكسرى ووعده المال الجزيل إن غلبه أو قتله.

وذات يوم دخل الحاجب وقال: مقبل البهلوان يستأذنك في المثول بين يديك. فأذن له الملك ودخل، وكان المجلس حافلا بالوزراء والكبراء وحمزة والنعمان وكبار رجالهما، وبدا مقبل البهلوان في المجلس طويل القامة عريض الصدر ضخم الجثة، فوقف بين يدي كسرى وسلم وحيا ثم قال: جئت الملك في أمر يسير راجيًا أن تأذن لي به، فقال: وما ذاك يا مقبل؟ قال: بلغني أن عندك فارسًا بدويًا من العرب اسمه حمزة، وقد نال عندك أعظم منزلة، فقدمت إليه لأنازله، فإن صرعني وغلبني استحق ما ناله، وإن صرعته وغلبته كنت في المنزلة الأولى من دونه، فإنه لا يصح أن يتقدم فرسانك بدوي من العرب الذين لا ننظر إليهم ولا نعاملهم إلا معاملة العبيد، وكان مقبل يتكلم وينظر إلى حمزة، فعرف أنه يتكلم في شأنه وسأل الوزير بزرجمهر وكان جالسًا بجواره عما يقوله، فقال: إن بختك بن قرقيش لما أخفق في مكيدته الأولى سعى إلى مكيدة أخرى ليقتلك بها أو يحط من قدرك عندنا، فبعث إلى مقبل البهلوان هذا لينازلك، وهو يطلب من الملك أن يأذن له بذلك، ولكن الملك أبى ولم يجبه إلى ما طلب لأنه يعرف وجه الحيلة ويعرف ما يبغيه الوزير بختك من ذلك.

فابتسم حمزة وقال: بلغ كسرى أني مصر على منازلته، وأنه لا مفر منها رضى أو كره. فتحدث إليه الوزير بزرجمهر في ذلك فقال كسرى: كلا الفارسين عزيز عندي، وأكثرهما عزة الأمير حمزة، ولا أستغنى عنهما، فقال بزرجمهر – وقد علم في نفسه أن حمزة غالب لا محالة: إنك تعلم يا سيدي أن الأمير حمزة لن يفوته شيء تعلق به عزمه وإرادته، فمن الحزم أن تأذن لهما بالمنازلة. ولعلها تنتهي بصداقتهما وأخوتهما، وقد رأينا كثيرًا من أمثال ذلك، فأذن كسرى بالمنازلة، واجتمع الناس في الساحة وهم بين مشفق بحمزة ومطمئن عليه.

نزل مقبل الساحة ونزع ما عليه من ثياب إلا من لباس يغطي جسمه من سرته إلى ركبته، ثم طلى جسمه بالدهن حتى لا يستطيع أحد أن يمسكه، وطلب من حمزة أن يفعل مثله فأبى وقال: نحن قوم لا نحمي أنفسنا بدهن

أو غيره، وما وقايتنا إلا إيماننا وثباتنا وسلاحنا. وبدأت المصارعة، فكان حمزة إذا أراد أن يمسكه من جسمه لا تمسكه يده لأن الدهن يمنعها، وأما مقبل فإنه كان يمسك حمزة ولكنه لا يستطيع أن ينقله من مكانه قيد شعرة، وصبر عليه حتى أرهقه وأتعبه، ثم أمسك رقبته بيده اليمنى، وفخذه بيده اليسرى ورفعه فوق رأسه ومضى به إلى الملك ليضعه بين يديه في هدوء ورفق، ولما قرب من كسرى كان مقبل قد اغتاظ فلطم حمزة بيده على وجهه، وغضب حمزة فضرب به الأرض ضربة صعدت بها روحه، وطوت آخر صفحة من حياته. فاغتاظ الوزير بختك وأراد أن يملأ صدر الملك غيظًا فقال: لقد اعتدى حمزة على كرامتك، وأهان حرمتك بقتله فارسك أمام عينك وعلى مرأى من الناس، وتلك إهانة للملك والدولة لا ينبغي السكوت عليها.

فقال بزرجمهر: ما كان من حمزة عدوان، وقد كان يريد أن يضعه أمام الملك في رفق، ولكنه لطمه وأغضبه، وقال كسرى: قضي الأمر وما اعتدى علينا وأهان كرامتنا إلا مقبل البهلوان، وقد لقى جزاءه، وخشى حمزة أن يغضبهم قتل فارسهم فأمر عمر أن يأتيه بجواده فأحضره إليه في لمح البصر، وامتطاه وجرد سيفه وانتظر ما يكون، وأدرك كسرى منه ذلك فقال لوزيره بزرجمهر: استعطف الأمير حمزة وبلغه أنه ما أخطأ، وأنه ما فعل بالفارس إلا ما يستحقه، وأنه لو لم يقتله لأمرت بقتله جزاء اعتدائه على حمزة، فأفهمه الوزير ما قاله كسرى وانتهى الأمر في سلام ووئام. ورجع الوزير بختك يتعثر في أذيال خيبته، وانصرف الناس وآب كل إلى مأواه.

أرسلت مهردكار إلى حمزة تقول له: أعتقد أن الأمر بيني وبينك شملته إرادة الله وقضاؤه، وما عليك إلا تدبير الوسيلة لتنفيذه، وأرى أنك إن خطبتني من أبي في مجلسه فرح بك وأجابك إلى ما طلبت لأنه يحبك ولا يريد فراقك ولن يرد لك رغبة، فقال حمزة: بلغ سيدتك أني لها وسأطلبها من أبيها ولا بد من نفاذ ما أراده الله وإن كان بحد السيف.

وجاء الغد وكمل مجلس كسرى وفيه حمزة والنعمان فقال كسرى: إن لحمزة علينا فضلا عظيمًا وأحب أن أكافئه اعترافًا بفضله وتقديرًا لمعروفه

فليطلب مني ما يشاء، ثم أمر وزيره بزرجمهر أن يبلغه ذلك بلسانه العربي، فلما بلغه قال حمزة: لا أبغي شيئًا غير زواجي من ابنته مهردكار، فوجم الوزير واضطرب لأنه خشى ألا يرضي الملك وقال: ذلك أمر عسير لم يسبق مثله في بيت الملك، فإذا طلبت شيئًا غيره كان أجمل. فقال حمزة: ليس لي عندكم أمنية غير ما سمعت وسأحصل عليها رغبا أو رهبًا، وقال كسرى: ما هذا اللجاج أيها الوزير؟ لقد أفهمتك أني لا أرد له رغبة ولو كان ملكي أو بنتي مهردكار، فأشرقت أسارير وجه الوزير وقال: إنه يخطب ابنتك مهردكار لنفسه، فقال: وقد رضيت، ولن تتزوج من أحد غيره فبلغه ذلك وأني فرح بما طلب، ولن أجد زوجًا كفئًا قديرًا كريمًا مثله لابنتي فهنيئًا لها به، فبلغه الوزير وشكره حمزة وأثنى عليه. واستمر المجلس حتى حان الموعد وانصرف كل إلى شأنه وكانت مهردكار قد أرسلت من ينقل إليها ما يجري من الحديث في شأنها فنقل إليها ما سرها وأن أباها رضي بحمزة لها زوجًا.

كان المجلس جميعه فرحًا بحمزة راغبًا فيه ما عدا الوزير بختك بن قرقيش فإنه انصرف وصدره ممتلئ قيحًا وغيظًا، وأخذ يفكر في نقض ما أبرم كسرى من زواج ابنته بحمزة، وكان أبوها قد ذهب إليها في قصرها وبلغها ما أبرمه في شأن زواجها من حمزة، فأخفت عنه حبها وقالت: إني لك مطيعة ولن أعصي لك أمرًا، وما قضيته في أمري فهو غاية ما أرجوه من حياتي، لأني أحب دائمًا أن أكون في قبضة يمينك وتحت أمرك ونهيك، وما دامت هذه إرادتك فهي أحب إلى من كل شيء.

واستأذن الوزير بختك ليدخل على كسرى في قصر ابنته فأذن له: فلما جلس بين يديه قال له: إنك قد أغضبت علينا النار، وطوحت بنا في أودية الذلة والبوار، ولا أدري كيف أقدمت على ذلك وأنت الملك اليقظ الخبير المجرب الحريص على إرضاء النار التي تعبدها ونلتمس منها كل خير. فقال: وماذا فعلته من أمري أو أمركم حتى أستوجب غضب النار؟

فقال: أن زوجت حمزة البدوي ابنتك مهردكار، وقد جئتك الآن لترجع عن قولك.

فقال: ذلك ما لا يكون، ولن أرجع في قولي، ولن أجد فارسًا كفئًا كريمًا لابنتي مثل حمزة.

فقال بختك: إن رؤياك قد تحققت وأصبحت لا ترجو من حمزة نفعًا، وبقاؤه فينا بعد ذلك خطر علينا، وإن كنت تخشى أن يقال: إنك نقضت عهدك ورجعت في قولك فإني أدبر لك وسيلة تخلص بها من حمزة، ولا ينسب إليك فيها نقض عهد ولا رجوع في قول، فقال: وكيف ذلك؟ فقال: إذا حدثك حمزة ثانية في أمر الزواج فقل له: إني على عهدي معك، وإن ابنتي زوجة لك، ولكني أحب أن تتحدث إلى وزيري في شأنها حسب دستورنا الذي نسير عليه، وسيرضى به بزرجمهر إذا حدثه في شأنها، فإن جاءني وحدثني أبديت له ما كنت قد دبرته ولا حرج عليك، فرضى الملك واتفقا على ذلك.

حزنت مهركدار حزنًا أليمًا، وودت لو نزلت من السماء صاعقة سحقت الوزير بختك وأراحتهم من شره ومكره، وأرسلت في الحال خادمها إلى حمزة وبلغه ما دار من الحديث بين الوزير بختك وأبيها، وما اتفقا عليه، فلما بلغه قال له: ارجع إلى سيدتك وقل لها: إن حمزة لا يعبأ بالوزير بختك وأمثاله، وأنتِ لحمزة على الرغم من كل عنيد ماكر، فاطمئني ولا تحفلي بشيء يجري بما تكرهين، ولما بلغها ذلك قالت: أعانه الله ورعاه..

وفي مجلس كسرى قال حمزة لبزرجمهر: سل الملك عن يوم الزفاف، فلما سأله قال: إني كنت قد أبرمت الأمر في الزواج دون أن أستشير الوزراء، وتلك مخالفة في تقاليدنا وعرفنا، ولا أدري كيف وقعت فيها، فقل له: استشر الوزراء في هذا الأمر حتى إذا حاز الرضا والقبول حددنا موعد الزفاف.

أدرك الوزير بزرجمهر أن بختك بن قرقيش بدل رأي الملك، وأنه يعمل على أن يبطله، ويعوق تنفيذه، ولا يهمه أن تقع البلاد في أتون من الحرب تأكل الرطب واليابس. فعرف حمزة ما قاله الملك وما فعله الوزير بختك ابن قرقيش، فقال حمزة: سل هذا الوزير عن رأيه، وسننظر فيما يبديه، فقال بزرجمهر للوزير بختك: إن الأمير حمزة يريدك أن تبدي رأيك في زواجه من

مهردكار بنت كسرى، فهل أنت راض به أو غير راض؟ فقال بختك: بلغ حمزة ما تسمعه مني على سرده، ولا تغير منه حرفًا: كنت أمس عند الملك في قصر ابنته، ووجدته قلقًا مبتئسًا، فقلت له: كيف يعتريك القلق والابتئاس وقد زوجت ابنتك من حمزة وهو فارس يحبه أهل مدينتك وبيت ملكك ويفرحون به، ولن تجد في الدنيا فارسًا لابنتك مثله؟ فقال: كنت أود أن أبعثه قبل الزواج إلى معقل البهلوان صاحب حصن تيزان الذي عصاني وقتل كثيرًا من فرساني وأعجزني عن إرجاعه إلى طاعتي، ولكني الآن لا أستطيع أن أكلفه الذهاب إليه لإخضاعه خشية أن يقال: إني غدرت بحمزة وألقيت به في مواطن الخطورة، وذلك ما أقلقني، فقلت له: فرج عن نفسك فإن أمرك يسير، وإن العرب لا يتزوجون إلا إذا دفعوا للزوجة مهرها، فاجعل مهر ابنتك إخضاع معقل البهلوان لطاعتك وإذعانه لأمرك، وأعتقد أن حمزة لن يرضى أن يتزوج وأنت تحمل عبء هذا الهم الثقيل، فقال: ذلك ما لا ينطق لساني به، فقلت: سأقوم أنا بتبليغه وإن أبى حمزة أن يذهب إلى معقل البهلوان زوجناه وزففنا إليه ابنتك لأن حمزة أصبح منا وله من نفوسنا كل إجلال ومحبة.

اغتاظ بزرجمهر من بختك لأنه يعلم أن معقل البهلوان دوخ جيوش كسرى وعجز عن إخضاعه، ويخشى على حمزة منه، ولكنه اضطر إلى أن يبلغه ما قاله بختك بقضه وقضيضه، فلما سمع حمزة ما قاله نهض واقفًا في المجلس وقال: أقسم بالله العظيم: رب موسى وإبراهيم، ورب البيت المحرم الكريم إني لا أتزوج من مهردكار حتى آتيكم بمعقل البهلوان، ولن أذهب إليه إلا وحدي ومعي أخي عمر، لكيلا يكون لبختك وغيره حجة بعد ذلك. ثم سلم وغادر المجلس راجعًا إلى صوانه.

رأت مهردكار من نافذة قصرها أن حمزة رجع إلى خيمته بين رجاله قبل أن ينفض مجلس أبيها في موعده، فساورها القلق وأرسلت خادمها إلى حمزة يستنبئه عما جرى فقال له: إن الوزير بختك أشار على أبيها ألا يبرم الزواج حتى أخضع له معقل البهلوان صاحب حصن تيزان ظنًّا من الوزير أن هذه

تهلكة ألقاني فيها، وسأذهب إليه وحدي ومعي عمر أخي، وأعود به طائعًا مذعنًا لأرد كيد الوزير في نحره، وأجرعه كأسًا من مكره، ولن يكون بيني وبين أبيها عداوة من أجلها لأني سأستجيب لكل ما يطلبه مني عن اختيار وطواعية، فلما بلغها ذلك غضبت من أبيها، ولكن أدبها أبي عليها إلا أن تطيع وتصبر، أما الوزير بختك فإنه كتب إلى معقل البهلوان يقول:

– جاءنا فارس عربي اسمه حمزة، ويزعم أنه وحيد عصره في البطولة والشجاعة، وقد صدقه الناس والتفوا حوله. لأنه قتل خارتين الخيبري، وأرجع كسرى إلى ملكه، وقتل مقبلا البهلوان، وأوقعته في مهالك ولكنه نجا منها، وكان لذلك أثره في أن قربه منه كسرى، ورضي أن يزوجه ابنته مهركدار، وقد حدثته عنك وعن شجاعتك وقوتك فاستهزأ وسخر منك وقال: ومن هذا الذي تتحدثون عنه؟!! إني لذاهب إليه وحدي لأقاتله وجنوده، فإما أتيتكم برأسه، وإما رجعت إليكم به صاغرًا ذليلا وقد بعثت إليك بكتابي هذا لتحذره وتقتله ولك عندي من الأموال غير ما أرسلته إليك مع رسولي وكتابي.

ركب حمزة «الأصفران» وسار عمر أخوه يركض أمامه حتى قربا من القلعة، وكان معقل البهلوان قد كلف أحد أتباعه أن يقف على مقربة من القلعة ليخبره بقدوم حمزة، فلما رآه مقبلا مضى إليه وسأله: أأنت حمزة يا سيدي؟ فقال: نعم، ومن أنت؟ قال: أنا خادم معقل البهلوان، وقد كلفني أن أرتقب حضورك لأخبره، فانتظر حتى آتيك به. فقال: اذهب وهاته على عجل، وعجب حمزة إذ سبقه نبأ قدومه، ولم يغب عن عمر أخيه أن ذلك من تدبير الوزير بختك بن قرقيش فقال: لعل بختك الخائن الخبيث أرسل إليه ليأخذ حذره ويستعد للقائك.

وبعد برهة جاءه معقل على جواده فسلم عليه وحياه وقال: لم جئت يا حمزة؟! فقال: جئت لأردك إلى طاعة كسرى، وقد عاهدته على ذلك إذ جعله مهرًا لزواجي من ابنته. فقال: إني ألمح فيك الخير وعبادة الله الذي أعبده، وأعلم أن ذلك من كيد وزيره بختك الخبيث للمؤمنين وللعرب،

لأنه يحب أن يكونوا على الدوام أذلة للفرس صاغرين. فاصرف عنك كيده وتعال معي إلى القلعة ليجمعنا بساط الأخوة والصداقة وأريك الكتاب والأموال التي أرسلها إليّ هذا الوزير الماكر، ونبرم الأمر بيننا على خير ما تحب، فقال: إني أبغض الخديعة ولا أحب أن أقع في شركها فقال: أقسم برب البيت الحرام إني لصادق ولا أضمر لك في نفسي إلا كل محبة وصدق ووفاء، فالتفت حمزة إلى عمر أخيه كأنه يستوحيه رأيه، فقال عمر: ما أظنه إلا صادقًا فهيا بنا معه. ثم دخلوا القلعة وأكلوا وشربوا وتطارحوا أحاديث الأخوة والصداقة، ثم قال معقل البهلوان: وإني لذاهب معك حيث أكون تحت أمرك، لأغيظ الوزير الخائن وأمكنك من نيل بغيتك فما أنت إلا أخ وما عليَّ إلا أن أفي لك بواجب الأخوة.

وبعد أيام من مقامهم ركب الفارسان ومعهما جماعة من فرسان معقل البهلوان وساروا حتى وصلوا إلى الخيام فاستقبلوا بصيحات الفرح التي دوت في أجواء المدائن فأرسل كسرى أحد عياريه ليعرف ما حصل في رجال حمزة، فمضى ورجع يحمل نبأ قدوم حمزة ومعه معقل البهلوان، وكان بختك جالسًا ويؤكد للملك أن حمزة لن يعود وأن أيامه قد انتهت، فلما أخبر العيار الملك بقدومه انزوى في نفسه خزيًا واغبر وجهه غيظًا وكمدًا ثم قال: كيف رأيت معقلا؟ فقال: رأيته راكبًا جواده وهو يركض به بجوار الأصفران فقال: لو جاء حمزة به أسيرًا لكان مكتفًا، وأغلب الظن أن معقلا هو الذي غلب حمزة وجاء معه ليشفع فيه عندك، وما أتم قوله هذا حتى دخل عمر عيار حمزة، وناول كسرى كتاب حمزة فدفعه الملك إلى بزرجمهر وأمره أن يقرأه جهرة، ويترجمه إلى الفارسية وقال فيه:

جئتك بمعقل البهلوان، وهو فارس معدوم النظير، فأرسل لي قفصًا من الحديد مع أخي عمر لأحبسه فيه، وأقدم به إليك غدًا.

لم يطق بختك الوزير البقاء في المجلس فانسل منه كئيبًا كاسف البال يكاد لا يرى من الغم ما تحت قدمه.

فأخذ عمر القفص ورجع إلى أخيه حمزة، وعرفهم أن الوزير بختك قد

أصابه من الغم ما أفقده وعيه فخرج من المجلس يجرجر أذيال خزيه.

وفي الصباح دخل معقل القفص مختارًا وكان آمنًا على نفسه من غدر كسرى لأنه في رعاية أخيه حمزة، وحمل رجال حمزة القفص ومضوا به إلى إيوان كسرى ووضعوه أمامه فقال كسرى: ظننت أني لن أقدر عليك، فكيف أنت الآن؟ فقال معقل: لو أرسلت لي رعيتك ما حفلت بها، وما استطاعت أن تنالني بسوء، ولكن حمزة خدعه غشكم وغرَّه كذبكم فسعى لتنفيذ مأربك، فقال بختك: اقتله أيها الملك حتى نستريح منه ومن لسانه، فقال معقل: ليس في وسعك. ولا وسع ملكك ولا جندك أن تمدوا أيديكم إليّ بأذى، أما حمزة الذي أسرني فله أن يحكم عليّ بما يشاء، فاغتاظ كسرى وقال: لقد أوجبت علينا قتلك بحدة لسانك وسوء قولك، وكان حمزة قد وصل حينئذ فوجد الحجاب قد أحاطوا بالقفص ولمح الشر في وجوههم، فجرد سيفه وصاح فيهم فانفرط عقدهم وهربوا من وجهه، وخاف كسرى أن يهيج حمزة غيرة على أسيره وأن يقتل بسيفه من وجده من العجم أمامه، فأمر بزرجمهر أن يسترضيه ويعرفه أنه الحاكم بأمره في أسيره.

فلقيه بزرجمهر مبتسمًا وعرفه ما قال كسرى، فأمر حمزة بإطلاقه من قفصه وجلوسه بينهم كأنه واحد منهم، ووافق كسرى على ما أمر، واطمأن بختك الوزير لهدوء حمزة لأنه اعتقد أنه، أول من يقتل إذا أعمل فيهم حمزة سيفه. ثم قال حمزة: اعلم أيها الملك أن معقلا البهلوان أصبح أخي ومن أتباعي وقد عاهدته على الإخاء والوفاء، فمن تعرض له بسوء قصمته، فقال كسرى: إنه منا في سويداء القلب وله علينا كل إجلال ومحبة، ثم جلسوا يتبادلون الحديث حتى انفرط عقد المجلس ورجع كل إلى مقره.

وذهب كسرى إلى ابنته وأخبرها بما فعل حمزة، وأنه مصر على إتمام الزواج فقالت: افعل ما شئت فإني ابنتك ويسرني أن أكون طوع أمرك. ثم ودعها ورجع إلى قصره فوجد بختك وزيره في انتظاره، فقال له: ما وراءك أيها الوزير؟ فقال: رأيت أن حمزة سيطلب إليك غدًا أن نزف إليه ابنتك فجئتك لتدبير خطة تباعد بينه وبينها. فقال كسرى: وأي مانع بعد ذلك يحول

دون زفافها إلى حمزة؟ فقال: إني حريص على شرف العجم، ومسئول عنه إن مسه أحد بأذى، وأرى في زفاف ابنتك إلى رجل بدوي يفترش الأرض ويلتحف بالسماء نكبة كبرى وعارًا لا يمحى، ولأن يضيع ملكك مكرهًا خير من أن تضيع شرفك مختارًا، وإن زواج حمزة من ابنتك سيعقبه ضياع الملك وذل العجم للعرب إلى الأبد، فكيف تقبر بيديك أمة مجدها مضيء كالشمس، فقال كسرى: وماذا ترى؟ فقال: أرسله إلى سرنديب ليحارب صاحبها أندهوق، وعرفه أنه لم يبق من أعدائك إلا أندهوق هذا، وأود أن أزف إليك ابنتي وأنا مطمئن البال، لا أخشى سطوة عدو ولا إغارة مغير. فقال كسرى: غدًا أقول ذلك.

وفد حمزة وجماعته إلى مجلس كسرى حسب العادة، ومعه معقل البهلوان. ولما كمل المجلس قال كسرى: شكرًا للظروف التي تفضلت علينا بحمزة الذي حمى البلاد وجعل الأعداء أصدقاء، وما بقي من خصومنا وأعدائنا إلا أندهوق صاحب سرنديب، وسيذهب إليه حمزة ويخضعه إلينا. وفهم بزرجمهر أن هذه مكيدة جديدة وأنها من صنع الوزير بختك، فعرَّف حمزة بها وبيَّن له سرها، ومن حاكها، والغرض الذي يرمي إليه منها. فقال حمزة: فليدبر ما يشاء فليس بضائري أن أذهب إلى ملوك الأرض، فإني قادر على أن آتي بهم إلى هذا الإيوان طائعين. وسآتيكم بأندهوق الذي أقض مضجعكم وجعلكم لا تنامون. ثم نهض هو وجماعته وودعوا الملك وانصرفوا.

وقال معقل لحمزة: إن هؤلاء العجم خونة، ولا يريدون بك إلا شرًا، فلو أردت أن نقضي عليهم بسيوفنا وتكون ملكًا عليهم لكان خيرًا لنا من أن نحتمل أثقال خيانتهم وغدرهم، فقال حمزة: ما دام المصير لنا فلا علينا أن نحتمل شيئًا من أثقال الحياة وأعباء المجتمع، وما دام الله يكفلنا برعايته وحفظه فإن المغنم لنا على الدوام.

فقال عمر: سر يا أخي على بركة الله فإني أشعر أن سفرنا هذا سيعود علينا بالخير العظيم.

جمع حمزة رجاله ورحل بهم جميعًا إلى سرنديب، وخرج معه النعمان

ورجاله، وما زالوا سائرين حتى نزلوا للراحة في واد كثير المياه والأشجار وبينه وبين مدينة أندهوق مسيرة عشرة أيام.

وذات يوم ركب حمزة جواده وانطلق به في الوادي وحده لعله يصيد شيئًا من حيوانه، فأمعن في المسير وأبعد حتى اشتد به العطش وجعل يبحث عن ماء فلا يجد، وحانت منه التفاتة إلى رأس الجبل فلمح فيه صومعة أحيت في نفسه الأمل في العثور على الماء فذهب من فوره إليها، وطرق بابها فانفتح عن أربعين شيخًا يبدو عليهم الصلاح والتبتل والانقطاع لعبادة الله، فحياهم وقال: إني في حاجة إلى ماء أطفئ به لهيب العطش فقال أحدهم: على الرحب والسعة يا حمزة، اجلس واشرب حتى تروى، فلما شرب قال: وكيف عرفتموني وما رأيتكم قبل ذلك؟ فقال أحدهم زارنا الخضر عليه السلام وأخبرنا أنك ستأتينا وتطلب منا ماء لتشرب وترك عندنا وديعة أمرنا أن نعطيكها. ثم أعطوه رمحًا طويلا ذا سنان حاد سقى سمًا، إذا مر بجسم قتله، وثوبًا محلى بأنواع الجواهر، فشكرهم وودعهم ورجع من حيث أتى، وكان عمر قد طالت عليه مدة غيبته فخرج يجري في الوادي مقتفيًا أثره، ولما وجده في ثوبه الجديد وفي يده رمح جديد عجب وقال: من أين لك هذا؟ فحكى له ما جرى من شيوخ الصومعة، فقال: لو كنت معك لنالني ما نلت من هذه الهدايا، وإني لذاهب إلى الصومعة لآخذ نصيبى منها.

ثم انطلق مسرعًا حتى كان أمامها فطرق الباب وفتح له، وقال أحدهم: مرحبًا بك يا عمر فادخل واجلس وأفض إلينا بما في نفسك فلما جلس قال: أين نصيبي من الهدايا؟ فقال أحدهم: إن لك عندنا أكثر مما كان للأمير حمزة. ثم جاءه أحدهم بسيف لا نظير له، وقال: هذا لك يا عمر، واسمه ذو الشطين؛ ثم نهض أحدهم وغاب قليلا ورجع ومعه خنجر جميل وقال: خذ هذا فإنه ينفعك واسمه خنجر إسماعيل، والتفت إلى شيخ ثالث وقال: وما عندك لي؟ فأحضر له جرابًا من جلد طوله ذراع وعرضه ذراع وقال: هذا جراب اسمه جراب إسماعيل، مهما تضع فيه من شيء فإنه لا يظهر، ولو وضعت فيه هذه الصومعة ونحن فيها فلن يكون لنا أثر فيه، ثم سأل

شيخًا رابعًا عما عنده له فأحضر له شيئًا من جلد إذا لبسه في رجله وساح في الأرض أيامًا متتابعة فإنه لن يحس تعبًا ولا نصبًا، ثم سأل خامسًا فأحضر له مرآة ومكحلة وقال له: إذا تكحلت منها وضربت على هذه المرآة بقضيب وقلت: بحق ما كتب عليك من الأسماء أود أن أصير مثل فلان – فإنك تصير مثله ولا يمكن لأحد أن يقول عنك إنك شخص غيره، وإذا أردت أن ترى أي مكان فضع المرآة في جهة القبلة ثم اذكر المكان الذي تريده فإنه يبدو لك في المرآة كأنك فيه، ثم سأل عن شيء له بعد ذلك فقالوا: ليس لك عندنا إلا الدعاء، فودعهم ورجع بما أخذه فرحًا به.

ولما قرب من المعسكر أحب أن يجرب المكحلة، وكان قدومه بعد منتصف الليل، فذهب إلى صوان النعمان، ودخل عليه وحمله وهو نائم إلى صوان آخر، وجلس هو في صوانه وقبل أن يشرق الصبح تكحل وضرب المرآة وقال: بحق ما كتب عليك من الأسماء أصير كالنعمان، فصار كالنعمان لا يفترق عنه في شيء، ثم لبس ثيابه وجلس على كرسيه ينتظر حاشيته، وكان كلما دخل عليه أمير سلم عليه وهو يعتقد أنه النعمان، ولما استيقظ النعمان لم يجد نفسه في صوانه فجعل يفكر في أمره، وكيف انتقل من مكانه؟ ومن نقله؟ ومر عليه ساعة وهو في حيرة مما جرى له؛ ثم مضى إلى كرسيه كعادته فدخل على الأمراء وإذا به النعمان، فحار النعمان، وحار الأمراء ووقعوا في ضجيج ولغط وجعلوا يتساءلون: من النعمان من هذين الرجلين؟ وأذهب هذه الحيرة وذلك الضجيج عمر العيار فإنه قال: أنا عمر أخو حمزة، وهذا النعمان ملككم! ثم حكى له ما كان بينه وبين شيوخ الصومعة وبين لهم ما أخذه منهم وقال: إني أردت أن أجرب المكحلة، والحمد لله وجدتها نافعة، فضحكوا وفرحوا، وقالوا: ذلك تأييد الله ونصره للمؤمنين من عباده.

واصل حمزة ورجاله، والنعمان وحاشيته، السير إلى سرنديب، ولما اعترضهم البحر ركبوا السفن ونزلوا على شاطئ جزيرة سرنديب ثم دخل حمزة ورجاله بعد ثلاثة أيام من نزولهم مدينة أندهوق وهو عازم على أن

من النعمان من هذين الرجلين؟

يعود به إلى المدائن ذليلا، وكان بختك الوزير قد أرسل إلى أندهوق كتابًا يحضه فيه على قتل حمزة كما فعل مع معقل البهلوان، وفطن أندهوق إلى أن الكتاب إثم وبهتان، فلما وصل حمزة إلى مدينة أندهوق كان هو قد استعد ليلقاه لقاء مسالمة وصداقة.

ولما اجتمعا عرف أندهوق حمزة أن العجم قوم غير صادقين، وأنهم أرادوا قتلك فأوقعوا بيني وبينك، وهذا كتاب ملكهم ووزيرهم بختك وأراه الكتاب الذي أرسله بختك وكان مختومًا بخاتم كسرى، ثم قال: وإنهم يبغضون من يعبدون الله ويخلقون بينهم الخلاف والفتنة ليقتتلوا. ويضعف بعضهم بعضًا، أما أنا ففي طاعتك وتحت أمرك ونهيك وإني على استعداد للسير معك إلى المدائن على الحال التي تراها وتختارها. فقال: شكرًا لك، وأرجو من الله أن ييسر لي سبل الانتقام من هؤلاء الكذابين الخائنين. ثم رجع إلى المدائن ومعه جماعة من قومه.

وكان بختك الوزير يقول لكسرى كل يوم في مجلسه: لا عودة لحمزة ورجاله فإن أندهوق لن يبقى منهم أحدًا، كما أن كسرى عرف ميل ابنته إلى حمزة ولكنه أضمره في نفسه رفقًا بها وحرصًا على أن يظل أمرها سرًا، وبغتهم عمر أخو حمزة ذات يوم فقال: أبشر أيها الملك فإن أخي حمزة رجع من سرنديب فائزًا وجاءك بأندهوق أسيرًا، فامتقع لون بختك، واعتراه وجوم وذهول، وبدا ذلك للمجلس واضحا، ومضت مدة وهو على هذه الحال ثم تجلد وقال: عرفت الآن أن حمزة جدير أن يكون زوجًا لابنتك، وحامية البلاد وفارسها، وسوف يكون له شأن عظيم، وانتشر هذا الخبر في المدينة، وفرحت به مهردكار فرحا عظيما. وما لبثوا أن رأوا «حمزة» ورجاله قادمين، فنزلوا في مكانهم وضربوا خيامهم وسرحوا خيلهم، وانتظر حمزة في صوانه إلى العد.

وفي الصباح قاد حمزة أندهوق إلى إيوان كسرى مكتفًا ماشيًا، وأهل المدينة ينظرون ويعجبون من شجاعة حمزة وقدرته، ودخل به على كسرى في مجلسه وقال: هأنذا قد وفيت بوعدي وجئتك بأندهوق عدوك. فقال كسرى: ما

كان أندهوق عدوًا لنا، وما قال عنه ذلك إلا كل كذاب مضل، جبل على الإفساد والفتنة وظلم البريء، فأمر أندهوق يا حمزة بيدك فماذا ترى؟ فقال حمزة: أرى أن تسبغ عليه منحك، وأن تعرف أنه سيد مطاع له من القوة والرجال ما يذل به رقاب الجبابرة، وأن ينزل من نفسك وتقديرك المنزلة اللائقة بمثله، فقد أصبح أخي ومن رجالي، ثم نهض حمزة وفكه من وثاقه، وأجلسه بجانبه، ومنحه الملك حلة كسروية من الحرير المرصع باللؤلؤ.

ثم رجعوا إلى خيامهم بعد أن انتهى مجلس الملك.

وفي الليل أحضر كسرى وزيره بختك وقال له: ماذا رأيت في أمر حمزة بعد هذا، وقد زدته بتدبيرك قوة فوق قوة، فقال بختك: وكلما زادت قوته زدته قسوة في التدبير والكيد حتى أقتله وأشتت رجاله، فقال: وماذا علينا لو زوجناه وكان لنا عصمة وملاذًا، وقد بان لنا أنك تضطهده ولكنه لا يستكين ولا يذل؟! فقال بختك: لقد دبرت له مكيدة تلتهمه وتلتهم عصبته وأتباعه، فقال: وكيف ذلك؟ فقال: إذا جاءك فأفهمه أنك تود التعجيل بزفاف ابنتك إليه، ولكنك في حاجة إلى المال، والخزينة خاوية، لأن عمالك لم يؤدوا ما عليهم من الجزية سبع سنوات من يوم أن استولى خارتين الخيبري على عرش الملك، فإذا طاف حمزة ورجاله على عمالك وأتباعك من الحكام، وجاء بالجزية المتأخرة استطعت أن تزفها إليه في احتفال يليق بأعظم ملك وأكرم بنت، فقال: ولكن الجزية أداها عمالنا في أوقاتها وليس لنا درهم واحد منها لم يحمل إلينا، فقال بختك: سأبعث إلى عمالك كتبًا أبين لهم الغرض من إرسال حمزة إليهم وهو أن يقتلوه ويشردوا رجاله، وبذلك نكون قد استرحنا منه وطهرنا البلاد من العرب، وأنت في كل ذلك الملك الوفي الذي لم ينقض عهدًا، ولم يغدر بأحد. فاقتنع كسرى، وبات على أن يتبع مشورة وزيره.

وفي اليوم التالي غص الإيوان بالرجال كعادته، وطلب حمزة تحديد يوم الزفاف، فذكر كسرى ما بيت العزم عليه. وشرحه بزرجمهر لحمزة ورجاله، وأفهمه أن هذا كيد جديد من صنع الوزير بختك، فأطرق حمزة قليلا ثم رفع رأسه وقال: لن أترك لكم درهمًا واحدًا عند عامل من عمالكم، ولكني

أريد تفويضًا كتابيا من الملك مختومًا بخاتمه الخاص يخول لي أن أطلب الجزية والمال من عماله، حتى يكون موقفي منهم سليما لا غبار عليه.

فقال بختك: سنعطيك ما أردت، وكتب التفويض وختمه بخاتم الملك وناوله إياه. ثم قام حمزة ورجاله وخرجوا إلى خيامهم، وهناك جلس حمزة في جمع من كبراء رجاله وأتباعه، فقال أندهوق: لم هذا اللين الذي تقابل به عبث الوزير بختك ومكره؟ دعنا نقتله ونجرد السيوف في وجوه الفرس حتى نزيل ملكهم، ونملك بلادهم، ونزف إليك مهردكار في عز أوسع وسطوة القوة الرهيبة، ونحن قادرون على أن نمحو آثارهم في يوم وليلة.

فقال حمزة: كل ذلك أعرفه ولكني عاهدته على أن أجيبه إلى ما يطلب، والعربي لا يرجع في قوله وإن ضاعت حياته. ونحن سنستفيد من مكيدتهم هذه، لأننا سنظهر للملك ووزيره بختك بمظهر المتعنت الخادع الجائر، وسنجمع هذه الأموال بأمر منه وتكون لنا مددًا وذخرًا، وكأنه أباح لنا أن نجمع الأموال من بلاده لنستمد منها مئونة الجيش إذا جاء يوم القتال بيننا وبينه، وما ذلك اليوم ببعيد، فهيا استعدوا للرحيل، ولن يكون إلا ما أراده الله.

وكان الوزير بختك قد طير إلى عمال الملك كتبًا شرح لهم فيها خديعته والغرض منها، واطمأن إلى أنه سيجني من ورائها خيرًا. وأن حمزة راحل من غير رجعة.

رحل حمزة وأخذ يدوس البيداء والقفار هو ورفاقه، وعمر أخوه يسعى بين أيديهم حتى نزلوا في ضواحي حلب وحاكمها نصير وهو يعبد الله ويجري في أموره على سنن واضح من الحزم والحكمة والبصر، بالأمور وعواقبها، ولما جاءه كتاب كسرى نظر فيه بعين البصيرة وقال: لو لم يكن الأمير حمزة مهيب الجانب رهيب السلطان ما خافه كسرى واحتال في إبعاده وقتله بيد غير يده، ولو لم يكن ذا قدرة على أن يزلزل عرش كسرى ما خطب منه ابنته لنفسه، ولو لم يعلم كسرى أنه شجاع لا يغلب ما وعده أن يزوجه ثم أخذ يغشه ويخدعه ليقتله، فمن الحزم أن أرتبط بالأمير حمزة برباط متين من الصداقة والمودة، وأن أكون طوع أمره، ومن رجاله الذين يعتز بهم.

ونهض نصير فجمع رجال الرأي عنده وأطلعهم على كتاب كسرى، وما دار بخلده في شأنه، فقالوا: أحسنت وما لنا إلا اتباعك وتأييدك، فقال لهم: هيا بنا إلى لقاء حمزة فإنه نزل بجيشه ورجاله في ضواحي المدينة.

استقبلهم حمزة في خيمته استقبالا جميلا، ثم نفض له نصير ما في نفسه وقال: إنا لكم تبع طائعون، وما لكسرى من الجزية في ذمتنا قليل ولا كثير، وإن أخذت منا شيئًا فقد ظلمتنا، وما سمعت عنك ظلمًا لأحد. فقال حمزة: ولن أظلمكم لكسرى أبدًا، وسآخذ منكم جزية سبع سنوات مقبلة وأعطيك إقرارًا مني بذلك بأنك أبرأت ذمتك منها مدة هذه السنوات السبع بمقتضى ذلك التفويض الذي أعطانيه كسرى، وبذلك لا تكون قد أعطيت الجزية مرتين، وسوف ترى ما يسرك، وسأخلصكم من دفع شيء إلى هؤلاء الظالمين، فأعجب نصير ورجاله بما قال حمزة، واستمهلوه أيامًا إلى أن يجمعوا له الجزية، ولما تم جمعها أخذها حمزة ورحل بجيشه ورجاله، وكان شأنه في كل بلد ينزل فيه شأنه في حلب.

وأغدق عليهم إسطفانوس ملك مدينة القسطنطينية أموالا كثيرة فوق أموال الجزية ورحل معهم معهم في طائفة من رجاله ليكون من أتباع حمزة وأنصاره.

وحطوا رحالهم قرب مدينة الملك أسطون، وكان قد عرف الخديعة ونكران الجميل في كتاب كسرى إليه فصحب وزراءه وأعيانه وذهب إلى حمزة في صوانه وألقى إليه مقاليد طاعته، ودعاه إلى أن يقيم في قصره الذي أعده له بالمدينة مدة مقامه إلى أن يجمع له الجزية.

ثم أخذ الجزية ورحل هو ورجاله إلى مدينة قيصر، وكان قيصر هذا قد عزم أن يطيع كسرى ويقتل حمزة كما أمره في كتابه، وكان معروفًا بالغدر والخيانة عند قومه، وأدرك أنه مغلوب إن حارب حمزة وقاتله، فأسر في نفسه أن يحتال لهلاكه.

وكان في ضاحية مدينته نهر جار، فحول مجراه إلى ناحية أخرى.. وبنى فوق المجرى الأصلي للنهر حمامًا قائمًا على قواعد من الملح وأبدع تكوينه،

لأنه نوى أن يدخل حمزة وكبار رجاله الحمام ثم يطلق مياه النهر تجري في مجراها الأصلي فتذوب قواعد الحمام الملحية وينهار الحمام في النهر بمن فيه. ثم انتظر قدوم حمزة ورجاله. نزل حمزة ورجاله في ظاهر المدينة، وصحب قيصر أمراءه وخرج إليه يستقبله، فلما التقوا وتبادلوا التحية جلسوا يتحدثون، وقال قيصر: ظلمك كسرى وغشك وأرادنا على أن نظلم أنفسنا بظلمك، وهذا كتابه إلينا، يأمرنا فيه بقتلك وتلك منه جريمة كبرى لا يجترحها إلا قليل المروءة فاقد الكرامة معتد أثيم. ولهذا فقد كرهته وعصيته وجئتكم لأكون معكم عليه وأعطيكم ما تطلبون؛ فقال حمزة: شكرًا لك، وسنأخذ جزية سبع سنوات مقبلة وأعطيك إقرارًا مني بذلك حتى لا تعطوه جزية مدتها، فقال: قيصر.. لك ما طلبت فأمهلني بضعة أيام أجمع فيها الجزية التي جئت من أجلها وأنتم في ضيافتي حتى أنتهي من جمعها، وقد بنيت حمامًا جديدًا إذا رأيتم أن تستحموا فيه وتغسلوا عن أبدانكم غبار السفر، ووجدوا في قوله نغمة الصدق والبراءة فرضوا أن يذهبوا معه إلى الحمام.

وكان لقيصر ابنة اسمها مريم وهي كاملة في خلقها وخلقها، تبغض الشر وفاعله، وتحب الخير وأهله، أما أبوها فقد ألف الأذى والغش والخيانة، وقد عرفت ما دبره من المكيدة، للغدر بحمزة ورجاله، كما عرفت قصة حمزة وكسرى، فجاءت إلى أبيها وقالت: إن العرب قوم جبلوا على الصدق والوفاء والكرم والشجاعة وإباء الضيم وحماية الصديق الوفي ونصر الضعيف واللائذ، ولا تحسبنهم ضعافًا أمام كسرى، وستريك الأيام أنهم سيقوضون عرشه، ويملكون بلاده فاتخذهم نصراء لك ولا تطع فيهم أمر كسرى، لتنال الخير على أيديهم وأراد أن يغش ابنته ويخدعها فقال: الحق معك يا بنيتي وسأستمع لنصحك، وأسير على هدى من مشورتك ورأيك، فسكتت وهي موقنة أنه كاذب خادع، وأسرت في نفسها أن تسعى لإنقاذ حمزة ورجاله من كيد أبيها.

أخذ قيصر حمزة وأمراءه وأدخلهم الحمام، وأمر رجاله أن يطلقوا مياه النهر تجري من تحت الحمام، فعمدت ابنته إلى سلم وأسندته إلى جدار الحمام،

وصعدت فيه وأطلت على حمزة من نافذة صغيرة وعرفته شأن الحمام، وأمرته أن يخرج منه هو ورجاله من فورهم قبل أن ينهار بهم في النهر، فأسرع حمزة وجمع رجاله وخرجوا من الحمام في لمح البصر، وقالت له: احفظ يا سيدي هذا المعروف ومن قدمته إليكم، ثم انسلت مسرعة إلى قصرها، وما كادوا يخرجون منه حتى انهار وغرق في النهر، فغاظهم خيانة قيصر وشكروا للفتاة صنيعها، وجردوا سيوفهم للانتقام لأنفسهم، وكان قيصر قد أقبل في جماعة من رجاله فرحًا، لأنه ظن أن الحمام انهار في النهر بمن فيه، فلقيه حمزة وضربه بسيفه فشقه نصفين، ورأى من معه ما نزل بقيصر ففروا هاربين.

وذهب حمزة إلى رجاله فأمرهم أن يهبوا للقتال ويسحقوا أهل تلك المدينة، فانطلقوا إليها انطلاق الأسود وأعملوا في رجال قيصر سيوفهم حتى صاحوا: الأمان... الأمان... ودخل حمزة المدينة وجلس على عرشها. وأصلح من شأن المدينة، ونشر العدل بين ربوعها، ثم جمع كبارها وأعيانها وقال لهم: ما كنت أريد بكم شرًا، وما جئت إلا لأخذ الجزية، وقد علمتم خيانة ملككم وعاقبتها، فولوا عليكم من تختارونه من رجالكم، وأعطوني الجزية التي جئتكم من أجلها. فقالوا: أنت ولينا، ولك أنفسنا وأموالنا فاحكم فينا بما تشاء وتختار. عرف حمزة أن الفتاة التي أنقذتهم من الحمام هي مريم بنت قيصر فأرسل إليها، وشكرها وولاها الحكم.

رحلوا إلى الدعاس صاحب صيدا وكان في جيشه المعتدي وأخته سلوي وهما فارسان يبلغان مدى حمزة في الشجاعة أو يزيدان، وكان من رأى الدعاس أن يسالم حمزة ويكون من أتباعه، ويعطيه الجزية التي يطلبها ولكنهما أبيا إلا أن يقاتلاه وجرى بينهما وبين حمزة نزال كانت نتيجته أن صادقاه، وكانا من أتباعه، وتبعهما الدعاس وقومه.

ثم انتقل إلى صور وعكا وغيرهما من البلاد، ودانت له عنوة وقهرًا وفرغ من رحلته وقد أحضر الجزية وخضعت له البلاد.

ثم دخل بهم عمر العيار أرض مصر وضربوا خيامهم تجاه القاهرة وكان فيها ملكان أخوان، سكاما وورقا، وكان قد جاءهما كتاب كسرى وعرفوا أن حمزة ورجاله لا يطيقونهم في القتال، فاتفق الملكان على أخذهم بالغش

والخيانة حتى يهلكوهم وينالوا مرضاة كسرى.

أرسل حمزة عمر أخاه إلى الملكين في طلب الجزية أو القتال فقالا له: جاءنا كتاب كسرى، ووقفنا على مكره بحمزة وكراهيته للعرب وإنكاره للجميل، وما ينبغي لنا أن نسيء إلى العرب المعروفين بالكرم والشجاعة وألقوا والوفاء والأمانة والترفع عن الدسائس والدنايا، فبلغ سيدك أننا معه، وسنأتي في إثرك إلى استقباله في جماعة من أعيان المدينة، لنعاهده على الإخاء والطاعة، وأداء ما يطلبه منا، سواء أكان جزية أم غيرها، ورجع عمر وبسط لحمزة وجماعته ما قاله الملكان ثم عقب قائلا: يبدو لي أن ظاهر الملكين غير باطنهما، وأنهما ينصبان شركًا لاغتيالنا، فقال حمزه: توكلنا على الله، ولا يقع في الشر إلا فاعله، وستبدي لك الأيام ما أنت جاهله.

قدم الملكان وأعيان المدينة، وجلس جميعهم في خيمة النعمان. وألقوا بين أيدي حمزة وأمرائه أزِمَّة طاعتهم، وقالوا: إن المدينة مفتحة أبوابها لكم وللعرب، ونرجو أن يضيفنا حمزة وأمراؤه غدًا، فقد أعددنا لكم مائدة لتكون لقمة الخبز بيننا وبينكم رباط أخوة وألفة وتعاون وتراحم، وشكرهم حمزة ثم انصرفوا.

حاول حمزة أن يصطحب معه أحدًا من أمرائه إلى مأدبة الملكين فما استطاع لأنهم آمنوا بأنهما غير مخلصين، وأنهما يقودانهم إلى خديعة مهلكة، وقال حمزة: إني وعدتهم ولا بد من الوفاء وإن شربت من أجله كأس الفناء، وقال معقل البهلوان: وإني لصاحبك، وأمر حمزة عمر أن يحضر جواده الأصفران، فقال: على شرط أن أرجع عقب وصولك إلى قصرهم ومكان ضيافتهم، وبعد مدة الضيافة أعود إليك بالجواد فإنه لا يصح في العقل أن أحذر غيري من شيء ثم أقع فيه، فقال حمزة: لك ما أردت.

وركب حمزة ومعقل البهلوان وسارا وعمر يركض أمامهما ودخلوا المدينة ولما كانوا أمام القصر نزل حمزة ومعقل وأخذ عمر الجوادين ورجع.

استقبلهما سكاما وأخوه وأعيانهما وسألوا عن بقية الأمراء والقواد فقال حمزة: ما رضوا أن يتركوا الجيش، وقالوا: ما دام الود بيننا وبينهم فلا مانع

لدينا أن نذهب إليهم في وقت آخر، فجزعوا لامتناعهم ولكنهم أخفوا جزعهم، وجلسوا يأكلون ويتضاحكون ويبدون من مظاهر المحبة والولاء ما يستطيعون، وبعد أن طعموا وشربوا قالوا لحمزة: ألا تحب أن تزور قصورنا وقلعتنا ورياضنا؟

فقال: لا مانع لدينا.

فطافوا بهما على رياض النيل وقصور المدينة حتى أدخلوهما قلعة النيل، وكانت ذات جدران متينة عالية، وباب من الحديد المتين، وما لبثا أن وجدا أنفسهما قد أقفل عليهما بابها بعد أن خرج منها جميع من كانوا معهما، فأيقنا أنهما وقعا في الشرك، وأنهما قادمان إلى الموت صبرًا، فرفع حمزة يده إلى السماء وقال: اللهم كما أخرجت يونس من حوته أخرجنا من قلعة هؤلاء الخونة ونجنا من كيدهم، ثم جلسا يذكران الله ويسبحانه.

ولما قرب المساء قال عمر: إني ذاهب إلى حمزة ومعقل لأتبين ما وقع لهما، فقالوا: ونحن في انتظار عودتك حتى نطمئن، ودخل عمر المدينة وسيفه ذو الشطرين في يده، لأنه يوجس من أهل المدينة خيفة في نفسه، فما رآه الجنود حتى هبوا سراعًا وأحاطوا به يريدون أن يمسكوه، فجرد سيفه وحصد الجنود من طريقه وطار إلى قومه، وأخبرهم بما وقع، فأيقنوا أن حمزة وصاحبه في الأسر ولا يجدان لهما مخرجًا. واستعدوا للقتال والحرب لاستخلاصهما.

وكان لسكاما بنت اسمها «درة الصدف» منحها أبوها الحرية المطلقة، فتسير حيث أرادت ومتى شاءت، في الليل وفي النهار وبدون استئذان، وكانت من أجل ذلك لا تقعد عن الطواف والجولان، فأنت تراها يومًا بالرياض ويومًا بالخلاء ويومًا بالشوارع والميادين، ويومًا يجري بها الفلك على وجه النيل... وقد عرفت امرأة عجوز هي مربية درة الصدف بنت الملك سكاما ما جرى لحمزة وصاحبه، فذهبت إلى درة الصدف وقالت: علينا أن نحفظ حياة حمزة وصاحبه بإمدادهما بالطعام والشراب حتى أدبر الوسيلة لخلاصهما، فمري جاريتك الخاصة أن تهيء طعامًا وشرابًا لهما وسأحتال معك في توصيل ذلك إليهما.

أعدت الجارية الطعام والشراب وحملت ما أعدت ومضت هي وسيدتها العجوز إلى حارس القلعة «أسمندر» من ناحية النيل، وقالت له العجوز: إن الملك حبس حمزة ورفيقه في القلعة، وإن العرب لن يقعدوا عن قتاله، وسيغلبونه ويقتلونه ويأخذون الملك منه، فإذا قدمت معروفًا إلى حمزة ولاك ملكًا على البلاد فما رأيك؟ فقال: مريني بما تشائين، فقالت: تيسر أن نمد حمزة وصاحبه بالطعام حتى نخلصهما من الأسر؛ فرضى بذلك، ودأبت على إطعامهما وسقيهما مدة حبسهما، وأبوها وجماعته يعتقدون أنهما سائران في طريق الموت جوعًا وعطشًا.

وكان جيش حمزة ورجاله في هم من أجله هو ورفيقه معقل لأنهم لا يعرفون مكانهما ولا ما حصل لهما، فنظر عمر في مرآته فوجدهما في قلعة النيل وأنهما مسجونان فيها ولم يصبهما أحد بمكروه.

وكان حمزة ورفيقه قد وجدا داخل القلعة صومعة منعزلة فنظرا فيها فوجداها مظلمة ولكن شيئًا مستطيلا في سقفها يبرق كالنجوم. فدخل معقل وأتى به فوجده سيفًا في غمده، ولما نزعه من غمده أضاء كأنه البرق، وقرأ الكتابة التي عليه فإذا هي: هذا سيف الضحاك الناجي فهنيئًا لمن أخذه.

كان مفتاح القلعة عند عم درة الصدف وأصرت على أن تأخذ المفتاح فاحتالت عليه حتى أخذته منه وذهبت إلى القلعة وفتحت الباب ودخلت عليهما ومعها الطعام والشراب وقالت: كلا واشربا وهيا بنا نهرب قبل أن يرانا أحد، وكان عمر قد تسلل إلى القلعة ودخل عليهم وحياهم وأخبرهم أن الجيش الآن يريد أن يدخل المدينة، ولكن يعوقه أن أبوابها مقفلة، فقال حمزة: سنبيت الليلة عند درة الصدف ونبكر في الصباح متنكرين إلى باب المدينة وحينئذ يكون الجيش قد استعد لاقتحام المدينة عند الباب، فإذا عرفنا أنكم قد تأهبتم للدخول قتلنا الحرس وفتحنا الباب فدخلتم وأعملتم سيوفكم فيمن يلقاكم، وبذلك نستولي عن المدينة ونفرغ منها.

استيقظ ورقا في الصباح فلم يجد درة الصدف ووجد خزانته مفتوحة وقد أخذ منها مفاتيح القلعة، وسمع الصياح في المدينة وأن القتال مشتعل

الأوار؛ فأدرك كل شيء وذهب إلى أخيه وأشار عليه بالهرب من باب آخر إلى كسرى أنو شروان وهناك يقصان عليه ما حصل.

هرب الملكان وقتل غيتشم صاحب دمياط الذي استنجد به الملكان، وشردت جنوده ففروا إلى مدينتهم، واستولى حمزة وجيشه على المدينة، وهكذا كان عاقبة أمرهم نصرًا مبينًا. ثم ولى عليها أسمندر حارس القلعة ملكًا جزاء ما قدمه من المعروف لهما وهما في القلعة؛ إذ كان عونًا لدرة الصدف في إحضارها الطعام والشراب لهما.

❊❊❊

﴿ ٥ ﴾

وجاءهم إذ ذاك رسول من صاحب حلب فقال: إن كسرى بلغه ما فعلته في بلاده من أخذ الجزية وتمكين نفوذك فيها فجمع جموعه وأتى إلى حلب ليلقاك وأنت راجع ويأخذك على غرة، وقد أرسلني سيدي صاحب حلب لأخبرك بما فعله كسرى حتى تأخذ حذرك وتكون على بينة من أمرك، فقال حمزة: ذلك ما كنت أبغيه، وسأحاربه وأقضي على ملكه، وأستولي على بلاده، وحينئذ لا ينفعه ندم. وأمر الجيش بالرحيل، فسار ومعه من أموال الجزية ما لا يحصيه العد. وما زالوا سائرين حتى نزلوا في أرض حلب وضربوا خيامهم وسألوا صاحبها عن كسرى فقال: إنه أرسل كتبًا إلى عماله ليمدوه بالجنود، ويتأهب لقتالك فمنهم من امتنع ومنهم من أجاب، وكنت ممن امتنعوا فخفت أن يأتيني بجنوده، ولهذا أرسلت إليك رسولي ليخبرك بما حصل. وهذا كل ما أعرفه عن كسرى.

أمر حمزة الجيش بالرحيل إلى المدائن للقضاء على كسرى وجيشه ما دام قد جاهره بالعداوة متبعًا خطوات شيطانه ووزيره بختك، وبان له جيش كسرى يملأ الفضاء أمام المدائن، فنزل تجاهه استعدادًا للقائه، وكان كسرى قد استعان بجميع من أطاعه من عماله وأصدقائه، ومنهم زوبين الغدار صاحب بلاد زوال وكموال الذي أعطاه الوزير بختك سيفًا مسموما ليقتل به حمزة، وكان يحفظه عنده ويعلم أنه إن جرح به إنسان لا تدوم له الحياة أكثر من يوم وليلة.

وأرسل حمزة إلى كسرى كتابًا قال فيه: ما زلت تطيع شيطانك الوزير بختك الذي لا يسوقك إلا إلى حتفك، والآن أفصل بيني وبينك فاسمع ما أقول واختر ما يروقك ويعجبك ليكون ذنبك على نفسك: لقد جمعت الجزية لسبع سنوات مقبلة من جميع عمالك وأتباعك، فإن أسلمتني ابنتك

مهردكار أعطيتك ما جمعت من الأموال ورحلت بها إلى مكة وتركتك آمنًا في بلادك، وإلا قضيت عليك وملكت بلادك وأخذت ابنتك بحد السيف.

ناول عمر كسرى كتاب حمزة، فأمر وزيره بزرجمهر أن يقرأه، ولما انتهى من قراءته قال الوزير بختك: أرأيت خيانة العرب وغدرهم؟! أرأيت ما كان يبيته حمزة لك ولشعبك؟! ألم أقل لكم اقتلوه أو حرقوه فإن بقاءه فينا نكبة كبرى؟! في أي عهد من العهود انحطت منزلة كسرى حتى كانت ابنته سلعة تباع وتشترى؟!

فقال زوبين الغدار: وهل يضر السحاب نبح الكلاب؟

وقال كسرى: إنكم في كثرة ساحقة من الجنود، وأود ألا تبقوا لهؤلاء العرب أثرًا.

وقال زوبين الغدار: لن تجد لهم بعد هذا ظلا في أرضكم.

والتفت كسرى إلى عمر وقال: ارجع إلى حمزة وبلغه أني سأقاتله، وسأنقع بدمه ودماء قومه ظمأ سيوفنا. فرجع عمر وبلغه جميع ما سمعه، وبات الفريقان على نية الحرب والقتال.

استمرت الحرب قائمة على أشدها أسبوعين وكانت حينًا هنا وحينًا هناك، ولكنها ابتلعت ألوفًا من فرسان كسرى حتى انزعج وملكه الخوف على نفسه وبلاده وأنحى على وزيره بختك باللائمة القاسية وقال: ما زلزل الملك وساق البلاد إلى هذا الدمار إلا آراؤك الخائبة الفاشلة، ولو سالمت حمزة ووفيت له وزوجته ابنتي لكنت الآن أثبت ملكًا وأعز نصيرًا، فقال الوزير: إنما تعرف الحروب بنتائجها، وما أنت إلا الغالب المنتصر ثم خلا بزوبين الغدار وقال له: لقد حق القول علينا فنحن المغلوبون، وما دام الأمير حمزة في العرب فما نحن بمنصورين، وقد أعطيتك السيف المسموم لتصيبه في جسمه بأية ضربة تلوث السيف من دمه، ولكنك لم تفعل، وما كنت أظن أننا سنهزم هذه الهزيمة وأنت في جيشنا، فقال زوبين الغدار: لقد حاولت أن أتصل بحمزة لأجرحه ولكني لم أستطع لأنه مارد من الجن، وما هو بإنسان، وقد عزمت على أن أتنكر في زي فارس عربي وأدنو منه فأخزه بالسيف من

حيث لا يدري من وخزه، ثم أتركه يسري سم السيف في جسمه ويسلمه إلى حتفه، فقال: أحسنت رأيًا، فبادر بتنفيذه غدًا.

جاء الغد وبدأت الحرب ونفذ زوبين الغدار ما دبره فجرح حمزة في فخذه ثم اختفى في غمار جيشه، وتأثر حمزة بالسم فسقط عن جواده في شبه ذهول وإغماء، وذاع هذا في جيشه فاتقدت صدورهم حماسة وألـمًا، وأوجعوا الأعداء ضربًا وطعنًا حتى انتهى اليوم وفرح العجم بجرح حمزة وأيقنوا موته، وإن كان قد قتل منهم في ذلك اليوم ألوفًا مـن الفرسان، لأنهم يتوقعون للعرب بعد موت حمزة هزيمة وإبادة وطردًا. وكان أندهوق قد انسل في ذلك اليوم ودخل المدينة وذهب إلى قصر مهردكار فعرفها بنفسه، ثم انسل بها وذهب إلى حمزة عند المساء فوجد الأمراء والقواد من حول حمزة وهو لا يزال في شبه إغماءة على الرغم من قيام أسطون الحكيم بعلاجه وإبطال أثر السم في جسمه، فلما رأته مهردكار حزنت وقالت: إن دواءه عند الوزير بزرجمهر.

فقال عمر: سآتيكم به في لمح البصر، ثم انفلت إليه متنكرًا وأخبره بما وقع لحمزة أخيه وأن مهردكار سرقناها وهي عنده فأحضر له في الحال قارورة من الدواء وقال له: ارحلوا هذه الليلة إلى مكة ومعكم أموال الجزية ومهردكار واطمئنوا على حمزة فإنه سيشفى بإذن الله.

فرجع عمر مسرعًا وأعطاهم قارورة الدواء وبلغهم ما قاله الوزير بزرجمهر، فوضعوا من القارورة على الجرح فانتبه حمزة واستيقظ قليلا، فبرق نجم الأمل في نفوسهم، ثم أخذوا أموالهم ورحلوا في ليلتهم، وما جاء ضوء النهار حتى كانوا قد بعدوا عن المدائن ولم يكن لهم أثر في أرض العجم.

أذاع زوبين الغدار أنه قتل حمزة وأنه سيقضي على جيشه غدًا فباتوا فرحين، وجعل بختك يشيد بذكر زوبين الغدار وقدرته، ويفتخر بأنه نجح في خطته، وصدقت سياسته وحكمته، ولما جاء الصباح وجدوا أن العرب قد رحلوا ولم يبق لهم أثر في أرضهم، فقويت أطماع كسرى فيهم وقال: لا بد من اقتفاء أثرهم والقضاء عليهم في ديارهم، والاستيلاء على مكة وهدم البيت الحرام

حتى لا تقوم للعرب قائمة بعد ذلك، فركب في جيشه وجدُّوا في مسيرهم إلى مكة، ولما كان على مقربة منها أمر أن ينزل الجيش ويضرب خيامه، ويغلق الطرق إلى مكة فلا يسمح لأحد يخرج منها أو يأتي إليها، وكتب إلى أميرها كتابًا جاء فيه:

- اعلموا أنه بعد موت حمزة أميركم لن تقوم لكم قائمة، ومن الحكمة أن تختاروا السلامة فتدخلوا في طاعتي وتعطوني الأموال التي جمعتموها، وابنتي التي سرقتموها، ويذهب كل أمير إلى بلده، وبذلك أعفو عنكم لأن الذي كان قد أضلكم وحملكم على عصياني قد قتل وانقضت أيامه، وإن أنتم خالفتم أمري أهلكتكم وخربت البيت الحرام الذي تعظمونه وتحجونه. ثم بعث أحد حجابه بهذا الكتاب.

كان حمزة قد شفاه الله ورد إليه عافيته وقوته فدخل الحاجب على مجلس الأمير إبراهيم، وقد جلس في صدره فخر العرب الأمير حمزة ابنه، فناوله الكتاب، فقرأه.

ثم نظر حمزة إلى رسول كسرى مبتسما وقال له: قل لكسرى: إن حمزة سيجيب عن هذيانك هذا بسيفه ورجاله، ورجع الرسول وبلغ كسرى ما سمع، فارتخت أعصابه واغبر وجهه وقال لوزيره: ألا تزال في ضلالك القديم؟! ما أنت تباركنا حتى تقضي علينا.

فقال الوزير: لا يغرنك هذا القول، فإنهم يصلونك بكذبهم، أما حمزة فقد مات ولكنهم يخفون موته على الجند حتى لا تضعف شوكتهم ويفتر عزمهم، وغدًا سترى البوار يحيق بهم من كل جانب، ثم خلا بزوبين الغدار وقال له: لقد أخزيتني وأخجلتني، فهذا حمزة لم يمت، وكأنك كذبت علينا وما أصبته بسيفي.

فقال زوبين: أما إصابته بسيفك فأمر لا شك فيه، وأما أن سيفك مسموم قاتل فذلك ما تعرفه أنت ولا أدريه. ومع هذا فسأجتهد غدًا ولا أبقى للعرب أثرًا وإن كان حمزة فيهم.

عرف عمر العيار أن زوبين الغدار سيهجم عليهم غدًا بجيشه فجمع

العيارين وزعيم العصبة الثمانمائة الذين ولدوا معه، وقال لهم: اختبئوا على مشارف الطريق الذي سيمر فيه زوبين وجيشه وخذوا معكم نبالكم، ولا تُشْعِروا أحدًا أنكم كامنون لهم، فإذا بدأت الرمي وصحت فيكم آمرًا فأرسلوا نبالكم على أعدائكم دفعات متتابعة كأنها المطر المنهمر، فإني أريد أن أسخر من زوبين الغدار وأقصم ظهره بسحق رجاله، ففعلوا ما أمرهم به عمر وباتوا في مخابئهم يترصدون، وجعلوا بقية الجيش في خيامهم آمنين، وفي الصباح الباكر تقدم زوبين رجاله ومضى بهم إلى خيام العرب ليبغتهم بالسيوف الباترة، وأمهلهم عمر حتى كانوا جميعهم هدفًا لنبال رجاله، ثم رمى وصاح آمرًا فأمطروا بسهام صائبة من العرب، وجعلوا يتساقطون تساقط أوراق الشجر في يوم عاصف، فما وجد زوبين مخرجًا له ولرجاله إلا الهرب في الصحراء، ووجد كل منهم سبيله إلى ناحية وتفرقوا، ثم سعى زوبين في جمعهم وعاد إلى خيامه حزينًا كئيبًا. وعرف ذلك كسرى فضاق صدره وقال: لا تحاربوا العرب ولكن احصروهم حتى يموتوا جوعًا. واستحسن الوزير بختك رأى كسرى وأعلن الأمر به.

وأرسل حمزة عمر أخاه إلى الوزير بزرجمهر يستشيره في أمر قتال كسرى، فتنكر في زي عبد من عبيد كسرى الذين يضحكونه ويقومون بألاعيب مضحكة أمامه للتفريج عن نفسه، وكان على رأسه قبعة علق فيها أجراسًا صغيرة وانطلق إلى جيشهم فاخترقه راكضًا قافزًا مصفقًا بيديه فما أنكره أحد لأنهم على يقين أنه من عبيد كسرى المرفهين.

ولقى الوزير بزرجمهر وعرفه بنفسه والغرض الذي جاءه من أجله فقال بزرجمهر: قل لحمزة لا يدخل حربًا الآن وسيبعث الله من يبيد كسرى وجيوشه، وقد انصرف عن قتالكم وهو في انتظار قافلة بالزاد والمئونة.

ففرح عمر وقال: سأبلغه رأيك، وسأعمل على نهب القافلة وقتل رجالها.

ثم رجع مخترقًا جموع الجيش ضاحكًا عابثًا حتى كان عند حمزة وبلغه كل شيء وعرفه، وقال: إني ذاهب لنهب القافلة وقتل عبيدها.

وذهب إلى العيارين وأندهوق ورجاله وقال لهم: استعدوا للرحيل إلى

جهة لنغنم منها الزاد والمئونة وانتظروني مستعدين حتى أرجع إليكم فقالوا: سمعًا وطاعة.

رجع عمر إلى جيش كسرى واخترقه ثم انفلت منه إلى طريق القافلة حتى التقى بعبيدها فسلم عليهم وأظهر سروره بلقائهم، وجعل يضاحكهم! ويداعبهم حتى اطمأنوا إليه لأنه من جنسهم ولأنه عرفهم أنه عبد كسرى الماجن المازح، ثم رغبهم في قضاء ليلة راقصة مرحة قبل أن يصلوا إلى كسرى، فأجابوه إلى ما طلب وضربوا الخيام وأكلوا ثم أحضروا الخمر وقال سأسقيكم بيدي وأرقص لكم وأضحككم فقالوا: افعل ما شئت فنحن في حاجة إلى أن نريح أنفسنا من تعب السفر، ووضع في الخمر بنجًا وسقاهم حتى سقطوا على الأرض كالموتى، ثم انفلت إلى العيارين وأندهوق ورجاله، واخترق بهم طريقًا بعيدًا عن الجيش حتى كانوا عندهم، فذبحوهم جميعهم وأخذوا الجمال وأحمالها ورجع بهم من ذلك الطريق ودخلوا مكة آمنين.

استبطأ كسرى القافلة فأمر العيارين أن يكشفوا له خبرها، وانطلقوا في طريقها إليهم، ثم رجعوا وهم في حزن أليم وقالوا: وجدنا العبيد مذبوحين والخيام مضروبة وليس للزاد والمئونة أثر.

فقال زوبين: ذلك عمل عمر العيار وكيده، فإنه شيطان ماكر، فغضب كسرى وقال: لئن وقع في يدي لأقطعنه إربًا، ثم أرسل في طلب غيرها من البلاد، ولبث يحاصر مكة ظانا أنه سيرغم العرب على التسليم حين ينفد ما عندهم من الزاد والمئونة، أما بزرجمهر فإنه كان في فرح عظيم ولكنه لا يبدي منه شيئًا.

وسمع عمر حمزة يتكلم وهو على فراش نومه ويقول: إن كان ما تقوله حقا فإني أعدك أن أقتل عمك وأرد إليك ملكك، فأطل عمر عليه فلم يجد معه أحدًا، فاضطرب وظن به شرًا وأسرع إلى أسطون الحكيم حزينًا باكيًا فسأله عما به فقال: أخشى أن يكون أخي حمزة قد أصابه مس من الضر فقد سمعته يكلم نفسه، فجمع الأمراء ومضوا إليه فاستقبلهم كعادته معهم، ولما جلسوا أراد أندهوق أن يختبر وعيه وجعل يسأله عن الشهور والأيام وأسماء

الجالسين وماذا يعملون الآن في أعدائهم، وكان يجيبه إجابة سديدة رشيدة لا يشوبها شائبة من ضعف.

وأدرك حمزة أنهم ارتابوا في إدراكه ووعيه فسألهم: ما دفعكم إلى هذه الأسئلة؟ فقالوا: جاءنا عمر وقال: كيت وكيت، فقال: ما أخطأ عمر وما حدثكم إلا بما وقع، وقد كنت أتحدث إلى شخص سأريكموه الآن ثم نادى: يا راعد، اظهر لقومي وتحدث إليهم بما أخبرتني به. فظهر عفريت من الجن، أصلع الرأس، أحمر العينين، طويل اليدين، قصير الرجلين، وقال: إني عفريت من جبال «قاف»، وهي ثلاثة أقسام لثلاثة ملوك، ملك القسم الأول «ياقوت»، وملك الثاني أبي «معدن» وملك الثالث عمي «أليون» وتوفي أبي «معدن»، منذ أيام، فطمع عمي «أليون» في قسمه وطردني وأمر أن يقتلني من رآني، فهربت ولجأت إلى كاهن كان قد استخلصه أبي لنفسه ورجوت منه المعونة فقال: لا يقدر على عمك إلا فارس العرب الأمير حمزة بن إبراهيم في مكة، فإن معه سيفًا يقتل به الإنس والجن، فأسرعت إلى الأمير حمزة وشكوت إليه، فوعدني أن يقتل عمي ويرد إليّ ملكي، ووعد الحر دين عليه، فقال حمزة: سأنجز موعدك ولن أخلفه، ولكن بعد هزيمة كسرى وجيشه وطردهم من أرض الحجاز الطاهرة؛ فأقم بيننا حتى يأذن الله بفرج من عنده، فقال راعد: وقد كفلت لكم هزيمتهم وطردهم، فأعلنوا الحرب غدًا، وسوف ترون البلاد طهرت منهم في أسرع وقت.

فقال حمزة لعمر أخيه: اذهب إلى الوزير بزرجمهر وقص عليه ما سمعت، وشاوره في إعلان الحرب الآن، ولما قص عمر على الوزير وسأله، قال: هذا العفريت الذي كنت أنتظره فأعلنوا الحرب غدًا فإنكم الغالبون بشجاعتكم وسيف هذا العفريت، ورجع عمر، وبلغ حمزة والأمراء ما قاله بزرجمهر فباتوا على نية القتال وبدئه في صبيحة الغد.

بكر العرب ودقوا طبول الحرب، فأجابهم جيش كسرى بدق الطبول واشتبك الجمعان، وبدا حمزة في الميدان، ورآه كسرى وجيشه ففزعوا، وجال هو وأمراؤه وفرسانه جولات حاصدة، وكان العفريت قد أمسك سيفًا

طوله عشرة أذرع فيميل به ذات اليمين وذات الشمال يجز الأعداء جزا، حتى أيقن زوبين الغدار أنه هالك إن استمر في القتال فأدبر هاربًا وتبعه من بقي من جيشه. أما كسرى فإنه قال لوزيره بختك: ما أضلك من وزير وما أجهلك!! فلقد أفنيتنا بحمقك وفساد رأيك. ثم ركب وأسرع هاربًا، ومن ورائه الجيش المهزوم الفاشل، وجعل العرب يطردونهم حتى أخرجوهم من ديارهم؛ ودأب كسرى على المسير حتي وصل إلى المدائن كاسف البال كئيبًا حزينًا.

❊❊❊

﴿ ٦ ﴾

وبات حمزة ليلته وفي الصباح استيقظ وجاءه راعد العفريت يستنجزه ما وعد، فقال: تعال معي إلى مجلس أبي لأخبره وأخبر الأمراء أني ذاهب معك لإنجاز موعدي، وهناك بسط لهم حمزة عزمه على السفر إلى جبال قاف، فثارت ثائرتهم وقالوا: لا نقبل أن تتركنا وأمرنا مع كسرى لا يزال قائمًا، فقال: ولكني وعدته والعربي لا يخلف وعده، فقالوا: انتظر حتى ينتهي ما بيننا وبين كسرى، فإنه لن يسكت عنا ما دامت ابنته فينا، وما دام تابعًا وزيره، ومتبعًا خطوات شيطانه بختك الذي لا يخبو حقده على العرب. فقال حمزة: أمهلني يا راعد حتى أرضي الأمراء والفرسان، فانصرف راعد باكيًا.

ولما رجع حمزة إلى فراشه في المساء جاءه راعد يبكي ويستغيث فقال حمزة: لا تحزن فإني ذاهب معك، وانتظر حتى يمضي يومان أو ثلاثة ليعلم القوم أني عدلت عن السفر معك، وسأخرج بهم إلى الصيد وتكون معنا بحيث لا تظهر لأحد، ثم أمعن في المسير وحينئذ أناديك فتحملني إلى جبال «قاف» وهم يظنون أني تهت في الصحراء فيقومون بشئونهم حتى ينجلي لهم أمر غيبتي وأكون قد انتهيت من حاجتك ورجعت إليهم، فقال: شكرًا لك من وفي كريم.

وفي اليوم الرابع عرض حمزة عليهم أن يخرجوا للصيد فركبوا جيادهم وأمعنوا في البيداء وضربوا خيامهم حيث اختاروا النزول، ثم تفرقوا للصيد وكان عمر لا يفارق أخاه لحظة فرجع إلى خيمته فلم يجد أحدًا من الفرسان قد آب إلى خيمته، فقال لعمر: سر هنا وهناك عسى أن تجد أحدًا من الفرسان فارجع به إليّ.

فمشى عمر حتى اختفى ونادى حمزة العفريت فحضر وحمله وطار به إلى جبال قاف، ورجع عمر والفرسان ولكنهم افتقدوا حمزة ولم يجدوه.

فحضر العفريت وحمله وطار به إلى جبل قاف

فقال عمر: يبدو لي أنه ذهب مع العفريت فلا تجزعوا. فقالوا: قضي الأمر فلنعد ولنقم بما يجب علينا كأنه فينا حتى يعود سالمًا.

اجتمع مجلس العرب يفكرون فيما يفعلون، وكيف يعرفون ما عزم عليه كسرى بعد هزيمته الكبرى، فقال عمر: سأذهب إلى المدائن وآتيكم بأخبار كسرى، وأستشير بزرجمهر فما نفعله وفي غياب الأمير حمزة فقالوا: أنت لها أيها العيار الشهم ورافقتك السلامة.

اكتحل عمر وبدل صورته وأصبح أعجميا قحًا، ودخل ديوان كسرى فوجده في مجلس حافل من وزرائه وكبرائه وهو يقول لوزيره بختك: ليتني خالفتك ولم أطعك فزوجت حمزة ابنتي، وأبقيته في مدينتي، فكنت أعظم جاهًا، وأشد سطوة، وباعدت بيني وبين هذا الخزي وذلك الهوان الذي أوقعتني فيه بوسوستك وتضليلك!! وقد أكسبت حمزة بخرقك قوة في الرجال، وكثرة في الأنصار، وبسطة في الأموال؛ وأخرجت بلادي من يدي إلى يده، وعمالي من طاعتي إلى طاعته، وخيرات بلادي من حوزتي إلى حوزته؛ وابنتي من يميني إلى يمينه، فلا كنت أيها الوزير الأخرق ولا كانت أيامك!! فقال الوزير: الأمر في يدك فصالح العرب إن شئت، وسترى أنهم سيطأون البلاد بأقدامهم لأنهم أناس لا عهد لهم ولا ذمة. فقال كسرى: لا يزال العناد دأبك، والمكابرة سجيتك، ولا خير فيك ولا في الحديث معك.

انصرف المجلس وخرج الوزير بزرجمهر إلى داره، وتبعه عمر العيار حتى دخل معه، وعرفه بنفسه، وأخبره بما كان من سفر حمزة إلى جبل «قاف»، وسأله عنه عن عودته، فقال الوزير: لا تخافوا فإن الله قدر على حمزة سفرًا طويلا ولكنه سيعود سالمًا وسيقابله العرب في عودته وتقع حرب طاحنة بينهم وبين الفرس، فأقرئ العرب مني السلام، وبلغهم أن يكونوا كما نعهده في العرب رجالا أقوياء أوفياء في غيبة أميرهم حمزة، وأنهم سيغلبون العجم ويستعبدونهم.

وفرح عمر بما سمع، ورجع إلى قومه، وأفضى إليهم بما سمعه، فاغتبطوا وتواثقوا على التعاون والإخلاص وخدمة الأمير في غيبته، والحرص على رضاه أكثر مما لو كان حاضرًا.. طار راعد العفريت بحمزة ودأب في طيره

حتى نزل في أرض واسعة الرياض، كثيرة الأشجار الضخمة الباسقة، الجميلة المناخ، وجاءه بالطعام والشراب فأكل وشرب، ثم رغب في أن يمكث في هذه الأرض يومًا أو أكثر لطيب هوائها وجمال فطرتها، وجعل يمشي في أرجائها حتى كان على شاطئ بحر لا يرى شاطئه الآخر، فقال: لعل أناسًا يأتون هذه الأرض على سفنهم، فقال: إنها بعيدة عن أرض الإنس ولن يأتيها إنسان، ولا يجري في هذا البحر فلك.

فنظر حمزة في البحر شيئًا كالشراع وهو يجري فوق البحر في سرعة الطائر فقال: وما لي أرى فلكًا قادمًا وهذا شراعه؟ فقال: إن هذا الذي تراه سمكة في حجم الفلك، وهي تطفو أحيانًا على سطح البحر ثم تختفي، ولأن الصيادين لا يغشون هذه الجهات فإن سمكها يكبر حتى يكون في حجم المركب.

وبعد أن أشبع نفسه من مناظر هذه الأرض حمله العفريت وطار، ثم نزل به في أرض مقفرة على رأس مفترق لطرق ثلاثة، ثم قال العفريت: هذه الأرض التي يحكمها عمي، وهذا أولها، ولا أستطيع الظهور لأحد وإلا قتلت، ولن تراني بعد ذلك إلا إن مات عمي، ثم اختفى. فاندهش حمزة من عمله هذا وسرعة اختفائه وتركه حيران لا يدري أي طريق يسلك.

سار في إحدى الطرق على غير هدى حتى كان في أرض رملية تزفر من شدة الحر، واشتد به العطش حتى عجز عن المسير فجلس مسلمًا أمره إلى الله.

أخذته سنة من النوم ثم استيقظ فوجد القفر أرضًا مخضرة الأديم، يجري فيها عليل النسيم؛ ورأى شيخًا في ثياب من سندس خضر مقبل عليه، فنهض إليه يسأله عن ماء، ولكن الشيخ سبقه إلى الكلام فقال: لا تجزع يا حمزة فأنا الخضر خادم الحق، ونقمة على الكافرين، فتعال واشرب من هذه القربة، فشرب الأمير حتى ارتوى. ثم قال الخضر: ناولني سيفك فناوله إياه، وغمسه في الماء الذي معه، ثم رده إليه وقال: أصبح هذا السيف وقاية لك من العفاريت والمردة، ولن يقدر أحد منهم أن يدنو منك بمكروه ما دام معك، ثم اختفى الخضر ومضى لسبيله.

واستأنف حمزة مسيره حتى كان بين قصور عالية البناء، فجعل يمشي بينها والعفاريت سائرة تنتقل من مكان إلى مكان، ومن قصر إلى قصر، وهو ينظر إليها ولا يستطيع أحد منهم أن يحدثه أو يدنو منه حتى كان قدام قصر أمامه حجاب من العفاريت، وتبدو عليه هيبة الملك وروعته، فظنه قصر أليون ودخله فوقف محدقًا فيه نظره؛ وهم أن يدخله فاعترضه الحجاب يريدون منعه، فاستل سيفه أن وهم يحمل عليهم، ولكنهم فروا هار بين، ودخلوا على أليون الملك وقالوا: إن إنسيا دخل القصر وأردنا منعه فأخرج سيفًا من غمده يرسل نارًا تتلظى فلم نستطع أن نقرب منه فقال: أليون عليّ به. ولكن حمزة دخل عليهم وهم وقوف أمام أليون فقال: انزل عن هذا الكرسي لواعد ابن أخيك، فهو أخي، وقد جئت لأرد إليه ملكه، وأزيل عنه ظلمك، فغضب أليون وأمسك عمودًا من الحديد وهم أن يضرب به الأمير حمزة، فابتدره حمزة وضربه بسيفه فشقه نصفين.

وظهر راعد حينئذ قائلا: لا شلت يداك أيها الشهم الوفي والكريم الأبي. ثم التفت إلى أرهاط الجن وقال: أصبحت الآن ملكًا بعد أبي، فمن أطاعني منكم فقد نجا، ومن عصاني فلا جزاء له عندي إلا الهلاك. فقالوا: نحمد الله الذي نجانا من ظلم عمك، وأجلسك على ملك أبيك؛ ونحن بك فرحون ولك طائعون. وأقام راعد مأدبة فاخرة دعا إليها كثيرًا من الجن، وجلس فيهم حمزة وهو يعجب من صورهم وأشكالهم، فهذا طويل رفيع كأنه النخلة، وهذا قصير لا يعدو طوله ذراعًا؛ وهذا ضخم الجثة كأنه الفيل، وذلك وجهه في ظهره، وآخر يده في صدره وهذا كأنه الإنسان المعتدل القامة... وبعد أن أكلوا قال الأمير: قد قضيت حاجتك وأحب أن تحملني إلى بلدي بعد أسبوع أقضيه معك لتكون عودتي بعد الاطمئنان عليك؛ فشكره راعد شكرًا جزيلًا وقال: سأطوف بك في جبال قاف لتعرفها وترى ما فيها من المناظر، وأنا خادم لك في كل حين.

وكان راعد يذهب به كل يوم في بقعة من جبل قاف حتى انتهى الأسبوع، وفي صباح اليوم الثامن دخل حمزة على راعد، في غرفته ليحمله إلى بلدته

فوجده مذبوحًا، فأخرج سيفه من غمده وطاف في القصر، فلم يجد أحدًا، ولما كان عند الباب وجد ماردًا رجلاه في الأرض ورأسه في السحاب فهم أن يضربه بسيفه ففر المارد مخافة أن يقتله، فناداه وسأله عمن قتل راعدًا فقال: قتلته أسما بري بنت الملك أليون الذي قتلته، وكانت هذه جميلة الخلقة، ولها طائفة من الجن يقومون بخدمتها، وكبيرهم هذا المارد واسمه كندك، وكانت غائبة حين قتل أبوها.

فلما حضرت وسألت عمن قتله، قيل لها: إن راعدًا أحضر معه رجلا من الإنس وقتله، وأجلسه على عرش الملك من بعده، واسمه حمزة العرب، فقالت: لا بد من قتل راعد وقتل حمزة، ثم ذهبت إلى راعد في غرفته فوجدته نائمًا فذبحته بسيفها، وقالت لكندك. اقتل حمزة، فقال لها: لا أستطيع أن أدنو منه يا سيدتي لأنه محاط بالنار المشتعلة، فنظرت إليه فأعجبها حسنه ووقعت في قلبها محبته، فقالت لكندك: إذا استيقظ في الصباح وجاء لراعد فوجده مذبوحًا، وسأل عمن ذبحه فقل له: أسما بري بنت أليون، وأرادت أن تذبحك ولكنها أشفقت عليك، فعفت عنك وصفحت، وسأحضر إليه وأفعل ما أرى.

ظهرت له أسما بري وقالت له: لا يحزنك قتل راعد فقد ثأرت منه لأني، وأما أنت فلن أمسك بسوء. فضاق صدر الأمير وقال لمارد ممن حوله: احملني إلى بلدي. وسأجزيك على هذا خير الجزاء، فقالت أسما بري: كل من حمله قتلته، فلم يجد الأمير بعد ذلك من يحمله.

وقالت للأمير: إن رضيت عنك أمرت كندك أن يحملك إلى مكة في أقرب وقت، فقال: ولكني لن أكون أسيرًا لرضاك، وأرجو الله أن يسخر لي من يحملني إلى بلدي، ثم تركها ومضى ماشيًا، وبعد أن غادر المدينة وجد أسما بري من خلفه مقتفية أثره ومعها خادمها كندك. فلما رآها قالت له: لا تتعب نفسك، ولا تطلب المحال، فإنك لن تستطيع العودة إلى مكة إلا بمعونتي، فقال: لأن أموت ماشيًا خير لي من أن أرغم نفسي على رضائك، واستمر يمشي حتى جلس من التعب والجوع، فأحضر له كندك طعامًا وقال

له: إن سيدتي أمرتني أن أقوم بخدمتك وإحضار ما تحتاج إليه من طعام وشراب، فأكل حمزة وشرب وقال له: احملني إلى مكة وسيجزيك الله عني خيرًا، فقال: لا أجرؤ على أن أخالف سيدتي، وإذا أردت العودة فاسترضها.

واستمر الأمير يمشي وهو لا يتعب، وكندك يحضر له الطعام ويجعله لا يحس جوعًا ولا عطشًا، فقلقت أسما بري وقالت: لا يزال يمشي وهو لا يشكو تعبًا، فقال كندك: لا تطعميه، فإذا جاع وعطش أحس حاجته إليك، فقالت له: لا تقدم له طعامًا ولا شرابًا بعد الآن. فامتنع كندك، وجعل حمزة يمشي وهو لا يأكل حتى أضناه الجوع وأفقده قوته؛ فجاءه الخضر وقال له: لا تخف من صداقة أسما بري واخطبها لنفسك لتتزوجها، ولا يضق صدرك بهذا الزواج، ولا تخف من متاعب السفر، فإنه لخيرك، فشكا إليه الجوع، فقال: ضع هذه الحصاة تحت لسانك، فإنك لا تحس جوعًا، ولا تحتاج إلى طعام، فأخذ حمزة الحصاة ووضعها تحت لسانه، فرجعت إليه نضرته وقوته، وذهب عنه الجوع وحدته، ثم نظر فلم يجد الخضر أمامه، وجعل يمشي وهو لا يأكل ولا يشرب، ولا يبدو عليه ضعف ولا عجز حتى أدهش أسما بري فجمعت خدمها من الجن، وشكت لهم حاله؛ فقال أحدهم: إني أعرف سبب استغنائه عن الطعام والشراب، وحكى لها ما فعله الخضر معه، فزادت محبته في قلبها، وقالت ما دام هذا الرجل مشمولا برعاية الله وحفظه، فإني يسرني أن أيسر له أموره وأخدمه. وقال هذا المارد: وإن في استطاعتي أن أسرق منه هذه الحصاة ليضنيه الجوع، ويصبح في حاجة إليك. فقالت: إن سرقتها فلك عندي مكافأة قيمة.

سبق المارد حمزة وظهر في صورة درويش وانتظره في الطريق يصلي وبجواره وعاء به سمك مشوي، فلما وصل إليه وقف ينتظره حتى فرغ من صلاته وقال له: أراك إنسيا فكيف جئت إلى هذه الأرض؟ فقال المارد: إن لي قصة عجيبة، كان لي أب من أغنياء دمشق وأعيانها الوجهاء البارزين، فأدبرت عنه الأيام وافتقر، وبخل عليه الزمن بالكفاف من العيش؛ فجاءه ذات يوم رجل مغربي عليه سيما الوقار والهيبة وقال لأبي: جئتك لأبشرك

بالغنى، فقال: وكيف ذلك؟ فقال: قضيت من عمري زمنًا طويلا وأنا أبحث عن كنز في جبل قاف وقد عرفت مكانه، وبحثت في كتب الحكمة عن طريق فتحه، فعرفت أن الكنز لا يفتح إلا على يد ابنك، فجئتك ليخرجه ابنك ويكون المال قسمة بيني وبينك، فرضي أبي لفقره، وجاء بي هذا المغربي إلى هذا الجبل فأخرجت له المال وأخذه وتركني وقال: انتظر أنت في هذه الأرض حتى يوافيك أجلك، فاعتمدت على ربي ودأبت على الصلاة، ثم سمعت هاتفًا يقول: اطلب ما شئت من الطعام فإني أحضره إليك، وانتظر في هذه الأرض حتى يأتيها حمزة أمير العرب، فإنه سيأخذك معه وهو عائد إلى مكة بلده؛ وقد دعوت الله هذا اليوم أن يأتيني بسمك، فنزل عليّ هذا الوعاء وفيه هذا السمك المشوي، فأنت ضيفي اليوم، ولا بد أن تأكله فإنه نصيبك.

فعجب حمزة وصدق المارد وقال: نعم أنا حمزة، وستكون رفيقي في عودتي، ثم جلس وأخرج الحصاة من فمه ووضعها بجانبه وجعل يأكل من السمك؛ وعلى غفلة منه أخذ المارد الحصاة وتركه، ولما بعد عنه قال له: هذه الحصاة أخذتها وأصبحت في حاجة إلى طعام أسما بري، فإذا أردت الحياة والعودة إلى مكة فاجعلها ترضى عنك، وليس لك سبيل غير هذا.

تذكر حمزة كلمة الخضر، وهي: لا تخف من زواجك بأسما بري، وعلم أنها له بالمرصاد، وأنها لا تفارقه، وعرف أنه وحده في هذه الأرض. وفي حاجة إلى الطعام والعودة إلى مكة؛ فقال للمارد: عليّ بها لأشترط عليها، فأجابت قائلة: أنا معك ولا أفارقك فماذا تريد؟ فقال: أود أن تكوني زوجة لي على شرط أن يحملني كندك إلى بلادي بعد خمسة عشر يومًا من الزواج، فقالت: لك ذلك، ثم حمله كندك إلى قصر أسما بري، وهناك قال لها: أحب أن يحضر إلينا كندك من مكة القاضي بهلول الناقوش، وعمر العيار، ليتم الزواج على سنة العرب. فقالت: اكتب إليهما كتابًا يأخذه كندك معه ليصدقاه ويحضرا، فكتب إلى أبيه إبراهيم يخبره بما وقع له، ورجا منه أن يرسل القاضي وعمر، فلما وصل كندك إلى أبيه ناوله الكتاب فحمد الله لسلامة ابنه، وقال: إن

العرب ذهبوا للبحث عن حمزة وليس هنا إلا القاضي فخذه، فطار به كندك حتى كان به في قصر أسما بري، وعرفه أن عمر العيار مع الجيش يبحث عنه فقال: اذهب إليه عند الجيش وأحضره فقال: سمعًا وطاعة وطار إليه ليحضره.

وعرف جواسيس كسرى أن حمزة غائب، وأن العرب رحلوا ومعهم مهردكار والأموال إلى ناحية المغرب، فقال بختك لكسرى: إن الواجب يقضي أن نبعث من خلفهم جيشًا لاستخلاص مهردكار، وأخذ الأموال، ما دام حمزة غائبًا وليس فيهم؛ فأرسل كسرى ابنه فرمز تاج في جيش عظيم والتقى بالعرب في الطريق، وهناك طلب فرمز تاج أن يعترف العرب بالخطأ ويردوا الأموال وأخته مهردكار وإلا أبادهم بجيشه. فقالوا للرسول: ارجع إلى فرمز تاج وقل له: لن ترى مهردكار ولن تأخذ شيئًا منا ما دامت سيوفنا في أيدينا، فذهب إليه وبلغه ما سمعه، فاشتد به الغضب حتى لم يستطع احتماله، فلاذ بالخمر وجعل يشرب حتى سكر ثم دفعه السكر إلى أن يتنكر في زي بدوي ويدخل جيش العرب ليسرق أخته و يرجع بها؛ وذهب متنكرًا وكان لا يعرفه أحد من العرب، ولكنه مر بعمر العيار فعرفه، فجاء من خلفه ولكزه برجله فسقط على الأرض، ثم أمسكه عمر وذهب به إلى جماعة الأمراء وهو يضحك، وحكى لهم قصته فقالوا: اذهب إلى أخته وقص عليها قصته، واستفتها فما نفعله به، فإن أرادت قتله قتلناه، وإن أرادت غير ذلك فعلناه، فهو أخوها ومن الحكمة أن تحكم هي في أمره، فذهب عمر إليها، وحكى لها قصة أخيها وما قاله الأمراء فقالت: احبسوه عندكم، وحافظوا عليه حتى يأتي الأمير حمزة، ويرى فيه رأيه، فبلغهم عمر ما قالته مهردكار فقالوا: لقد أحسنت في رأيها. وكلف عمر جماعة من العيارين حراسته والمحافظة عليه.

وبحث زوبين الغدار عن فرمز تاج فلم يجده، فكلف جماعة من العيارين البحث عنه في جيش العرب فغابوا ساعة ورجعوا وقالوا: إن فرمز تاج أسير عندهم وهو في حراسة عمر العيار وجماعته، فعجب زوبين الغدار، وخاف على نفسه أن يسرقوه، وأمر الجيش بالعودة إلى المدائن ليخبر كسرى

بأسر ابنه، وأنه لو بقي يومًا آخر لسرقوه أيضًا. وما جاء الصباح حتى كانت الأرض خالية من جيش كسرى. فركب العرب وساروا وفرمز تاج بن كسرى معهم، وكان عمر العيار كلما قربوا من مدينة أو قلعة أكره فرمز تاج على أن يكتب إلى صاحبها كتابًا يأمره فيه بالتسليم والطاعة وإمدادهم بما يحتاجون إليه من المئونة، وكان كلما كتب كتابًا قرأه خشية أن يكون فيه شيء يضرهم؛ ولما وجد الكتب جميعها على نمط واحد سكت عن قراءتها بعد كتابتها، ولما وصلوا إلى قلعة قمطين ووجد فرمز تاج أن عمر العيار سكت عن قراءة كتبه بعد كتابتها لجأ إلى الخيانة وكتب إلى عاملها:

– اعلم أن العرب أسروني وأذاقوني العذاب الأليم، وكلما قربوا من مدينة أو قلعة أكرهوني على الكتابة إلى عاملها أن يطيعهم ويمدهم بما يحتاجون إليه من المئونة، وكانوا يقرءون الكتب التي أكتبها لأصحاب البلاد وحكامها. ولما وجدت عمر العيار اطمأن وكف عن قراءة ما أكتبه للحكام – كتبت إليك بالواقع وبما أريده منك، فإذا قرأت كتابي هذا فقاتلهم واعمل على خلاصي من أسرهم، واقبض على عمر حامل كتابي هذا، واقتله، فإنه عيار يعتمد العرب عليه، وهو السبب في نجاحهم، وإذا فقدوه ضعفوا وانتصرت عليهم وخلصتني من أيديهم.

ولما قرأ حاكم القلعة الكتاب ابتسم لعمر وحياه، وأشار خفية إلى قومه أن يقبضوا عليه، فانقضوا عليه وأمسكوه وأحكموا وثاقه، ثم أمرهم أن يذهبوا به إلى «دولاب الهواء» ليدفعوه صاعدًا إلى أعالي الجو ثم يهوى إلى الأرض جثة هامدة مهشمة، وكانت القلعة متينة الأسوار لا يستطيع أحد أن يقتحمها، فأغلقوا أبوابها وأخذوا عمر إلى «الدولاب» فوق سورها وصاحوا في العرب: انظروا إلى ما يحل بعمر الذي هو عمادكم، فإنا أوثقنا كتافه وسنضعه في هذا «الدولاب» ليرفعه إلى أعالي الجو ويهوي مهشمًا ميتًا. فزحفوا إلى القلعة يحاولون دخولها لينقذوه ولكنهم عجزوا عن اقتحامها فصاحوا قائلين: خلوا سبيل عمر لنترك القلعة ونسير في طريقنا وإن عصيتم دخلناها على الرغم منكم وأهلكناكم أجمعين، فما عبأوا بإنذارهم ووعيدهم،

ووضعوا عمر في «الدولاب» وأداروه حتى قذفه في الجو وارتفع إلى طبقاته العالية، وأيقن عمر بهلاكه، وأيقنوا هم بهلاكه أيضًا.

وكان المارد كندك قد وصل إلى القلعة إذ ذاك، وانتظر في طبقات الجو، وعرف ما يفعله رجال القلعة به؛ فلما قذفه الدولاب في الجو خطفه وطار به إلى حمزة في جبل قاف، ووضعه بين يديه. وكان عمر قد أيقن بهلاكه فوقع في غشية ثقيلة حين قذفه الدولاب، وما أفاق إلا بين يدي حمزة، وبعد أن سقاه شرابًا وناداه ومسح بيده على جسمه، فلما استيقظ ورأى حمزة ظن أنه في الآخرة، وأن حمزة مات والتقيا فقال له: الحمد لله الذي جمعني وإياك في الدار الآخرة، ولقد كنت أظن، وكان العرب يظنون أنك لا تزال حيا لم تمت، فابتسم حمزة وقال: أفق يا عمر، فإننا لا نزال في الدنيا أحياء، ونحن الآن في جبل قاف، فانتبه وقال: ألست حمزة بن إبراهيم وأخي؟! فقال: بلى! فقال: وكيف جمعنا هذا المكان؟

فحكى له قصته وقصة إحضار القاضي بهلول وإحضاره، وسبب ذلك، فقال عمر: سعدت يا أخي وسعد العرب بك، ثم تم الزفاف وباتوا ليلتهم فرحين، وفي الصباح هناه عمر بزوجته وقال له: أريد أن أرجع إلى العرب لأطمئنهم عليك، وأكشف عنهم حزنهم من أجلي، فقال: أمهلني حتى أكتب إلى العرب بما حصل، ثم كتب إلى كل من الأمراء ومهردكار كتابًا أخبرهم فيه بما وقع له ولعمر أخيه، وأنه قادم إليهم بعد خمسة عشر يومًا؛ ثم أمر كندك أن يحمل القاضي إلى مكة وعمر إلى العرب عند قلعة قطمين، ووصاه ألا يعود إلا بعد أن تفتح القلعة، فأنزل القاضي بمكة، أما عمر فإنه أمره أن ينزله قبل القلعة بمسافة. فأنزله حيث أراد ولبث معه خفيًا لا يظهر.

أيقن العرب أن عمر العيار قد مات، وأنه نزل من الجو في مكان آخر أشلاء ممزقة، فحزنوا عليه حزنًا، أليما وكان أندهوق من أشدهم حزنًا، فكان يخرج إلى الخلاء ليتلهي بالصيد ويروح عن نفسه، وفي المساء يجمع زعماء العرب ويتعاهدون على أن يكونوا يدًا واحدة، وألا تتفرق بهم السبل حتى يرجع الأمير حمزة. وذات يوم أوسع في البر فرآه عمر العيار فناداه وأقبل إليه

وقال: أهلا بأخي أندهوق، أنا أخوك عمر العيار، وقد عدت إليكم سالمًا، وكيف حال العرب؟

وظن أندهوق أن هذا شيطان عمر فقال: ابتعد عني يا هذا، وكفانا ما أصابنا من الحزن لموت عمر العيار أخي حمزة، فضحك عمر وقال: أنا عمر العيار نفسه، وكنت عند أخي حمزة في جبل قاف، وهو يقرئكم السلام ويعدكم أنه قادم إليكم بعد خمسة عشر يومًا، وبعث معي كتبًا للأمراء ومهردكار ومنها كتاب لك، ثم ناوله كتابه، فلما قرأه اطمأن وقال: وكيف نجوت من القتل يا عمر؟ فقال: كان المارد كندك الذي أرسله حمزة أخي ليأخذني إليه - كان ينتظرني في طبقات الجو - فلما قذفني الدولاب خطفني وحملني إلى أخي وبذلك نجوت من القتل، ثم أتم له القصة وقصة أخيه حمزة. وقال: فإذا رأيت أن تسرع إلى القوم على جوادك وتبشرهم بعودتي كان أجمل، فجرى أندهوق عائدًا إلى قومه وصاح فيهم: أبشروا فقد عاد إلينا عمر العيار حيا سليما، فهيا إلى لقائه من هذا الطريق، فتدافعوا إلى الطريق تدافع السيل، ولما رأوه صاحوا فرحين مكبرين شكرًا لله على ما أنعم عليهم بنجاة عمر من كيد الأعداء ومكرهم، ورجعوا به إلى خيامهم وأعطى كل صاحب كتاب كتابه وحكى لهم قصته وقصة أخيه، وبلغهم أنه قادم إليهم بعد خمسة عشر يومًا.

باتوا تلك الليلة فرحين، وفي الصباح أمرهم عمر أن يتأهبوا لدخول القلعة، ومشي أمامهم وبجانبه كندك، فلما كانوا أمام أبوابها مد كندك يده فنزع أبوابها، ودخلها العرب شاهرين أسلحتهم، وعمد عمر إلى حاكمها وقال له: أتظن أن عمر العيار يموت وهو محفوظ برعاية ربه، ثم طعنه بخنجره فألقاه صريعًا ميتًا، وأعمل العرب سيوفهم في رجالها حتى استسلموا وأطاعوا، وملك العرب القلعة واطمأنوا، فطلب كندك أن يعود إلى حمزة، فأعطاه كل أمير كتابًا إليه يبثون فيه أشواقهم، ويخبرونه بما وقع، ويرجون منه العودة إليهم في الموعد الذي ضربه لهم، فأخذ الكتب وطار بها حتى ألقاها في يد حمزة فقرأها، وحمد الله وانتظر الموعد المضروب ليعود إلى قومه.

جاء الموعد وطلب حمزة من أسما بري أن تأمر كندك بحمله إلى قومه، فقالت: لا صبر لي على فراقك وأمهلته مدة أخرى، وكان كلما جاء الموعد أمهلته مدة أخرى حتى طالت غيبته، وابتأس وضاق صدره، ويئس وحار في أمره، فلا يدري ماذا يفعل: وقال لزوجته: الوعد دين واجب الأداء عند الحر الكريم، وقد وعدتني أن تحمليني إلى قومي، وقد مضت مدة طويلة وانتهى موعد بعد موعد، وإن قومي في أشد الحاجة إلى وجودي بينهم فقالت ليست مهركدار بنت كسرى بأولى بك مني، ولا أطيق أن تفارقني. فسكت، وعزم أن يغادر القصر ماشيًا، والله أحق أن يهديه ويرعاه ويرجعه إلى قومه.

وفي الصباح انسل من القصر وغادره وجعل يمشي إلى حيث يهديه الله حتى جاع وعطش، فوقف وقفة العاجز اليائس ودار ببصره فيما حوله فابتسمت له الأرض عن صومعة في لحف جبل، وما كاد يراها حتى انفلت مسرعًا إليها، وطرق بابها، فخرج إليه جماعة من الجن، فسألهم: لمن هذه الصومعة؟ فقالوا: لأميرنا جوكدان فتعال معنا إليه، واسأله عن حاجتك فإنه يقضيها على الفور، فلما دخل سلم عليه وحياه، فأجلسه بجواره ورآه في حاجة إلى الطعام والشراب فأمر بهما، ولما أكل حمزة وشرب قال: إني غريب، وفي حاجة إلى أن ترحمني من غدر القوي وظلمه، فقال: قل ما عندك يا بني، فحكى له قصته من أولها إلى أن جلس أمامه، فقال له: سأوصلك إلى بلدك على فرس كريمة، وعليك أن تحافظ عليها، ولا تهمل شأنها، فشكره حمزة ووعده أن يكون كما أمره. ثم أشار إلى خدمه أن يعطوه الفرس مسرجة ملجمة، فأعطوه إياها.

ودع حمزة جوكدان وركب الفرس فطارت به كأنها الريح، ولما جاء المساء نزل حيث وصل ليبيت إلى الصباح، وجاءه كندك بالطعام والشراب فأكل وشرب ثم نام، والفرس مقيدة في مكان قريب منه، ثم استيقظ في الليل على صهيل يدوي، فوجد فرسًا ضخمًا كأنه الفيل مع فرسه يداعبها، فنهض إلى سيفه وقتله، ثم نام بقية ليلته وهب من نومه في الصباح فلم يجد الفرس،

فأخذ يبحث عنها ويدير بصره في الفضاء لعله يراها فما وجدها، وسمع أسما بري تقول: لا تتعب نفسك بالبحث عن فرسك فقد سرقتها وأنت نائم، واعلم بأنك لن تعود إلى قومك وبلدك من سبيل غير سبيلي، فتعال معي وبعد أسبوع آمر كندك أن يحملك إلى حيث تريد. فقال: لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، وقد كذبت عليّ في الأولى ولن أصدقك في الثانية.

ثم استل سيفه وهجم عليها غاضبًا فقرت من وجهه هاربة، وأخذ سمته في الطريق ماشيًا والهم يملأ صدره، ويلوع فؤاده. وجاءه كندك وهو سائر فقال: إن زوجتك أسما بري وضعت لك بنتًا ومن حقها عليك أن تراها، فهلا أشفقت عليها وبررت بها، فابتسمت في وجهها ومسحت بيد الأبوة على رأسها، فنال هذا القول من نفسه وقال له: أرجعني إلى ابنتي يا كندك، فحمله و رجع به إلى قصر زوجته أسما بري، وحمل على ساعديه ابنته وضمها إلى صدره، وقبلها بين وجنتيها وسماها «قريشة».

ووجد نفسه في اضطرار إلى أن يمكث في القصر معها أيامًا أخر ففرحت زوجته وبالغت في إكرامه وراحته، وبعد مدة طلب منها أن يعود إلى بلده، فقالت: لا عودة لك، وستعيش عندي وعند ابنتك طول حياتك، وأرح نفسك من هذا الطلب مرة أخرى.

فعقد عزمه على أن يغادر القصر ولا يعود إليه، وسار ماشيًا وهو لا يدري إلى أين يسير، ولا كيف يصل إلى دياره ويخرج من هذه الجبال التي أصبحت في نظره كأنها قبره! وفي صبيحة يوم من أيام سيره رأى أسما بري واقفة أمامه، فقال لها: لا أريد منك شيئًا فاتركيني وشأني فإن معي ربي، فقالت: إن الفرس التي سرقتها منك وضعت مهرًا لا نظير له في الدنيا، وهو ينفعك في المعارك ومخاطر القتال، فحن إلى أن يراه حتى إذا أعجبه أخذه وأخذ أمه، ولما وجدته حن إلى رؤيته قالت: وهو الذي ستركبه ويوصلك إلى بلدك، فزاد رغبته في العودة معها، وقال: احمليني إلى القصر لأراه، فرجعت به إلى قصرها، وهناك أرته المهر فأعجب به وأصر على أخذه وقال: سأمكث هنا حتى أروض المهر وأدربه وأربيه كما أرى، فقالت: افعل ما شئت، وقام حمزة على المهر ترويضًا

وتدريبًا حتى كان في كره وفره وقدرته ويقظته وفطنته كما أراد، وعزم على أن يأخذه وأمه ويعود إلى بلاده، وكان قد مضى عليه في جبال قاف سنتان ونصف. وكان قد سمي هذا المهر «غزال الجان».

وذات يوم كانت أسما بري غائبة عن قصرها فركب الفرس ومضى بها وغزال الجان يتبعها ويجري من حولها، ومضى عليه في مسيره هذا عشرون يومًا وكندك يأتيه بالطعام والشراب، واستيقظ في صباح اليوم الحادي والعشرين فوجد الفرس مقتولة فاغتاظ وغضب واستل سيفه وقال: لو رأيت من قتلك لأعدمته حسه، ومزقت جسده بسيفي هذا، فقالت أسما بري: أنا التي قتلتها فلا تحاول أن تعود إلى بلدك، فقال: لعنك الله وسقاك الأمرين، فقد أذقتني العذاب ضعفين، وما أنت بالمرأة الصالحة لأن تكون عضوًا في العمران، لذلك تسيرين على شريعة الأنانية التي تدمر ولا تعمر، وتهلك ولا تنتج، وبعد هذا فقد أحببت الموت واخترته دون الرجوع إلى قصرك، ثم نهض إلى غزال الجان ووضع عليه سرج أمه وألجمه بلجامها وركبه ومضى في سبيله الذي لا يعرف له غاية.

واستيقظ في اليوم الحادي عشر من مسيره هذا فلم يجد غزال الجان، فحزن واضطرب وعلت وجهه سحابة من الألم قائمة، وانعقد لسانه فما تحرك في فمه، لأن حاله ناطقة بهمه، فبدت له أسما بري قائلة: لقد سرقت غزال الجان وأرسلته إلى كنوز سليمان، ولا مطمع لك في رؤيته بعد الآن؛ فإذا رجعت معي إلى قصري أرجعت لك غزال الجان، فأعرض عنها وكره أن ينظر إليها، ومشي قدمًا في طريقه حتى مضى عليه ستة أشهر، ثم لاحت له قلعة في طريقه فقصدها لعله يجد فيها العون والنصير.

ذهب إلى القلعة وطاف بها فلم يجد أحدًا، فوقف أمام بابها الحديدي وضربه بسيفه فانشق الباب فجعل يضربه حتى جعل فيه فتحة كبيرة فدخل منها وجعل يطوف ويدخل غرف القلعة حتى وجد في غرفة منها ماردًا من الجان قد حبس في القيود والأغلال ولا يستطيع أن يبرح مكانه، فسأله حمزة: من أنت؟! ومن فعل بك هذا؟!

فقال المارد: إني مارد من الجان وقد كنت أحببت أسما بري وأردتها زوجة لي فامتنعت، وأردت أن أغصبها لأني أقوى منها وأقدر، ولكنها لجأت إلى الخديعة فأبدت رغبتها في زواجي وجلست إليّ تطارحني أحاديث المحبة، وجعلت تسقيني خمرًا حتى ثملت وذهب وعيي وغاب عقلي. ثم أمرت خدمها أن يحبسوني في هذه القيود والأغلال، وأن يطرحوني في هذه الغرفة، وأقفلت باب القلعة وتركتني.

فقال حمزة: وإن أطلقتك من قيودك وأغلالك فماذا تصنع في أسما بري؟ فقال المارد: أتزوج منها إن كانت لم تتزوج، وأرغمتها على أن تكون لي زوجة. فقال حمزة: إن كانت هذه نيتك فمن الخير أن تبقى في قيودك. فقال المارد: ولم ذلك؟ فقال حمزة: لكيلا تقرب من أسما بري، لأنها أصبحت زوجة لغيرك.

فقال المارد: ومن تزوجها؟

فقال حمزة: فارس عربي من مكة اسمه حمزة، وهو الذي قتل أباها، ثم حكى له قصتها من أولها إلى آخرها.

فقال المارد: لقد قلت لك.. إني أتزوج منها إن وجدتها لم تتزوج من غيري، وإلا فلن أسمح لنفسي بالعدوان والتعدي على غيري، لأني أخاف الله ولا أتعدى حدوده.

فقال حمزة: أتعدني بأنك لا تعتدي عليها إن أطلقتك، وأن تحملني إلى كنوز سليمان.

فأقسم له بالوفاء وأن ينفذ له ما طلب فتقدم إليه وأطلقه من قيوده وأغلاله، ثم حمله المارد وطار به، ثم هوى به عند كنوز سليمان وتركه وطار.

❊❊❊

﴿ ٧ ﴾

وجد حمزة قصورًا شاهقة، نقشت جدرانها وزينت بالنقوش البديعة، وحليت بقطع من الذهب والفضة، فأخذ يطوف ويمشي هنا وهناك وهو في دهشة من هذه الأبنية الفخمة الجميلة، وفي حيرة عظيمة لأنه لم يجد أحدًا، ولم يجد غزال الجان، ولم يعرف مكانه، ولا يدري أين يذهب، فضاق صدره، وانطلق لسانه مستغيثًا بالخضر عليه السلام، وما انتهى من استغاثته حتى وجد الخضر أمامه، فقال له: أبشر يا حمزة فقد قرب موعد رجوعك إلى قومك، وانتهت السنوات الثلاث التي قدر عليك أن تقضيها معذبًا في جبال قاف، ثم قال له: ادخل هذا القصر، وستجد بابًا مقفلًا فادفعه بيدك، فإذا انفتح فادخل وستجد غزال الجان في انتظارك فهاته وارجع إليّ، ففعل حمزة فرجع بمهره فرحًا، ثم أشار الخضر إلى قصر آخر وقال لحمزة: ادخل هذا القصر وأحضر ما فيه من السرج واللجام، فذهب من فوره ورجع بهما وهو مشرق الوجه وضاء الجبين، فأسرج المهر وألجمه، ووقف ينتظر ما يشير به الخضر ويأمره به.

ثم نادى الخضر وقال: يا أسما بري، تعالى إلينا فورًا، فما لبث حمزة أن رآها واقفة بين يديه قائلة: سمعًا وطاعة، فأمرها أن تحضر الحلة الملوكية التي هي من عهد سليمان ليلبسها حمزة، فغابت قليلًا وجاءت بها، وأخذها حمزة فلبسها وكانت مطرزة بالذهب واللؤلؤ، ولن يوجد لها شبيه عند ملوك الدنيا، ثم التفت الخضر إلى أسما بري وقال: كفاك ما فعلت، فأطيعي حمزة واستمعي لأمره ولا تعصيه، واحمليه ومهره إلى السد الفاصل بين الإنس والجن، ثم اتركيه ليذهب هو إلى بلاده على مهره فقالت: سمعًا وطاعة، ثم اختفى الخضر وتركهما.

تقدمت أسما بري إلى حمزة وقبلت يده وسألته العفو والمغفرة عما حصل.

فقال لها: عفوت عنك، وأشكر لك أخذك المهر مني ووضعه في كنوز سليمان، إذ كان ذلك سبب الراحة والهناءة، ثم أمرت أسما بري كندك أن يحمله وجواده إلى السد الفاصل بين الإنس والجن، ففعل وتركه هناك ورجع ووقف حمزة أمام السد حيران لا يدري كيف يجتازه، وفي المساء أسلم نفسه إلى النوم ينتظر الفرج في الصباح.

أشرق الصباح وأشرق معه الأمل فقد وجد الخضر أمامه. فأقبل وسلم عليه، ثم قال الخضر: تقدم يا حمزة وارفع هذا السد بيديك، وامرر من تحته ولا تخف فإن الله معك. فرفعه بيده ومر من تحته هو وجواده غزال الجان، وقال: تلك قدرة الله التي رفعت هذا الجبل فحمدًا له وشكرًا، ثم وضع السد فعاد كما كان، وكان جواده يشرب فانبعث صوت شربه إلى أذن حمزة والتفت فلم يجد ماء أمامه، ثم سمع هاتفًا يقول: شرب جوادك من ماء الحياة ولهذا فقد طال عمره، وعليك أن تسميه من الآن «يقظان».

استمر حمزة سائرًا حتى لاحت له مدينة كبيرة فعرج عليها ليقيم فيها أيامًا عسى أن يعرف شيئًا عن العرب قومه وعن مكانهم الذي نزلوا فيه، أو لا يزالون في طريقهم إليه، وكانت هذه المدينة مدينة النجاشي ملك الحبشة.

كان النجاشي سائرًا في موكبه وقت دخول حمزة مدينته، فلمح جواده «يقظان» وأعجبه، ورغب في شرائه وإن أغلى ثمنه، فأرسل إليه رسولا يفاوضه ويبين له رغبة الملك في شرائه، ولكن الرسول أفزعته إجابته، وكبر في عينيه، وخاف أن يغمد سيفه بين جنبيه، فانفلت معجلا إلى النجاشي وقال له: قد كنت تحدثنا عن فارس عربي اسمه حمزة يمر بالبلاد إلى قومه، وأنه سيغلب الفرس ويملك بلادهم، ويخيل إليّ أن هذا الفارس الذي أرسلتني إليه هو حمزة العرب.

فقال النجاشي: إن كان هذا حمزة فقد سعدنا به، وما نحن إلا أتباعه وجنوده، فقد حدثتنا كتب الأقدمين عنه ووصتنا باتباعه، ولكن كيف أعرف أنه حمزة؟ فقال أحد الجالسين: إن العرب ذوو إباء وشمم وصدق في القول، وصفاء في الضمير، لا يحبون الختل والخديعة، فلو سألناه عن نفسه لأجابنا

صادقًا أمينًا، وأرى أن تدعوه إليك في مكان تتحدث إليه فيه وجواده بيده، لأنه لا يترك جواده إلا في مأمن يطمئن إليه، وهو الغريب لا يعرف أحدا في هذه المدينة. فقال النجاشي: سيروا بنا لنلتقي به في طريقنا كأحد الناس.

التقى به الملك وحاشيته من حوله فقال: مرحبًا بحمزة العرب، فقال: شكرًا لك أولا، ولكن كيف عرفت اسمي وما سألتني عنه ولا عرفك به أحد؟ فقال: حدثتنا الكتب أن فارسًا عربيًا اسمه حمزة بن إبراهيم وقص عليه ما كان يحدث به قومه. فقال: نعم أنا حمزة العرب، وأين قومي الآن؟ وماذا وقع لهم؟ وما فعل كسرى في غيبتي عنهم؟ فقال: نعلم أن كسرى يجمع الجنود من كل ناحية، وأنه سيحارب العرب، وأن العرب قومك ساروا إليه لأنهم يعلمون أن الله سيسوقك إليهم في المكان الذي يلتقون فيه مع الفرس.

خرج العرب للقاء كسرى وكانوا من أجل حمزة في هم لا ينقطع وقلق لا يغيب، لأنهم يخافون أن تكون أسما بري حالت دون عودته، أو رجع ماشيًا وضل السبيل، أو ضربه الجوع والعطش. وكان عمر أخوه يخرج في الصباح كل يوم في الأيام الأخيرة إلى الفلاة وينظر في المرآة التي أخذها من شيوخ الصوفية فيرى فارسًا راكبًا جوادًا وعليه حلة لم ير مثلها ومن تحته سرج مطرز بالذهب، ولكنه لم يعرفه، وكلما نظر في المرآة رآه متخذًا وجهته في المسير نحوهم. ولما دنا منهم عرفه، ومضى يجري للقائه، فلما التقيا فاضت قلوبهما حنانًا وسحت عيونهما دموعًا، واستأذنه عمر أن يسبقه إلى قومه بالبشرى، وأسرع إليهم وكانوا يرتقبون عمر وهو يبحث عن أخيه الفينة بعد الفينة، وأعلن فيهم قدوم حمزة فأفاضوا من معسكرهم يهرعون إليه، واستقبلوه استقبال شعب كريم لرئيس عادل رحيم.

وصل كسرى وضرب خيامه تجاه العرب، وكان في جيش لا يحصى عدده، ويعلمون أن حمزة غائب ولما يعد، فكتب إلى النعمان يقول: لقد ثبت عندي جحودكم للمعروف، وطمعكم في مالي وأهلي وملكي وبلادي، وأريد منكم الآن أن تأتوني طائعين صاغرين ساجدين بين يدي، نادمين

على ما فرط منكم، ومعكم ابنتي مهردكار، وابني فرمز تاج والأموال التي جبيتموها من بلادي وعمالي، وإن لم تفعلوا حصدتكم جنودي حصدًا، واعلموا أن حمزة كان قد أضلكم فاتبعتموه، ومادمتم قد فقدتموه فلا مانع لديّ أن أعفو عنكم، وأردكم إلى مناصبكم إن جئتم إلينا تائبين نادمين.

قرأ النعمان الكتاب على مجلس القوم، وكان حمزة قد أشار عليهم أن يخفوا عن الأعداء نبأ قدومه، فقال النعمان للرسول: قل لكسرى.. إن كان حمزة غائبًا عنا فكلنا أبطال ولنا ماض يعرفه، وغدًا يكون السيف بيننا وبينه.

غر كسرى كثرة جنوده، وزاده غرورًا أن رأى العرب أقل من جنوده عددًا، وظن أنه سيفني جيش العرب ويرد إليه سطوته وأمواله وبنته وابنه، فبدأ القتال وهو في راحة اليقين بالنصر العاجل، ونسى أن الفارس العربي يألف من فرسانه لأنه يحارب للدين والمجد عن عقيدة، وأما فرسانه فإنهم يحاربون من أجله هو وابنه، وشتان بين من تدفعه العقيدة ومن يدفعه هوى من ملك أو حاكم، ولهذا دارت عليهم دائرة السوء، وفوجئوا بحمزة في الميدان، وقتل منهم خلقًا كثيرًا، ففر كسرى وجنده إلى المدائن فزعين. وفاز العرب بنصر عظيم، وغنموا أموالهم وأسلابهم. وأخلدوا إلى الراحة والاستمتاع بطيب المعيشة، وأقيمت الأفراح، وزفت مهردكار إلى حمزة، وعفا عن فرمز تاج ابن كسرى وأكرمه، وقال له: أنت بالخيار فإما بقيت معنا عزيزًا مكرمًا، وإما رجعت إلى أبيك عزيزًا مكرمًا، فشكر له هذا الخلق الجميل، ولعن وزير أبيه بختك لأنه أفسد حزمه وسياسته، وأوقعه في هاوية من البوار والدمار، واختار أن يعود إلى أبيه في المدائن لعله يصلح من شأنه، ويدفع عنه كيد وزيره أو جهله.

وأشار عمر أن يرحلوا إلى مدينة حلب ويعسكروا عندها ثم يذهب العيارون إلى المدائن ليعودوا بأخبار كسرى وما يريد أن يسير عليه؛ أهو لا يزال مصرًا على القتال أم اعتبر واتعظ ورغب في الصلح والمسالمة؟ واستحسنوا هذا الرأي وارتحلوا إلى حلب. وفرح بقدومهم أهلها وحاكمها نصير.

وكان قد ظهر في ميدان القتال غلام أمرد، ومعه كتيبة من جيش اليونان، وهو لا يختلف عن حمزة شكلًا وشجاعة وفتكًا بالأعداء، وأبلى بلاء حسنًا في التنكيل بجيش كسرى. أراد حمزة بعد الحرب أن يراه، فقال لعمر أخيه: أريد أن تبحث لي عن الغلام الأمرد الذي كان يحارب معنا وتأتيني به. فقال عمر: ذلك غلام أعرفه، وكأنه قطعة منك شكلًا وقوة بأس وحملة على الأعداء، وكنت عزمت أن أحدثك عنه، وسآتيك به الآن، ثم انصرف ومشي قليلًا فرآه مقبلًا نحو صوان حمزة فسلم عليه عمر العيار وعرفه بنفسه وقال: كنت قادمًا إليك لأعودك إلى أمير العرب حمزة، لأنه أعجب بقتالك، وإن قلبه ليذوب شوقًا إلى رؤيتك، فقال: خذني إلى أبي حمزة، فأنا عمر وأمي زهربان بنت إسطفانوس اليوناني، فنضر وجه عمر العيار وأسرع به إلى أبيه وقال: لا زلت يا أخي للعرب ينبوع خير ورفعة، فهذا ابنك عمر، وأمه زهربان بنت إسطفانوس، جاءك في جيش ليقضي على أعدائك، وقد رأيت منه في القتال ما قرت به عينك، ولا عجب في ذلك، فإن العصا من العصية ولا تلد الحية إلا الحية.

فصاح الحاضرون: الله أكبر عز ونصر... واهتز حمزة هزة حنان وشوق كان يحسهما داخل نفسه ولا يدري لهما سببًا ونهض قائمًا إلى ابنه فاحتضنه وقبله وأجلسه إلى جانبه، وقال: كيف حال جدك وأمك؟ فقال: بخير وهما معي في الجيش الذي جئنا به لنكون في طاعتك وقد كفلاني وربياني على الفروسية وسنة العلم والمعرفة. وما أخبراني أنني ابنك إلا حين المعركة التي قامت بينك وبين كسرى.

فأخذ حمزة ابنه ومضى إليهما وحياهما وشكر لهما عنايتهما بتربية ابنه، وحرصهما على الوفاء له، واعتذر لزوجته عن بعده عنها فقالت: ما شغلك عني وعن ابنك إلا أداء الواجب نحو قومك. وذلك لا يكون إلا من بطل كريم يؤثر نفع قومه على نفع نفسه. وما زدت في نفوسنا بذلك إلا محبة، فشكرهما الأمير، وأسبغ عليهما نعمه.

وقال عمر بن حمزة لعمه عمر العيار: قد سمعت أن معك شيئًا إذا اكتحلت

به وأردت أن تكون أي إنسان كنته، وأحب أن اكتحل به لأكون أعجميا من رجال كسرى، ولأذهب إلى المدائن وأجول في مناحيها، وأقف على أخبارها وأحوالها، فقال عمر العيار: إن دخلت المدائن وسمعت من الوزير بختك ومن على شاكلته لعنة العرب وشتم أمرائها فإنك ستثور غيرة عليهم، ولا تملك نفسك، وحينئذ يفتضح أمرك، وينكشف احتيالك وتكون مصيبتنا كبيرة بأسرك، أو نزول مكروه بنفسك، فقال: عهد الله بيني وبينك أن أكون صابرًا بليد الحس، وإن سمعت ما أكرهه من صغيرهم وكبيرهم.

فاكتحل عمر العيار، وكحل عمر ابن أخيه، فصارا أعجميين من أتباع كسرى ورجاله، ودخلا المدائن، وجعلا يجوسان خلالها في غير مخافة ولا ضرر.

❊❊❊

﴿ ٨ ﴾

وكان أفلنطوش ابن عم كسرى قد حضر إليه هو وابنته طوربان لمساعدته والقتال معه، فقال عمر بن حمزة لعمه عمر العيار: حدثتني أمي أن طوربان مع أبيها أفلنطوش، وأنها تجيد القتال كأقوى بطل كما أنها صورة لمهردكار بنت كسرى جمالًا وخلقًا، فأين هي الآن؟ فقال عمر العيار: فلتكن حيث كانت فما لنا بها حاجة، فقال عمر بن حمزة: أحب أن أراها، ولن أرجع إلى معسكرنا حتى أراها، فقال عمر العيار: لك عليّ أن أطوف بك في أنحاء المدينة والمعسكر وليس عليّ إيجادها، فقال: ولن أكلفك أكثر من هذا.

طرق عمر العيار بابن أخيه كل مكان، وانتهى إلى آخر المعسكر وهو لا يجد طوربان، ثم اعتلى به أكمة فلاح له صوان منعزل في مكان خفي بعيد عن المعسكر وأمام بابه عبد واقف، وفي الطريق إليه عبد واقف أيضًا، فنزلا إليه، ولما كانا عند العبد الأول قال لهما: ارجعا من حيث أتيتما، فهذا صوان زوبين الغدار، وقد أمرنا ألا يذهب إليه أحد. فضربه عمر العيار في صدره بخنجره فوقع قتيلًا، ورآه العبد الذي بباب الصوان فأخرج منه عبدًا آخر وفرا هاربين، ومضى عمر وابن أخيه إلى الصوان ودخلاه، فوجدا بنتًا كأنها البدر جمالا وحسنًا، فقالت: أغيثاني فإني طوربان بنت أفلنطوش ابن عم كسرى ملككم وسيدكم؛ فقد غدر بي زوبين الغدار، وسرقني وجاء بي إلى هذا الصوان الذي أعده لي في ذلك المعزل البعيد، وسيجيئني الليلة، وربما مسني منه شر، وكانت تتكلم بلغة قومها، وفهم عمر العيار ما قالت وعرفها فقال لابن أخيه: هذه طوربان بنت أفلنطوش، وقص عليه قصتها كما سمعها منها.

فقال عمر بن حمزة: لعن الله زوبين الغدار، وما هو إلا نذل أثيم، ولن أبرح مكاني هذا حتى آخذها معي لأنقذها من ذلك الغاصب الظالم، فأدرك

عمه ما في نفسه وقال: دعها وشأنها! هؤلاء قوم يعبدون النار، وما لنا عليهم من سبيل، فقال: تلك فرصة لإخراجها من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، وإني لألمح في قولها وحالها كراهية لقومها. فقال عمر: لن نأخذها إلا إن أردتها لك زوجة، فقال: ذلك ما أردته، فقال: وكيف تتخذها زوجة وهي تعبد النار من دون الله؟

فقال لها عمر العيار: عرفنا الآن من أنت وما يسعى إليه زوبين الغدار في شأنك، ونريد أن نخلصك ونهرب بك من قومك؛ فما رأيك؟ فقالت: وأين تذهبان بي وأنتما أعجميان من قومي؟ فقال: لسنا من قومك، فأنا عمر العيار، وهذا عمر بن حمزة العرب، وقد رغب في الزواج منك: ولكن العرب لا يتزوجون ممن هن على غير دينهم، ولهذا فإني أعرض عليك أن تؤمني بالله وتتركي عبادة النار، فقالت: في نيتي أن أكون على دينه، وقد خرجت الآن من عبادة النار، وآمنت بالله خالق الليل والنهار، فأقبل إليها وأطلقها من قيودها وانفلتا بها إلى معسكرهما وهي في فرح عظيم، وهناك دخلوا على حمزة، وقصوا عليه القصة، فحقق رغبتهما وزفها إلى ابنه عمر، وكانت مهردكار فرحة بما فعلته طوربان، ثم كتبت إلى أبيها أفلنطوش كتابًا بينت فيه قصتها ثم قالت: وما فعلت ذلك إلا لحماية شرفي وشرفك من زوبين الغدار النذل اللئيم، وقالت لعمر العيار: ابعث هذا الكتاب إلى أبي، فأرسل به عبدًا، فلما قرأه أبوها امتلأ صدره غيظًا من زوبين ولكنه سكت إلى حين. وكان زوبين أشد غيظًا من أبيها لأنه أيقن أنه لن يراها بعد ذلك.

وسرق عمر العيار زوبين الغدار وجاء به إلى حمزة في مجلسه فقال له: أرأيت كيف ساقك الغدر إلى حتفك؟! فقال: عرفت الآن أن الغدر وخيمة عواقبه، فإن قتلتني فذلك ما أستحقه وإن عفوت عني فقد أخرجتني من ظلمات الضلال وعبادة النار، ومن خدمة أناس لا عهد لهم ولا ذمة، ولا شرف ولا كرامة، فقد عرفتهم وأنكروك، ودفعوني في طريقهم حتى أنقذتني منهم، والآن قد بان لي الحق من الباطل، وآمنت بالله القوي القادر، وأشهدكم وأشهد الله على أني أكون لك الخادم الوفي الأمين، فتأثر حمزة من

قوله هذا وقال: قد عفوت عنك، وسميتك عبد الله زوبتن، ففرح زوبين وقال في نفسه: لقد مكنني حمزة من الكيد به وبقومه، وسيرون من غدري ما يقصم الظهر، ويسكن القبر، أما عمر العيار وأصحاب حمزة فلم يكونوا راضين عن هذا العفو، لأن زوبين لا يزال في نفوسهم الخائن الغادر الأثيم.

اتخذ حمزة عبد الله زوبين من رجاله واطمأن إليه. ولكن العرب في مخافة من غدره؛ وفي اليوم الثاني من توبته والعفو عنه قال لحمزة: أحب أن أستشيرك في أمر ينفعنا فقال: هات ما عندك يا عبد الله زوبين، فقال: وددت أن أذهب إلى المدائن لآتيكم بمن آمن بالله واتبعني من رجالي، ولأقنع أفلنطوش ببطلان دينه. وفساد أمره باتباعه كسرى وشد أزره، وأريه أن صلاح أمره في دنياه وآخرته بالإيمان بالله واتقائه وطاعته، وأن حمزة وقومه أولى الناس بالمعونة والطاعة، لما عرفوا به من صحة الدين، وصفاء النفس، وطهارة القلب، والترفع عن الغدر والخيانة.

فقال حمزة: أما رجالك فمن الجائز أن يتبعوك ويجيئوا معك، وأما أفلنطوش فما أظنه تاركًا عبادة النار والانضواء تحت لواء كسرى، فقال زوبين: أظن أنه يترك كل شيء من أجل ابنته طوربان لأنها عنده أحب إليه من نفسه، فقال حمزة: افعل ما شئت يا عبد الله زوبين فإني لا أريد لكم وللناس إلا الخير والإصلاح ما استطعت.

ركب عبد الله زوبين إلى أفلنطوش واجتمع به، فسأله: كيف نجوت بنفسك من أيدي حمزة؟

فقال: دخلت في دين الله، وتبت إليه، وندمت على ما فرط مني، وعاهدت حمزة على أن أكون وفيًا له، أقاتل بين يديه، وأطيعه ولا أعصيه، فعفا عني واتخذني من رجاله، وجئتك الآن لأدعوك إلى الإيمان واتباع حمزة لتنال خيرًا عظيما.

فضحك أفلنطوش وقال: هنيئا لك بدينك الجديد، ورئيسك الجديد، وكيف تطمع أن أومن للعرب أيها الجاهل الحقير؟!

فضحك عبد الله زوبين كما ضحك أفلنطوش وقال: ما قلت لهم إلا ما

خدعتهم به، لأعتق رقبتي من سيوفهم، ولأتمكن من الوقيعة بهم، وأنا بينهم يثقون بي ويأمنون جانبي. وما جئتك الآن إلا لتسلك مسلكي، وتكون معي فيهم ليشد كل منا أزر الآخر في النكاية بهم وهم لا يشعرون، فقال أفلنطوش: إذا كان أمرك هذا فإني معك ولكن بعد أن نطلع كسرى على شأننا هذا حتى لا يظن أننا نريد شرًا له.

فقال: ذلك خير لنا وأحزم.

وذهبا إلى كسرى وحدثاه في شأنهما هذا سرا، ووصياه أن يكتم أمرهما هذا عن الوزراء وغيرهم، فقال لهما: أمضيا إلى شأنكما وأعانتكما النار على ما أنتما فاعلان.

دخل عبد الله زوبين ومعه صاحبه على حمزة وقال: هذا أفلنطوش قد بذلت الجهد في إقناعه بالإيمان، وبينت له حلمك الواسع، وعفوك الشامل، وعدلك القويم، وخلقك الكريم، وما يناله في ظلك من الهناءة والرفعة.

وقال أفلنطوش: إن الإنسان منا فطر على الخير كما فطر على الشر، ولكنه في حاجة إلى من يهديه ويأخذ بيده، وكان عبد الله زوبين بما قاله لي نورًا وهدى عرفت به الحق من الباطل، وأيقنت أني كنت ضلال من أمري، وأحمد الله أن هداني للإيمان به، وأن أكون من رجالك الأوفياء المخلصين، فقال حمزة: اجلسا آمنين وعفا الله عما سلف.

فجلسا، وقال أفلنطوش: حقا إنك من أكرم الناس وأكثرهم إنصافًا وحلمًا، ومن كانت هذه صفاته كان جديرًا أن يطاع ويتبع وقد كنت حزينًا لزواج ابنك من ابنتي، ولكني الآن أيقنت أنها سعيدة به، فرضيت عنه.

ولدت مهردكار غلامًا جميلا، ووكل حمزة إلى أمه أن تسميه قسمته «قباط» وهو اسم أخ لها مات. كما ولدت طوربان غلامًا جميلًا مثله وسماه جده (سعدًا) وفرح العرب بهما فرحًا عظيما، وشاركهم أفلنطوش وعبد الله زوبين في أفراحهم، ولكن في صدورهما غلا وحقدًا وغيظًا وما خفي أمرهما هذا عن العرب، فأخذوا منهما حذرهم، لما يتوقعونه من الغدر والشر على أيديهما. وصدق العرب فيما ظنوه بهما، فإنهما اتفقا على أن يسرقا مهردكار

وطوربان ومن تصل إليهما أيديهما من النساء، لأنهما وجدا الرجال في أشد يقظة وأعظم حذر.

وخرج الأمير حمزة للصيد ذات يوم، وأمعن في البرية فانقضت عليه أسما بري من الجو قائلة: السلام عليك أيها الأمير، فقال: وعليك السلام. لعل خيرًا جاء بك الآن! فقالت: نسيتني وما جئت إلا لك، وقد برح بي الشوق إليك، وأود أن تعاملني معاملة زوجاتك فيكون نصيبي مثل نصيب إحداهن. فقال: لا مانع لدي من أن أذهب معك، ولكن بعد أن أطمئن على رجالي في حلب، فلم تجبه بكلمة، واختطفته من ظهر جواده وطارت به إلى قصرها في جبال قاف، فلما جلس واطمأن قال لها: وماذا عليك لو ذهبت معي إلى رجالي ليطمئن قلبي؟ فقالت: إن وراءك رجالًا كأنهم الجبال الراسيات فلا خوف عليهم، وأريد منك المساواة والعدالة، وسأحملك إلى رجالك إذا رغبت، فسكت صابرًا متألـمًا.

لم يعد الأمير إلى قومه فأرسلوا عمر العيار إلى حيث ذهب للصيد فانفلت مسرعًا، وما زال يجري حتى عثر على جواد أخيه اليقظان، ورمحه معلق في سرجه، فاندهش و بهت وجعل يبحث عن أخيه هنا وهناك فما وجده، فارتد سريعًا إلى القوم وأخبرهم، فهاجهم الخوف على الأمير واضطربوا، وانتشر نبأ فقده، وفرح له أفلنطوش وعبد الله زوبين.

تحركت عقارب الغدر والأذى في نفسي أفلنطوش وزوبين، واتفقا على أن يبدأ الغدر حين يغادر عمر العيار القوم للبحث عن أخيه حمزة، واجتمع العرب لينظروا فيما يفعلون، فقال عمر: أغلب الظن عندي أن زوجته أسما بري خطفته، ومضت به إلى قصرها في جبل قاف، وأرى أن أسير إلى بزرجمهر وأسأله عن غياب أخي حمزة، فقالوا: اذهب، وعد إلينا سريعًا.

وأخذ عمر سمته إلى المدائن، وهناك لقي الوزير بزرجمهر فقال له: إن حمزة حي لم يمت، وهو الآن في جبل قاف، وسيعود عن طريق قماصيا فشكره وعاد مسرعًا.

وفي أثناء غيبته أمر أفلنطوش وزوبين رجالهما أن يهجموا على العرب

ليلا وهم نيام فانتظروا حتى غرقوا في نومهم وهم آمنون، ثم حملوا عليهم بسيوفهم؛ فهب العرب من نومهم على ضرب السيوف وصياح الأعداء هنا وهناك. فما وجدوا لهم سبيلا إلا الهرب والالتجاء إلى فسيح الفضاء، وكان عمر اليوناني قد ركب جواده ولكنه فوجئ بضربة من سيف جرحته وأفقدته وعيه، فجفل جواده وطار به في الفضاء، أما الأعداء فقد أخذوا مهركدار وطوربان وابنيهما وغيرهما من النساء والأموال، وفروا إلى المدائن خشية أن يجتمع العرب بعد التفرق فيغلبوهم على أمرهم، ويستردوا أموالهم ونساءهم من أيديهم بعد أن يمزقوهم.

ورجع عمر العيار فوجد العرب يجتمعون عن تفرق، وعرف منهم ما جرى عليهم من زوبين وأفلنطوش فقال لهم: إني راجع إلى بزرجمهر لأعرف منه أين نساؤنا، وماذا هم فاعلون بهن،، وأسأله عن عمر اليوناني الذي فقدتموه ولا تعرفون له مكانًا ولا مصيرًا، وسأعود إليكم سريعًا، فقالوا: اذهب في حفظ الله ورعايته.

وطار عمر إلى المدائن، واجتمع بالوزير بزرجمهر، وسأله عن النساء وعمر ابن حمزة فقال: أما النساء فقد أمر كسرى أن يحفظن في قصر خاص حتى يأتي هدهد الموبذان في عيد النيروز ويلقي بهن في النار جزاء إيمانهن وتركهن عبادة النار. وأما عمر بن حمزة فهو الآن تائه شريد ولم يأسره العجم، فقال عمر العيار: ومتى يكون عيد النيروز؟ فقال: بعد ستة أشهر، فقال عمر: وحياتك لأنقذن السبايا بعد أيام قليلة، ولأفعلن في كسرى وبختك ما يرغمهما على تقبيل ما تحت قدمي من التراب. فقال بزرجمهر: تكون قد خلدت لك ذكرًا لا ينسى، فاذهب واعتمد على ربك فإنه نعم المولى ونعم النصير.

ورجع عمر إلى قومه وطمأنهم، ووعدهم أن يعيد إليهم نساءهم، ولكن ذلك بعد أن يذهب إلى قماصيا ليعرف أمر أخيه، وأصر معقل البهلوان أن يصحبه إلى قماصيا فأخذه وسار.

أما حمزة فقد جعلت أسما بري تراوغه وتمهله أسبوعًا بعد آخر حتى ضاق صدره وثقل همه، فجاءته ابنته ذات يوم، وكانت أمها غائبة وقالت:

مرني بما تريد يا أبي لأدفع عنك هذا الهم الثقيل، فقال: أريد أن أعود إلى قومي، فإني في خوف شديد عليهم من أعدائهم فقالت: فرج عن نفسك فإني سأوصلك، ثم حملته وطارت ونزلت به عند أول أرض يسكنها الإنس وقالت له: إن موطنك الذي تريده قريب إليك من هذا الطريق فسر إليه وإني راجعة إلى والدتي. ثم قبلت يده ورجعت.

وعادت أمها فلم تجد حمزة فسألت ابنتها فقالت: حملته إلى بلده، فقالت: وكيف تفعلين ذلك دون إذن مني؟!! فقالت: إن وراءه واجبًا لقومه، وهو حريص على أدائه، ولا أفهم معني لإصرارك على بقائه.

فقالت: سأعيده إلى القصر ثانية، فقالت قريشة ابنتها: اعلمي أني سأرجعه إلى بلده كلما جئت به، وإن بلغ هذا ألف مرة. فسكتت صابرة ولم ترد أن تعاند ابنتها قريشة.

سار حمزة حتى وصل إلى بحر ملح وما وجد إنسانًا في طريقه وجعل يمشي على شاطئ البحر إلى أن رأى خميلة ذات أشجار كثيرة، فدخلها ووجد رجلًا جالسًا وقد أسند ظهره إلى جذع شجرة من أشجارها، وأدام النظر إلى ورقة في يده وهو غارق في تأمله وتفكيره، فوقف حمزة من خلفه، وما شعر بقدومه، ونظر إلى الورقة فوجد صورة فتاة رائعة الجمال وعلى رأسها إكليل من الزهر، وفي عنقها عقد من الجوهر، وحانت من الرجل التفاتة إلى الخلف فرأى حمزة واقفًا ينظر إلى صورة الفتاة التي بيده ففزع منه، وسأله في صوت يهتز من الخوف: من أنت؟ فقال: رجل عابر سبيل رأيتك جالسًا فعرجت عليك، وحبسني عن السلام والكلام تلك الصورة التي لا أدري: أهي صورة فتاة تنعم بالوجود، أم هي صورة من وحي خيال المصور؟

فقال: إنها صورة لوعة القلوب بنت ملك قماصيا فقال: وكيف حصلت عليها؟ فقال: أخذتها من بعض الدروايش، ولما قرأت اسمها الذي كتب تحتها تركت ملكي وسعيت في طلبها ولكن الفلك التي أقلتني غرقت في البحر بمن فيها، وشاء الله أن أنجو من الغرق، فمشيت حتى جلست تحت هذه الشجرة، فقال: وهل أنت ملك؟ فقال: نعم، واسمي شرشوح،

ومدينتي منابع الجوهر، وقد رأيت في الصورة شيئًا لم أقف على سره، فقال: وما هو؟

فقال شرشوح: كتبت في زواياها الأربع أربعة حروف، في كل زاوية حرف منها وهي: الحاء، والميم، والزاي، والتاء المربوطة. فنظر فيها ووجدها كما قال الملك شرشوح، فقال في نفسه: ذلك اسمي، ولا بد أن الفتاة تعنيه وتقصده، فعزم على أن يراها ولكنه أخفى عزمه في نفسه، وقال: هلم لنمشي في مناكب هذه الأرض لعلنا نجد الفرج فما لجلوسنا من فائدة.

ومشيا يتحدثان في لوعة القلوب وأبيها، وإذا رجل يجري نحوهما خائفًا مبهور النفس من التعب، فأقبل إلى الأمير مستجيرًا به مستغيثًا، فسأله عمن أخافه فلم يجبه بكلمة، ورأى حمزة عفريتًا من الجان قد أقبل بسيفه وهم أن يقتل به الرجل الخائف المستجير، فأخرج حمزة سيفه من غمده وشهره، فتأخر العفريت خائفًا من السيف وسأله حمزة: لم تقتل هذا الرجل؟ فقال: كان سائرًا فداس على ابني وقتله، فقال: وهل كان يراه أو كان ابنك خفيًا غير ظاهر؟ قال: كان خفيًا غير ظاهر، فغضب حمزة وبقر بسيفه بطنه فخر ميتًا، فابتهج الرجل وسقط على رجله يقبلها شكرًا: وعجب شرشوح من شجاعة حمزة وجرأته، ثم سأل حمزة الرجل عن أمره فقال: أنا شمروخ، فقال حمزة: الحمد لله. شرشوح وشمروخ!!! أكرم بهما من رفيقين!!

ومضوا في طريقهم حتى كانوا عند مصب نهر عذب يصب في البحر الملح، فوجدوا مركبًا فيه جماعة يأخذون ماء لهم من ذلك النهر، فسألهم حمزة عن حالهم فقالوا: نحن تجار وذاهبون إلى مدينة منابع الجوهر، فقال: ألا تتكرمون علينا بأخذنا معكم إلى هذه المدينة وجزاؤكم عند الله، فقالوا: على العين والرأس، تفضلوا، فركبوا فرحين شاكرين.

رسا المركب على مرفأ المدينة، وخرج التجار إلى الجباة المكلفين بأخذ الضرائب عن البضائع الواردة، وسألوهم عن قيمة الضرائب التي يطلبونها عن بضاعتهم، فأرسلوا واحدًا منهم، ورأى البضاعة ثم رجع وقال: الضريبة كذا، وطلب قيمة تزيد عن ثمن البضاعة. فقال النجار: إذا كنتم تأخذون منا

أكثر من ثمن البضاعة. فكيف نبيعها للناس؟ وكيف تربح لنأكل ونعيش؟

فقالوا: لا بد من ذلك، وأحس حمزة أن حوارا يجري بين الجباة والتجار، فنزل من المركب ومضى إليهم وسأل الجباة: هل تجمعون الضرائب على هذه الحال من زمن بعيد؟ فقالوا: هذه أوامر جديدة ونحن لها كارهون، ولكننا مرغمون على تنفيذها، فقال حمزة: وكيف كان ذلك؟ فقالوا: كان لنا ملك اسمه شرشوح وكان عادلًا رحيما لا يجمع ضرائب على البضائع الواردة، وكان الناس يحبونه، ولكنه سافر منذ أيام، وأناب عنه رجلًا ظالمًا غاشما لا يعرف عدلًا ولا رحمة، سامنا الخسف وأذاقنا المر، ونحن ننفذ أوامره خوفًا من شره. ونطلب الله كل حين أن يرد إلينا ملكنا العادل الرحيم شرشوح فقال لهم: أمهلوني قليلًا، ثم رجع إلى المركب فوجد شرشوح منكبا على الصورة غارقًا في النظر إليها، فخطفها من يده ومزقها ورماها في البحر وقال له: دع عنك هذا العبث، وقم إلى مدينتك وأنقذها من ذلك الظالم الذي خرب البلاد ونهب العباد، ثم أخذه من يده وذهب به إلى الجباة وقال: هذا ملككم شرشوح.

فانكبوا على يديه تقبيلا وفرحوا به، ثم أعفى التجار من الضرائب وساروا إلى المدينة، فما كاد أهلها يرونه حتى فرحوا، وانتشر خبره في المدينة فهاجت فرحًا وماجت راقصة لاعبة مرحة، ودخل حمزة على حاكمها وهو في مجلسه من أعيان المدينة فقال له: أنت رجل ظالم جبار خربت البلاد، وأهلكت العباد، ولاجزاء لك إلا القتل. ثم ضربه بسيفه فشقه نصفين، ففرح الجالسون وقاموا إليه شاكرين، وسألوه عن نفسه فقال: أنا حمزة العرب. وكانوا يعرفون عنه أخبارًا كثيرة، فزاد فرحهم به وأضافوه سبعة أيام كان فيها الضيف العزيز المحبوب. ثم طلب أن يذهب إلى قماصيا، فأحضر الملك له مركبًا ووصى أصحابه أن يسيروا به إلى قماصيًا، وأن يقوموا بخدمة الأمير حتى يصل إلى المدينة، فوصل إليها في جو هادئ لطيف.

رسا المركب ونزل حمزة وشمروخ معه، ومشيا حتى كانا على أبواب المدينة بعد الغروب، وكانت مقفلة، فطرقها حمزة فقال الحارس: لا تفتح

أبواب المدينة إلا في النهار فاذهب إلى شأنك، ثم ارجع في الصباح فقال لشمروخ: سر بنا فعسى أن نجد كهفًا نبيت فيه إلى الصباح، وسارا في الخلاء نصف ساعة، فوجد الأمير أمامه قصرًا منيرًا، فدلف إليه فوجد أبوابه مقفلة، وكانت أمامه مصطبة أعدت للجلوس والراحة فقال لشمروخ: لنجلس على هذه المصطبة حتى نسأل عن سكان هذا القصر، ونسألهم المبيت فيه هذه الليلة، وبعد أن جلسا قليلًا جاءهما ثلاثة من الخدم بمائدة حوت الشهي من ألوان الطعام.

فسألهم حمزة: لمن هذه المائدة؟ فقالوا: لكما، فقال: ومن بعثها إلينا من غير أن نسأله فيها؟ فقالوا: هذا قصر لوعة القلوب بنت ملك قماصيا وقد أعدت هذه المصطبة لجلوس المسافرين الذين لا يفتأون يمرون بهذا المكان، ويبيتون إلى الصباح ليدخلوا المدينة بعد أن تفتح أبوابها واعتادت سيدتنا لوعة القلوب أن تبعث إليهم بالطعام، ففرح الأمير وقال: وصلنا إلى الغاية من أقرب طريق. ثم قال: هل تقبل سيدتكم أن نبيت في قصرها بقية ليلتنا على أن نرحل في الصباح إلى المدينة، فقالوا: هذا القصر لا يدخله أحد، وفيه سيدتنا وخادمتها الخاصة بالطبقة العليا من القصر، ونحن في طبقته الدنيا نقوم بخدمتها.

فقال: بلغوا سيدتكم أن الذي استضافها الليلة حمزة البهلوان بن إبراهيم أمير مكة، وطلب إلينا أن يدخل القصر ليبيت فيه الليلة، فانتبه الخدم واضطربوا إلى لأنهم كانوا يسمعون كثيرًا عن حروبه ومواقف بطولته، وذهبوا سراعًا إلى الخادمة الخاصة وقالوا لها: إن الذي استضافنا الليلة يطلب منها أن يبيت في القصر، ويقول: إن اسمه حمزة بن إبراهيم أمير مكة، وكانت لوعة القلوب قد سمعت بعض الكلام فسألت خادمتها عما يقوله الخدم فقالت: قالوا ما حير الفكر وأدهش الفؤاد، قالوا: إن الذي استضافنا الليلة حمزة بن إبراهيم أمير مكة، وهو يطلب أن يبيت في قصرك هذه الليلة!! وذلك ما أدهشنا ولا نكاد نصدقه، فقالت: وهل تدهشين أن يزور لوعة القلوب سيد العرب، وقد سألت الله ذلك ألف مرة، بلغي الخدم أن

يحضروه إلينا، ومتى رأيته عرفته. وفي الحال أحضروه إليها وتركوا شمروخ على المصطبة، فلما رأته عرفته وسلمت عليه وقالت: شرفت فتاة تتمنى أن تلقاك، فقد سمعت عن صفاتك الإنسانية الكاملة فأحببتك ورغبت أن أكون من زوجاتك. وقد وزعت صورًا كثيرة لي على الدراويش طامعة أن تقع إحداها في يدك فتطلبني في مدينتي، فهل عرفتني من ذلك الطريق؟

فحكى لها قصته، وقال: غدًا سأذهب إلى أبيك وأخطبك منه لنفسي، فإذا تم الزواج رجعت إلى بلادي لأقف على أحوال قومي مع كسرى وقومه، فقالت ذلك ما أرغب فيه، فافعل ما شئت فإني لك الزوجة المطيعة. ثم قال: ولم تقفلون المدينة في الغروب؟ فقالت: أصبنا بأسد عظيم يدخل المدينة، ويفترس منها اثنين أو ثلاثة كل ليلة. وقد حاولنا قتله فما استطعنا، فاتفقنا على أن نقفل أبواب المدينة من الغروب وتفتح في الصباح لنتقي شره. فقال لها: إن معي رجلا اسمه شمروخ وهو لا يزال على المصطبة، ففزعت وقالت: أخشى أن يكون الأسد قد افترسه، فقد شعرت به يمشي حول القصر، ولم أرد أن أخبرك به حتى لا أزعجك، ثم أطلت من النافذة وأطل معها فوجدا الأسد يأكل في لحم شمروح، فعجب حمزة وقال: آمنت بالله العلي العظيم، نجيتك من الجان ليأكلك الأسد!! سبحانك ربي! ما أعظم حكمتك! ثم استل سيفه ونزل مسرعًا، وهي تنادي وتصيح: ارجع يا حمزة، فإن حياتك عزيزة، ارجع يا حمزة... فما حفل بهذا النداء، وفتح الباب ومضى ثابتًا نحوه، فاستقبله الأسد ساخرًا منه، وهاجمًا عليه يبغى افتراسه، فابتدره حمزة بضربة من سيفه شقته نصفين، ثم مسح سيفه بجسم الأسد ورجع إلى لوعة القلوب، فاستقبلته،فرحة، وأثنت على شجاعته.

وفي الصباح ودعها في قصرها، وأمر أن يدفن الباقي من جسم شمروخ وهو حزين عليه، ولما كان أمام باب المدينة سأله البواب: أين كنت هذه الليلة؟! فقال: كنت نائمًا تجاه المدينة في الخلاء، فقال: وكيف نجوت من الأسد؟! فقال: جاءني وقتلته، وقد تركته مقتولا، فاذهبوا إليه وانظروه، وسمعهما جماعة من أهل المدينة وهما يتحادثان فانطلقوا إلي داخل المدينة

الأسد يأكل في لحم شمروخ

وصاحوا فيها: قتل الأسد...! قتل الأسد...! تعالوا وانظروه مقتولا...! فأسرعوا إليه ورأوه، وعجبوا من هذا الرجل. كيف يقدر وحده أن يقتل أسدًا أعيا أهل المدينة وأعجزهم، وبلغ الخبر حاكم قماصيا فقال: على بالرجل الذي قتل الأسد، فأحضروه بين يديه، فقال: أأنت الذي قتلت الأسد؟! فقال: نعم، وقتلت قبله أسودًا، وسأقتل أسودًا غيره إن ساقتها منيتها إلى سيفي هذا، فقال: ومن أنت؟! ومن أي البلاد؟! فقال: أنا عبد الله، ومن بلاد الله؛ وجئتك لأصل بيني وبينك بالمعرفة والمودة، ثم سأله: هل لك من عدو غاظك أو أساء إليك، أو حاكم عصاك وتمرد عليك؟! فقال: عصاني أتباعي من الحكام وامتنعوا عن دفع الجزية سبع سنوات.

فقال: اختر لي مائة من فرسانك، فاختارهم وانطلق بهم حمزة إلى العصاة من الحكام فردهم إلى طاعة ملك قماصيا صاغرين، ثم سأله: هل لك بعد هذا ما يقلقك ويكدر صفاء عيشك؟ فقال شكرًا لك، ولكن لي أمنية أرجو أن تجيبني إليها فقال: قل ما بدا لك، فقال: أن تقيم عندي وتكون شريكي في ملكي، لك الأمر وعليّ الطاعة، فقال: إني لا أستطيع البقاء غريبًا وأحب أن أعود إلى بلادي. وكان ملك قماصيا قد جمع مجلسه، وعرض عليهم أمر بقاء عبد الله فأشاروا عليه أن يزوجه ابنته، وبذلك يرضى بالمقام وعدم الرحيل، فقال له ملك قماصيا: إني أحببتك وعرفت قدرك وأحب أن أزوجك ابنتي لوعة القلوب، فقال حمزة: لا بأس من ذلك، ولكن اعرض على ابنتك أمر هذا الزواج فقد لا ترضى، فأحضرها أبوها في الحال وجعل يقول لها: إن هذا الرجل فعل لنا كيت وكيت حتى أَمِنَّا في ديارنا، وسادت سطوتنا البلاد، وقد رأيت أن نجزيه بمعروفه واخترته لك زوجًا، فما رأيك؟ فقالت أنا أحب الناس إلى أبي، فهو الذي يختار لي ما يشاء، ففرح أبوها وأبرم عقد الزواج في حفل عظيم، وأراد الله أن يكون له منها ولد اسمه سعد الطوقي.

وصل عمر العيار ومعقل البهلوان إلى قماصيا ليلًا، ولما كانا أمام قصر لوعة القلوب قالا: نبيت على هذه المصطبة، وفي الصباح ندخل المدينة ونبحث عن حمزة، وكان نائمًا في القصر مع زوجته لوعة القلوب، وبعد أن

جلسا قليلًا جاءهما الخدم بمائدة من الطعام وقالوا: هذا قصر لوعة القلوب بنت ملك قيصريا، وقد اعتادت أن تطعم من ينزل عندها ويبيت على هذه المصطبة؛ فشكرا لها معروفها وأكلا وناما، وكان عمر قد عزم على أن يقوم بالليل ليعرف لوعة القلوب ومن في قصرها، فلما علا غطيط صاحبه نهض وتركه إلى القصر، وجعل يطوف به حتى وجد منفذًا فدخل منه وسقط في دهليز القصر، فأخذ يجوس خلاله حتى كان أمام الغرفة التي فيها حمزة ولوعة القلوب، فنظر إليه من ثقب في الباب وعرفه، وسمعه يقول: إن متاع الدنيا لا ينسيني قومي، وإني لا أزال قلقًا عليهم ولا أدري ما جرى لهم في غيبتي، وأحب أن ترجعي معي إلى قومي لتكوني في بيتي، فقالت: إنهم في خير وسلامة، وعندهم عمر العيار يحميهم من كل مكروه، فقد حدثتني عنه أنه صاحب الفضل وله تدبير حكيم، وأن العرب من دونه لا يصلح لهم أمر، ولا يغني عنه بأسهم وشجاعتهم شيئًا، فقال: لو أيقنت أن عمر أخي لا يزال فيهم لاسترحت، ولكني أعتقد أنه لن يسكت عن البحث عني، فهو مضطر إلى أن يتركهم وما خوفي على قومي إلا بعد أن يتركهم عمر أخي. ولا تستبعدي على عمر أن يأتيني في مكاني هذا وأنتم لا تشعرون.

ودخل عليهم عمر بغتة إذ ذاك وقال: السلام عليك يا أخي حمزة، أنت جالس هنا، وأنا لا أنام الليل ولا يهدأ بي مضجع، وأبحث عنك ليلًا ونهارًا؟!! فاندهش الأمير وزوجته، ونهض إليه وسلم عليه وقال: لقد كنت على لساني الساعة، وإن كنت لا تفارق فؤادي أبدًا؛ ولقد أراد الله لي أن آتي هذه المدينة وأتزوج من لوعة القلوب بنت ملكها، فقال هنيئًا لك! وما أراد الله لك إلا كل خير.

وكان عمر قد أحب خادمة الأميرة، وظهر هذا في وجهه وعينيه وعرفه كل من الأمير وزوجته، فالتفت الأمير إليها لفتة فهمت معناها وأجابته بلغة فهم أنها عرفت ما يريد، ثم قالت لعمر إني أحببت أن أزوجك خادمتي فانوس فما رأيك؟ فقال: حسنًا أردت ولا مانع لدي، ثم التفت إلى عمر وقال: أعجبني من الخادمة أدب حديثها، وأرى فيها ذكاء وحزمًا، فقال

عمر: ولكنها لوثت هذا كله بكفرها، وما قيمة الفتاة إن كانت كل شيء في الدنيا ولكنها لا تعرف الله الذي خلقها، وإذا كانت لا تعرف ربها فهل تعرف عشيرتها إن قدر لها عشير؟ فقال حمزة: وهل تنتظر من خادمة مثلها أن تتزوج إلا من خادم مثلها؟ فقال عمر: إن الخلق الكريم يسمو بالفتاة إلى أن تكون صالحة لعشرة الملوك، ولولا كفرها لرغبت في الزواج منها، فقال: وما رأيك إن آمنت بالله وعبدته؟ فقال: أراها خير زوجة، فقال حمزة: سأمهد لك ذلك، ثم التفت عمر إلى زوجته وفهمت ما يريد، فقامت كأنها تقضي حاجة لها وخلت إلى الخادمة وقالت: إني أحب لك الخير كما أخلصت في خدمتي، وإن عمر رجل عربي كريم له في قومه منزلته العليا، وأحب أن تكوني له زوجة، ولكنه لا يريدك إلا مؤمنة بربك، فقالت: وهل أترك دين آبائي ياسيدتي؟! فقالت: كفاك من الزواج أنه أخرجك من دين باطل إلى دين حق، وقد آمنت بالله من قبلك، وجعلت تبين لها صحة الإيمان حتى رضيت وعرفت أنه الحق فقالت: افعلى ما شئت يا سيدني فإني لا أخالفك، وتزوجت الخادمة، وأراد الله أن يكون منها ولد لونه أحمر اسمه «ذئب».

استيقظ معقل البهلوان في الصباح فلم يجد عمر العيار بجواره، وفتش عنه هنا وهناك فما عثر عليه، فرجع إلى القصر وأمسك سيفه بيده، وطرق الباب قائلًا: يأهل القصر. فأجابه أحد الخدم: من الطارق؟ فقال: لي رفيق كان معي بالأمس فهل هو عندكم؟ وسمعه الأمير حمزة وعرفه من صوته فأطل من النافذة وقال: مرحبًا بالأمير معقل البهلوان، ثم أذن له بالدخول واستقبله فرحًا به وأجلسه. ثم حكي له الأمير حمزة عن كل شيء جرى له ولأخيه عمر، وعرض عليه أن يدخلوا المدينة ليشاهدوا مبانيها وأحوالها.

دخلو المدينة وجالوا في أنحائها، ثم دخلوا دار الحكم فوجدوا خيلًا رومية سرجها مزركشة بالذهب والفضة، فقال حمزة: لا بد أن يكون في الديوان قوم غرباء. فقصدوه ووقفوا ببابه، فرأى حمزة رجلًا يبدو شكله وملابسه أمارات العظمة جالسًا بجوار حاكم قماصيا، وهو يوبخه ويعنفه، والحاكم مطرق واجم لا يحرك لسانًا ولا يرفع طرفًا. فلعب الغضب برأس

حمزة ودخل قائلا: لم هذا التعنيف؟ وماذا تريد؟ فقال: إن سيدي «عج» ملك الصقالية بعثني إلى هذا الحاكم الخائن في أمر هام، وهو ينذره الخراب والبوار ثم أخذ يقول: خطب سيدي لوعة القلوب بنته لنفسه، فأبى معتذرًا بأنها لا ترغب في الزواج، فقال سيدي: ما دامت هذه رغبتها فليس لأحد أن يكرهها على شيء لا ترغب فيه، ولكني إن وجدتها تزوجت من غيري كانت في قولها خادعة كاذبة، وحينئذ يحق لي أن أدمر ملك أبيها وأسبيها ولهذا أقام الجواسيس والعيون من حولها، ولما بلغه أنها تزوجت وزفت إلى حمزة أرسلني إلى أبيها ليسلم لوعة القلوب إليه، وإلا أهلكه وسباها غصبًا.

فارت حمية حمزة وضربه بسيفه ضربة أردته قتيلًا، ثم دعا رجاله الذين كانوا معه وقال لهم: احملوا صاحبكم هذا، وارموه بين يدي ملككم وقولوا له: إن الذي قتله حمزة بن إبراهيم أمير مكة الذي دوخ كسرى وجنده، وإنه إن حدثته نفسه أن يأتي إلينا قتلته كما قتلت وزيره. فرجعوا وأخبروه.

ولما عرف الحاكم وجماعته من أهل المدينة – وكانوا لا يزالون يعرفونه أنه عبد الله من بلاد الله – أنه حمزة العرب صاحوا مهللين فرحين وقالوا: كتبت لنا السيادة وخاف سطوتنا القريب والبعيد والقوي والضعيف. بفضل فارس العرب وأمير الحجاز حمزة البهلوان، ثم أمر الحاكم أن يجمع له جنده ليقضي بهم على أعدائه إذا غرهم الطمع وجاءوا لقتاله.

وجاءه عج ملك الصقالية بجيوشه فلقيهم حمزة وقتل ملكهم وشرد جمعهم، فارتدوا إلى ديارهم خائبين ولما رجع إلى القصر وجد بابه مفتوحًا فدخله ووجد الخدم مقتولين فثارت وساوسه، ودار في القصر باحثًا، فلم يجد لوعة القلوب وخادمتها فانوس. فقال عمر أخوه: لا ينبغي القعود، ولا بد من الإسراع والبحث عنهما في البحر، فإني أخشى أن يكون رجال الملك عج قد جاءوا ونحن في القتال فسرقوهما وأقلعت بهما سفينتهم.

فركبوا في فلك وطاروا به في البحر حتى وصلوا إلى مركب قبضوا شراعه ووقف في البحر فنزلوا فيه وأخذوا يفتشون عنهما فلم يعثروا على أثر لهما، وسألوا من فيه عن لوعة القلوب وخادمتها فأجابهم رجل يعرف الفارسية:

إن رجال الملك عج جاءوا بامرأتين وأركبوهما هذا المركب وساروا بهما إلى مكاننا هذا، ثم نزلت فتاة من الجن واختطفت المرأتين وطارت بهما في الجو، فطووا الشراع ووقفوا بمركبهم هذا حائرين، فسأله ومن الذي جاء بهما من قصرهما؟ فدله عليهم، وهجم عمر عليهم ورماهم في البحر، ثم رجعوا إلى مركبهم وارتدوا به إلى المدينة والحزن يملأ صدورهم، وقال حمزة لأخيه: قد كنت عزمت على العودة إلى حلب هذه الأيام ولكني أصبحت مضطرًا إلى تأخير العودة حتى أعثر على لوعة القلوب وفانوس خادمتها.

فقال عمر: لقد تقاذفتنا المصائب، وتخاطفتنا المساعي لكشفها عنا، فقال حمزة: وهل عندك شيء يستوجب سعيًا منا غير ما نحن فيه الساعة؟ فقال: بعد أن غبت عنا هجم الفرس علينا وشتتوا شملنا، وسبوا مهردكار وطوربان وولديهما، وقد أخبرني بزرجمهر أن الموبذان سيلقيهم في النار يوم عيد النيروز قربانًا لها، وما بقي على هذا العيد إلا أيام قليلة، وقد وعدت الوزير بزرجمهر أن أخلصهم وأفعل في كسرى فعلة تورثه الحسرة مدى الحياة، وقد كان هذا بخيانة من زوبين وأفلنطوش اللذين أبقيتهما وعفوت عنهما، ولو قتلتهما ما استطاع الفرس أن ينالونا بشر ولا أذى، ولكن هذا قضاء الله الذي لا يدفع، فهيا بنا لإنقاذهم، وبعد ذلك نبحث عن لوعة القلوب وفانوس. فقال: ذلك الحق.

ثم ودعوا حاكم قماصيا وساروا إلى ما عزموا عليه. وسبقه عمر إلى حلب ليأتيه بجماعة من الفرسان والأمراء ليكونوا عونًا لهم في تخليص مهردكار وطوربان حسب الخطة التي يدبرها عمر العيار.

***

﴿ ٩ ﴾

كانت أسما بري طائرة في الجو وبنتها قريشة من خلفها، فرأت لوعة القلوب وفانوس في المركب تبكيان بكاء مرًا، فنزلت من الجو واختطفتهما وحطت بهما في مكان فسيح من البرية، وسألتهما عن حالهما فقالت لوعة القلوب: إني بنت حاكم قماصيا وزوجة حمزة البهلوان، وقصت عليها قصتها من أولها إلى آخرها. فالتفتت إلى بنتها قريشة وقالت: أرأيت كيف يتزوج أبوك فتاة من كل مدينة يمر بها، ويقيم عند زوجاته الأشهر العديدة، ويحارب من أجلهن ثم لا يقيم عندي إلا أيامًا وهو مرغم قلق مبتئس؟! ولكي أكيده فإني قاتلة هاتين المرأتين، فقالت قريشة: إن أبي حر، ولا ينبغي أن تعتدي على حريته التي هي من حقه كما أنها حق لغيره، ولن تستطيعي أن تمدي يدك إلى لوعة القلوب فإنها خالتي وزوجة أبي، فدعيهما لي وامضي إلى حيث تشائين، ثم حملتهما قريشة إلى مكان قريب من مدينة صغيرة وقالت: سيرا أنتما في عون الله وحفظه إلى أن تصلا إلى مدينتكما، فسارتا حتى دخلتا تلك المدينة.

رجع عمر من حلب ومعه جماعة من الأمراء والفرسان ولقى بهم حمزة في وادي الكمال، ونزل جميعهم فيه للراحة، وقال عمر: انتظروني هنا حتى أرجع إليكم، وإني ذاهب إلى المدائن لأرى ماذا أفعل لخلاص مهردكار وطوربان، ولكيد كسرى كيدا لن تضيع مرارته من فمه، ولا لهبه من قلبه.

دخل عمر المدائن وخلا إلى الوزير بزرجمهر، وقال له: رجعنا من قماصيا، وحمزة وجماعة الفرسان ينتظرونني في وادي الكمال، وقد جئت لأقف على الأحوال، وهل لا يزال كسرى مصرًا على إلقاء مهردكار وطوربان في النار؟ فقال: ما دام بختك حيا وكسرى يتبع خطواته فلا محيص من إلقائهما في النار، فقال: لا تخف عليهما، وأريد أن تشرح لي حين يجيء هدهد مرزبان،

ماذا يفعل؟ ومن يرافقه؟ وما عملهم؟ وكيف يعبدون النار؟ وماذا يقولون؟ إلى غير ذلك من كل ما يتصل بعملهم في هذا العيد.

فشرح له بزرجمهر كل شيء حتى أصبح عمر كأنه في المعرفة واحد منهم، وأخبره أنه قادم بعد عشرة أيام. فقال عمر: كن مطمئنًا ولا تخف وسترى ما أفعله. ثم ودعه ورجع إلى حمزة وجماعته في وادي الكمال، وأخذ معه شيحان كبير عياريه وخمسة عشر منهم ومضى، وقال لحمزة ومن معه: لا تبرحوا مكانكم هذا حتى نعود إليكم بالنساء والأولاد، ومشي هو والعيارون حتى كانوا في وادي خراسان ورأوا على بعد خيامًا منصوبة وخيلا تسرح، فقال لمن معه: اختبئوا في مكانكم، هذا وامكثوا فيه حتى أرجع إليكم، ودخل المعسكر واختلط برجاله وفرسانه، ثم خلا إلى واحد منهم وقال: أظنكم يا سيدي سائرين إلى المدائن، فقد سمعت منذ أربعة أشهر أن مولانا الأعظم، وركن ديننا الركين هدهد مرزبان سيأتي ويلقي بالكافرات اللائي بخسن دين النار وبأولادهن في النار، فهل أنتم سائرون إلى المدائن من أجل ذلك؟

فقال: نعم، وقد جئنا مع مولانا الأعظم لينفحنا ببركاته، ولندفع عنه شر أعدائه؛ وهو الآن في صوانه مع مرازبته الاثنى عشر. وعما قليل نكون في المدائن لنأخذ هدايا كسرى ونأتي بالنساء لنلقيهن في النار يوم عيد النيروز، ولما شبع عمر من الحديث معه أقام وذهب إلى صوان هدهد مرزبان فوجد أمام بابه حجابًا أربعة يمنعون الناس من دخوله ورأى بداخله رجلا معممًا له وقار وهيبة جلس على عرش من الفضة محلى بالذهب، وإلى جانبه كرسي من الفضة وعليه رجل يقاربه في الهيبة والجاه، وإلي جانبه أحد عشر كرسيًا عليها أحد عشر رجلا من المرازبة، وبين أيديهم تنور من الفضة وفيه نار مضطرمة تفج رائحة زكية. وعرف أن الرجل الذي يجاور عرش هدهد المزربان كاتم سره، والواسطة بينه وبين المرازبة ومن يلتمس منه بركة أو يسأله أمرًا، وبينما هو يفكر فيما يفعل خرج كاتم السر من الصوان فسجد له الحجاب، واعتزل في مكان بعيد ليقضي حاجته، فبغته عمر وكتم فمه، ثم حمله وطار به إلى مكان بعيد، ثم أنزله على الأرض وأزال عن فمه ما كتمه،

وقال له: إن أجبتني عما أسألك عنه عفوت عنك وإلا قتلتك بخنجري هذا، فقال: سل ما شئت فإني لن أخفي عنك شيئًا.

فقال: ما اسمك؟ وما عملك؟ فقال: اسمي «هرزبان» كبير المرازبة عند المرزبان الأعظم وكاتم سره، والواسطة بينه وبين غيره، فإن من قواعد ديننا ألا يخاطب المرزبان الأعظم، وإن كان الذي يخاطبه كسرى أنو شروان، فقال: وإلي أين أنتم سائرون؟ فقال: نحن سائرون إلى المدائن لنأتي بمهردكار ومن معها من النساء لنلقيهن في النار يوم عيد النيروز، وقد أخبرني المزربان الأعظم أمس أنه يريد أن يترك المعسكر في مكانه هذا، وأن نسير نحن المرازبة إلى المدائن لنأتي بالنساء ونعود إلى المعسكر لأمن الطريق وخلوه من الأعداء، و بعد رجوعنا نقيم في هذا الوادي أيامًا، ونحتفل بالعيد فيه ونلقي النساء في النار، أما كسرى فإنا سندعوه إلى أن يجيئنا في هذا المكان يوم العيد، وجعل عمر يسأله حتى أشبع نفسه، ثم قتله بخنجره ونزع عنه ملابسه وواراه التراب، ولبس عمر ملابسه واكتحل وقال أريد أن أكون هرزبان الذي قتلته، فكان كما طلب، ثم مضى إلى شيحان كبير العيارين، وأتى به وجماعته وأمرهم أن يكمنوا قريبًا من صوان هدهد المزربان، وينتظروا حتى يعود إليهم أو يدعوهم إلى حيث يناديهم، ثم ذهب هو إلى الصوان ودخله وقام المرازبة إجلالا له، وألقى في النار بنجًا كثيرًا، وكان قد تحصن ووضع في أنفه شيئًا يبطل أثر البنج، فوقعوا جميعًا في غشية كأنها الموت، ثم دعا العيارين إلى الصوان وأمرهم أن ينزعوا ملابس المرازبة ويلبسوها، ولبس هو ملابس هدهد المرزبان الأعظم، وألبس شيحان ملابس هرزبان كاتم سره، وكحلهم جميعهم وطلب أن يكونوا مرازبة النار فكانوا، ثم ذبحوا المرازبة جميعهم ودفنوهم في مكانهم من الصوان تحت الرمال، وأخذ كل منهم مكانه فجلس هو على عرش المرزبان الأعظم، وجلس كاتم سره على كرسيه، وجلس الباقي على كراسيهم والنار مضطرمة في تنورها أمامهم وجعل أربعة من عياريه حجابًا، وأصبح الصوان بذلك صوان عمر العيار ورفقائه، ولكن الفرس وعباد النار لا يعلمون.

وفي الصباح قال عمر: يا هرزبان، قل للمرازبة أن يقبلوا يدي قبل أن يدنوا من النار ويسجدوا لها، فبلغهم وقبلوا يده وسجدوا للنار وأحاطوا بها.

فابتسم وقال: قواكم الله وأعانكم فقد أجدتم وأتقنتم الصنعة، وقال لهرزبان: اخرج وادع قواد الجند أمام الصوان ليسجدوا للنار كعادتهم، ثم اخطب فيهم وبلغهم أن إرادتي أن يلبثوا في مكانهم هذا حتى أمضى بكم إلى المدائن لنعود بالنساء ونقيم عيد النيروز هنا وفي مكانهم هذا ثلاثة أيام، فقام هرزبان بما أمر، وأحضرهم فسجدوا وبلغهم إرادته فأطاعوا، وصاحوا بالدعاء للمرزبان الأعظم، ثم أشار إليهم بالانصراف فانصرفوا، ثم دخل عليه وقال له: قد بلغت ما أمرتني به فماذا تريد منا بعد ذلك؟

فقال: أن ترفعوا هذا الصوان وتحملوه فوق البغال، وأن تحملوا أنتم عرشي هذا وتمضوا بي إلى المدائن، فقال شيحان: ومتى حملت على أعناق الرجال يا عمر؟! سنحملك حتى تغيب عن المعسكر ونختفي عن أنظار الجنود، ثم تمشي بيننا حتى نقرب من المدائن، وبعد ذلك نحملك وأمرنا إلى الله، فضحك جميعهم ومشوا يحملونه على عرشه والجنود يلتمسون منه البركة حتى اختفوا عن أنظارهم، ثم نزل وسار معهم إلى أن دنت منهم المدينة فجلس على عرشه وحملوه ومضوا إلى أن أشرفوا على المدائن، فأمرهم أن ينزلوا ويضرموا النار في تنورها ويضعوا عليها الروائح الذكية، ثم أرسل شيحان إلى كسرى ليدعوه ووزراءه وقواده والأعيان إلى استقبال المرزبان الأعظم وتقبيل يديه.

دخل شيحان المدينة وعرفه أهلها أنه كاتم سر المرزبان الأعظم، فانهالوا عليه وجعلوا يقبلون يديه ويضعون أذيال ثيابه على رءوسهم تبركًا ولا زالوا سائرين به في تلك الحفاوة وهذا الإجلال العظيمين حتى وصل إلى ديوان كسرى، فأسرع الحجاب إلى كسرى وأخبروه فأرسل في الحال وزيره بختك لاستقباله والحضور به في مجلسه، فلما حضر تهلل وجهه فرحًا وبالغ في إكرامه، وسأله عن هدهد المرزبان الأعظم فقال: إنه أمام المدينة، وقد

بعثني إليك لتخرج إليه وتقبل يديه أنت ووزراؤك وأعيانك، ففرح كسرى واستبشر وقال: هذا فرض عليّ.

ثم أمر الجنود أن تقف صفين من باب المدينة إلى باب الإيوان، وأن تزين المدينة ابتهاجًا بقدوم المرزبان الأعظم، ولما وصلوا إليه قال كسرى لهرزبان: تقدم إليه واسأله أن يرضى عنا ويسمح لنا بتقبيل يديه، فدخل شيحان على عمر وهو متكئ على عرشه غير مهتم بكسرى ومن معه، وسأله أن يسمح لكسرى ووزرائه بتقبيل يديه، فأشار بيده أن اصبروا فوقفوا خاضعين ينتظرون أمره، وبعد ساعة أشار إليهم أن يمضوا أمامه وأمر هرزبان أن تحمله المرازبة إلى ديوان كسرى.

فسار كسرى وهو محمول وراءه، وخاف كسرى أن يكون المرزبان غاضبًا عليه وتحدث إلى وزيره بختك في ذلك وقال: أخشى أن يأخذ النساء ويمضي دون أن يسمح لنا بتقبيل يديه، وأن يفيض علينا من بركاته، وحين دخل عمر المدينة محمولا على عرشه والنار مضطرمة في تنورها بين يديه سجد له أهل المدينة وازدحموا من حوله وألقوا عليه الأزهار والرياحين، وهو ثابت على عرشه غير مهتم بهذه المظاهر حتى دخل الديوان، وبعد ساعة قال كسرى لبختك: تقدم إلى هرزبان واطلب منه أن يسمح المرزبان الأعظم لنا بتقبيل يديه، فتقدم إليه ورجا منه ذلك في ذلة وخشوع.

وتقدم شيحان إلى عمر فقال: إن كسرى وقومه قد تعبت أقدامهم، وخفقت قلوبهم مخافة أن تكون قد غضبت عليهم، فاسمح لهم أن يقبلوا يديك. فجلس عمر على عرشه وأبدى إشارة السماح ففرحوا، وتقدم كسرى فرفع التاج عن رأسه وخفضه إلى الأرض بين يديه، ثم قبلهما ورجع إلى الوراء في أدب وخشوع، وتقدم أفلنطوش فقبل يده وأراد الرجوع فأمسكه ونظر إليه وقال: إن النار راضية عنك لأنك فعلت بالأعداء ما أرضاها، فقبلها ثانية ورجع فرحًا، وتقدم بختك الوزير وقبل يده ثلاثًا.

فقال له: إن النار تحبك لأنك لا تزال تخدمها في أمانة، فرجع فرحًا أيضًا، وتقدم الوزير بزرجمهر الذي يحب العرب ويدين بدينهم ويكره الفرس

ويتمنى لهم البوار فقبل يده ويكاد قلبه ينفطر خشية على النساء المسبيات أن يلقين في النار ظلمًا ولما هم بالرجوع غمز عمر يده قبل أن يتركها، فأدرك بزرجمهر في الحال ما طمأنه وتذكر قول عمر له: إني سأفعل في كسرى ما يجعله في حسرة ونكد مدى الحياة. وقال في نفسه: لله درك يا عمر! فقد فعلت ما لم يستطعه عيار في الأرض، وتقدم زوبين الغدار فهش عمر في وجهه وقال لكسرى: أوصيك أيها الملك أن تكافئ زوبين أحسن مكافأة، فإنه مخلص وفيّ للنار وهي عنه راضية، فقال: سمعًا وطاعة، ثم قبل يده ورجع، وبعد ذلك تقدم الأعيان واحدا بعد واحد فقبلوا يديه ورجعوا في أدب واحترام.

ثم وقف شيحان وقال: إن المرزبان الأعظم قد أمرني أن أبلغكم أن النار أعزتكم وحافظت عليكم، ووصاني أن أقول لكم: إن بين العرب رجلًا محتالا كأنه الشيطان اسمه عمر العيار، فاحذروا مكره وكيده وإن وقع في أيديكم فلا تقتلوه ولكن عذبوه العذاب الأليم، فإن النار تحب أن يعذب في الدنيا قبل أن يموت. لا زلتم ببركة النار محفوظين على مر السنين. فصاح كسرى وقومه بالدعاء للمرزبان الأعظم، وابتهجوا لفصاحة كاتم سره وطلاقة لسانه.

أشار هدهد المرزبان الأعظم إلى هرزبان أن يطلب النساء من كسرى ليذهبوا بهن إلى وادي خراسان حيث ينتظرهم الجنود ويقام العيد، وأن يلحقهم كسرى ووزراؤه وأعيانه بعد ثلاثة أيام من رحيلهم ليشاهدوا النار وهي تأكل النساء أكلًا، فلما بلغه إرادة المرزبان قال سمعًا وطاعة؛ فأحضر النساء بين يديه. فقال هرزبان لمهردكار: تقدمي وقبلي يد المرزبان الأعظم فربما عفا عنك فقالت: ليس لي من حاجة في تقبيل يد نجستها عبادة النيران التي وقودها الحطب وغيره والتي يطفئها بول الحمير، وقد آمنت بالله ولن أعود إلى ملتكم بعد أن نجاني الله منها، وقال لطوربان: ولم تركت دين آبائك وقومك، وأعرضت عن الزواج من زوبين الغدار وأغضبت بذلك النار؟ فقالت: عرفت الحق فاتبعته، وكرهت الغدر وحامله، فقال: نادي ربك هذا الذي آمنت به أن ينجيك من النار التي ستكبين على وجهك فيها.

فقالت: سترى أنكم غير قادرين علينا، وأن الله سيرسل إلينا عمر العيار ويخلصنا من أيديكم وظلمكم، فأشار عمر أن يأخذوهن إلى النار ولا تنتظروا، فقال هرزبان: قد صدر أمر المرزبان الأعظم بأخذكن إلى النار فهيا أيها المرازبة، وحملوا عرشه وساقوا النساء أمامهم، وأخذوا جميع الأموال التي نهبوها من العرب، ولم يتركوا منها عقال بعير، ومنح كسرى والوزراء والأعيان المرزبان الأعظم كثيرًا من الهدايا من ذهب وفضة وجواهر قربانًا إليه، وحملوا كل هذا وساروا إلى وادي خراسان على أن يتبعهم إلى الوادي كسرى وقومه بعد ثلاثة أيام كما أمر المرزبان الأعظم، وبعد أن خرجوا من المدينة التفت عمر فوجد كسرى وقومه سائرين على الأقدام لتوديعهم، فأشار إليهم أن ارجعوا فرجعوا.

ولما بعدوا عن المدينة نزلوا للراحة، ودعا عمر مهردكار إليه فحضرت وأمسك يدها فانتشلتها منه وقالت: دعني أيها الكافر ولا تنجسني بيدك. فقال: إني قادر الآن على هلاكك، وعما قليل ستلقين في النار لتأكلك، فقالت: كذبت فإن الله أقوى منك ومن قومك، وسترى أنه سيرسل إلينا عمر العيار أخا زوجي وسيخلصنا من أيديكم، فقال: وكيف يصل إليك عمر هذا وليس بينك وبين الهلاك إلا قليل، فقالت: سترى أنه يجيئنا وإن كان بيني وبين ناركم خطوة واحدة، فقال لها: أصبت فيما قلت يا جوهرة في النساء، ويا مثالا في قوة الإيمان والصبر على البلاء، وما أنا إلا عمر العيار، وقد خلصتكن من أيدي هؤلاء الكفرة الظالمين، فاطمئني وافرحي، وهذا أخي حمزة ورجاله ينتظروننا وهم قريبون منا فاغرورقت عيون مهردكار وبقية النساء فرحًا، وأثنوا عليه وعلى رجاله العيارين أطيب الثناء، وقام عمر إلى العرش ففكه ووضعه في جراب إسماعيل، وأمرهم أن ينزعوا عنهم ملابس المرازبة فنزعوها ووضعها في جراب إسماعيل، وأسرع شيحان إلى الأمير حمزة ومن معه فأخبرهم وجاء بهم إليهم وهناك كان اللقاء وكان الفرح والشكر لله، ثم أسرعوا إلى حلب، وعندها فرح العرب وزال ما بهم من الغم والهم، وقالوا: لقد أتم الله علينا نعمة النصر والفوز، وما بقي إلا أن نبحث عن عمر

بن حمزة الأمير فإنه لا يزال غائبًا ولا نعرف له مكانًا ولا مصيرًا.

وبعد ثلاثة أيام خرج كسرى ووزراؤه وأمراؤه وأعيانه يحملون ما لذ وطاب ليستمتعوا به في عيد النيروز وجدوا في المسير إلى وادي خراسان ليحتفلوا بالعيد ويشاهدوا إلقاء النساء في نارهم، حتى وصلوا إلى المعسكر في الوادي المعروف لهم و بعد أن قوبلوا بالتحية والتعظيم سألوهم عن المرازية وكبيرهم فقالوا: إنهم رحلوا عن المدينة منذ ثلاثة أيام، وإن الطريق آمن، ولا يمكن أن يضل بهم السير إلى معسكركم، وأخشى أن يكون عمر العيار قد بغتهم في الطريق برجاله ففتكوا بهم، وأخذوا ما معهم من الأموال والنساء، فقال بختك لرجال المعسكر: هل رأيتم أحدًا غريبًا جاءكم قبل سفر المرزبان إلى المدينة؟

فقالوا: ما رأينا أحدًا غريبًا ولكن هرزبان كاتم السرخطب فينا قبل رحيلهم وحرم علينا الدنو من مكان الصوان فأطعناه، وما قربنا منه، وحرمنا من التبرك به، فقال: وأين كان هذا الصوان؟ فدلوه على مكانه وساروا إليه، ولما قربوا منه شموا رائحة كريهة، ووجد بختك الرمل كأن به حفرًا جديدًا، فأمرهم أن يحفروا مكان الصوان ففعلوا، وإذا بهم يجدون جميع المرازبة وكبيرهم مذبوحين تحت الرمال، فانخلعت قلوبهم، وخارت قواهم، وامتقعت ألوانهم، وغشيهم ذهول كذهول المحتضر.

وبعد ساعة انتبهوا من ذهولهم واضطرم الغيظ في صدورهم، وقال كسرى لوزيره بختك: أنت أصل هذه المصائب، وما كنت أريد أن أعادي العرب، ولكنك كنت لي مصيبة كبرى، فقد خسرت بنتي ورجالي وأموالي وشرفي، وسجدت أنا ووزرائي وأعياني إلى عمر العيار، وسرت ماشيًا في ركابه، ثم أقسم أن يقتل كل شخص يذكر له العرب أو واحدًا منهم، ثم ركب جواده وارتد يجري إلى المدائن وهناك دخل قصره وأعلن الحداد في المدينة، وتبعه في ذلك رجاله، أما بزرجمهر فقد كان بينه وبين نفسه في فرح عظيم.

***

﴿ ١٠ ﴾

عكف الأمير على تربية قباط ابنه وسعد بن طوربان وتعليمهما الفروسية والقتال وفنون الضرب والطعن في الصيد والحرب ومنازلة الأبطال، وساعده في ذلك نمو جسمهما واستجابة فطرتهما وميولهما، حتى بلغا مبلغ الكمال، ودخل ذات يوم عليه خادمه حزينًا كئيبًا وقال له: افتقدت اليقظان في البرية وبحثنا عنه فلم نجده ولا ندري من سرقه ولكني سمعت رجلين عابرين يتحدثان عن جواد أعجبهما ويقولان: لا بد أن يكون هذا الجواد لملك أو أمير لا يدانيه أحد في شجاعته لأنهما لا يستطيعان ركوبه، وما قيداه إلا بعد أن شغلاه بفرس أتيا بها إليه، فسألتهما: وأين ذهب الرجلان؟

فقالا: سمعنا أحدهما يقول لصاحبه: هيا بنا إلى فرهود صاحب التكرور في السودان فإنه لا يصلح إلا له، وسيحمينا ويمنحنا فيه مالا كثيرًا، فسألتهما: ومتى سمعتما ذلك فقالا: سمعنا ذلك منذ ثلاثة أيام في أطراف هذه المراعي، فرغب الأمير أن يذهب إلى فرهود في السودان لإحضار اليقظان، فأجمع رأي أصحابه على أن يرحلوا جميعهم معه، وإن الحزن على عمر اليوناني لا يزال يملأ نفوسهم. فإن غيبته لا يزال أمرها خفيًا عليهم.

وتقاذفتهم السبل والأودية والبراري حتى كانوا في مصر وفرح بهم إسمندار حاكمها ولبثوا فيها أيامًا للراحة، ورأوا إذ ذاك على بعد غبرة لجيش مقبل نحو المدينة، فخف عمر العيار ليتبين أمره، فلما بان لناظريه وجد عمر اليوناني يقدمه فجرى نحوه فرحًا، وترجل عمر حين رآه مقبلا، وتعانقا وتصافحا وتبادلا حمد الله وشكره، ثم أخبره عمر العيار أن أباه في مصر، وسأرجع إليه جريًا لأبشره بقدومك، ثم فرّ من أمامه إلى أبيه حمزة، ولما دنا منه قال: بشراك يا أخي، فهذا ابنك عمر اليوناني قادم إليك سالمًا، وسمعت الجموع البشرى، فتواثبوا من الفرح والسرور، وكان أبوه أشدهم

فرحًا وأنضرهم وجها بلقاء ابنه وفلذة كبده، ثم سأله عن حاله في غيبته فقال:

- جرحني زوبين غدرًا، وكان الجرح بليغًا أفقدني وعيي، ثم انتبهت فوجدتني بين جماعة من الأكراد قد أسعفوني وضمدوا جرحي، ثم حملوني إلى قبيلتهم وكانت في إمرة الأميرة هدلا أخت الغضبان رئيس تلك الجماعة وقالوا لها: رأيناه فاقد الوعي في فسيح البرية وجرحه لا يزال ينزف، فأسعفناه وضمدنا جرحه وحملناه إلى القبيلة فقالت: حسنًا فعلتم، وكانت ذا فراسة صادقة فعرفت أني من أبناء الملوك والأمراء، ولا بد أن يكون لي شأن عظيم، وأمرت أن أقيم في بيتها، وأن يقوم الأطباء لعلاجي وتولت هي نفسها خدمتي وراحتي، والخدم تحت أمرها ونهيها، ولبثت تحت رعايتها ويقظتها أكثر من ستة أشهر حتى قدرت على الجلوس والاستواء والكلام، ثم جلست إليّ الأميرة هدلا وقالت: لا أريد أن أذكر لك أني عاملتك معاملة الأم الحنون لأن الإنسان ملزم أن يعين أخاه ويغيث لهفته، وأحببت فيما مضى ألا أسألك عن نفسك حتى لا يقال إلى عاملتك هذه المعاملة من أجل غاية وجدتها في شخصك، وكفاني أن عرفت أنك إنسان، ولكني حريصة على أن أعرف سبب جرحك، ومن الذي جرحك، وهناك شيء في نفسي أريد من أجله أن أعرف حسبك ونسبك، فقلت: إن أبغض الأشياء إلى نفسي التفاخر والتباهي، وأن أجنح إلى الكذب في قولي، وما دمت قد سألتني، وما دام الواجب يدعوني إلى الصدق في إجابتي، فأنا ابن من داس بقدمه العجم، ورفع بسيفه رأس العرب، فبرقت عيناها نورًا، وافتر ثغرها عن ابتسامة ترفرف عليها أجنحة السعادة وقالت: أنعم وأكرم، فأنت ابن فارس الحجاز حمزة البهلوان، فهل أنت من زوجته مهردكار؟ فقلت: لا وحكيت لها قصتي إلى أن كنت عندها.

فقالت: قطع الله يد زوبين الغدار، وأشكر الله الذي أرادني لخدمتك، وإني لا أرجو منك الآن إلا أن تقبلني خادمة لك مدى الحياة، فأدركت غايتها، وأنها رغبت أن تكون لي زوجة، فلم أجد مفرًا من الاستجابة لرغبة

هذه الإنسانة الكريمة الشجاعة النبيلة، وقلت في نفسي: لا ينبغي أن أكون أقل منها في طلب الفضيلة وتلمسها في العشير، وقلت لها: أود ذلك على أن تكوني لي زوجة لاخادمة، فزاد فرحها بي، وكان ابتهاج القبيلة بهذا الزواج عظيما شاملا. ثم أبديت رغبتي أن أعود إلى حلب لأطمئن على قومي وليطمئنوا عليّ، فقالت: ذلك حق، وأعددت الجنود، وتأهبنا للرحيل، وجاءنا قافلة من التجار من أهل المدينة حينئذ وعرفوا مقصدنا وغايتنا، فأخبرونا أن العرب وعلى رأسهم الأمير حمزة ذهبوا إلى مصر ليخرجوا منها إلى السودان، فلوينا الأعنة إليكم وأسرعنا في المسير لنلحق بكم، وكان هذا اللقاء الميمون الذي نفس عن طوربان أمه كربها، وكانت أمه قد أخبرته بما فعله زوبين وأفلنطوش من الخيانة، وما فعله عمر العيار من المكر بالعجم حتى خلص النساء والأموال من أيديهم، وأغرقهم في حسرة لا يخرجون من همها أبدًا.

رحل حمزة ورجاله، ومعه عمر ابنه وجماعته إلى فرهود صاحب التكرور ونزلوا بساحة من أرضه حتى يستقر الأمر بينهما على حرب أو سلم وعرف عمر العيار بتجسسه أن عمر الحبشي وصقلان الرومي هما اللذان سرقا اليقظان وأتيا به إلى فرهود وكانا قد وقعا في أسر العرب، وأشاروا على الأمير حمزة أن يقتلهما لما عرفا به من الخيانة والغدر وكراهيتهم للعرب، ولكنه عفا عنهما أملا في صلاح أمرهما، فكتب الأمير حمزة إلى فرهود يطلب منه اليقظان وهذين الرجلين الخائنين وقال له: إن أنت أجبتني إلى ما طلبت فالأمر بيني وبينك على أحسن حال وليس عندي إذ ذاك إلا الشكر الجزيل، والإخاء الصادق، وإن أنت عصيت وأبيت فليس لك عندي إلا السيف الذي دوخت به ملوك الأرض.

كان فرهود بطلا جبارًا يثق بنفسه، ويعتمد على سيفه وبأسه، فلما قرأ كتاب حمزة هز رأسه ساخرًا وقال: اذهب إلى سيدك حمزة وقل له: إن لنا سيفًا أحد من سيفه، وقلبًا أثبت من قلبه، وبأسًا أشد من بأسه، وغدًا ترى صدق ما نقول.

قامت الحرب بين الفريقين، وكان الكفاح منهما على أشده، واستحر القتل بجنودهما، ولكن الكثرة الغالبة من القتلى كانت في جيش فرهود فلما سكت القتال عند المساء واستقر فرهود في مأواه عجب أن يقتل من جيشه عدد يناهز نصفه في يوم واحد. أما حمزة فإنه عجب إذ لم يجد اليقظان جواده في الميدان، وحار في أمره أهو عنده ولم يستطع ركوبه أم هناك شيء آخر جرى عليه؟

فقال عمر العيار: إني ذاهب إليه لآتيك بالخبر اليقين، ثم اكتحل ودخل في زي حاجب من حجاب فرهود، ومضى إليه فوجده جالسًا ومعه جماعته، وعمر الحبشي وصقلان الرومي، فوقف بين الحجاب وهو لا يخشى أحدًا لأنه منهم، ولن يستطيع أحد أن يعرفه، ولكن عمر الحبشي عرفه وقال: أمسكوا هذا فهو عمر العيار عماد العرب ومدبر الكيد وقاهر الأعداء بمكره، فأمسكوه وكتفوه، وأراد فرهود أن يقتله، فقال عمر الحبشي له: لا تقتله وأرسله إلى كسرى ليعطيك نصف ملكه، ولتكون ذائع الصيت بين الملوك، وما دام عمر العيار قد أسر فإني وأخي صقلان الرومي سنحتال لسرقة حمزة، ثم نأتي به إليك، وحينئذ نأخذهما إلى كسرى ويكون لك بعد هذا بين الملوك شأن عظيم، فقال: هذا حسن، وأحضر أكبر عياريه، ووكل إليه حراسة عمر العيار والمحافظة عليه حتى ينتهي من العرب. كانت معرفة عمر الحبشي لعمر العيار مثار عجب في نفسه، وجعل يفكر لعله يجد في تنكره علامة تدل عليه، فلم يهتد إلى شيء فبقي في عجبه وأسلم أمره إلى ربه، وأودع في مكان أسره تحت حراسة فرار كبير العيارين.

كان عمر الحبشي يعتقد أن عمر العيار سيأتي معسكر فرهود متنكرًا، وسيدخل في غمار حجابه دون أن يعرفه إنس ولا جن. فحصر حجاب فرهود وعرف عددهم وأحضرهم بين يديه وقال: إن عددكم عشرة؛ فإذا زاد عددكم واحدًا كان هو عمر العيار، ولكني لا أستطيع أن أعرف من هو منكم، ولهذا فإني أوصيكم أن يمسك كل منكم أذنه اليسرى بيده اليمنى واحدًا بعد آخر إذا رأيتموني وضعت يدي على رأسي، ولن أضع يدي على

رأسي إلا إذا رأيت عددكم قد زاد واحدًا وبغير ذلك لا يمكن معرفة عمر العيار إذا جاءنا وخالطنا، فقالوا سمعًا وطاعة. فلما جاء عمر العيار زاد العدد ووضع عمر الحبشي يده على رأسه، وأمسك كل منهم أذنه وبقى هو لم يمسك أذنه لأنه لا يعرف شيئًا عن هذه الحيلة، ولهذا عرفه عمر الحبشي ودلهم عليه فأمسكوه وقيدوه وحبسوه تحت رعاية فرار كبير العيارين، وهو لا يدري كيف عرف.

انصرف عمر الحبشي وصقلان الرومي من مجلس فرهود وهما فرحان، واتفقا على أن يذهبا ليلتهما هذه إلى معسكر العرب، ويسرقا حمزة، إذ أصبحت سرقته في الإمكان لغيبة عمر العيار الذي كان شديد اليقظة، ولا يقدر أحد أن يخدعه، فانسلا متنكرين إلى صوان حمزة، وانتهزا فرصة نعاس الحارسين اللذين على بابه، ودخلا من خلف الصوان وأشعلا بنجًا فيه حتى غشي على حمزة ثم حملاه وخرجا به وانطلقا إلى فرهود فأيقظاه من نومه، ووضعا حمزة مغشيًا عليه بين يديه، فابتهج وأعجب ببراعتهما وقدرتهما على سرقة أمير العرب من بينهم، ثم كتفوه وقيدوه وأنشقوه شيئًا أزال عنه غشيته، فعجب أن رأى نفسه بين يدي فرهود مكتفًا مقيدًا، فقال له فرهود: لا تعجب، فما من قوة إلا وفوقها قوة. وما من مكر إلا ومن ورائه مكر يفوقه ويغلبه، وإن أخاك عمر العيار مقيد عندنا في السجن الذي ألقيناه فيه، وقد حق عليكما القتل لأريح العالم من شركما.

فقال عمر الحبشي: أرسله إلى قلعة الحديد على شاطئ البحر، حتى تقضي على العرب، ثم أرسله وأخاه عمر إلى كسرى ليذبحهما ويعطيك نصف ملكه، فأمر به أن يحبس في قلعة الحديد، فأخذه الجنود وأودعوه فيها تحت حراسة وكيلها الأمير هداد، فأسلم أمره إلى الله معتصما بالصبر الجميل.

ارتاع العرب حين استيقظوا وعرفوا أن أميرهم حمزة قد سرق، فقال لهم ابنه الأمير عمر اليوناني: لا يرعكم سرقة أبي ولا غيبة عمر العيار عندهم، وكونوا معي يدًا واحدة، وسترون مني ما يسركم، ويرد الاطمئنان إلى نفوسكم فأقسموا له أنهم وهبوا أنفسهم فدية لأميرهم حمزة، وأنهم لن

يسكتوا عن القتال من أجله حتى آخر رمق من حياتهم.

وظن فرهود أن العرب لا ثبات لهم بعد سرقة حمزة وأخيه، ولكنه سمع الطبول تدق في جيش العرب إيذانًا بالقتال، فنهض وأمر جنوده أن يخوضوا غمراتها وكان يومًا عسيرًا على جنوده، فلما وقف القتال آخر النهار اندهش من ثبات العرب وقدرتهم وعزم أن يبارزهم لأنه قوي الثقة بنفسه، أما عمر اليوناني فقد أمسك عن القتال ثلاثة أيام ليستريح فيها الجنود ويعود إليهم نشاطهم وقوتهم.

كان عمر العيار في حراسة فرار كبير العيارين، وكان لا يفارقه ليلا ونهارًا، فقال له: لقد أفل نجم العرب، وعما قليل تصير بطون وحوشنا مقابر لهم.

فقال عمر العيار: وماذا يهمني يا بن خالتي إن هلك العرب أو سلموا؟ إني غريب عنهم ولست من جنسهم، وكنت فيهم عبدًا محكومًا، وقد سررت إذ خلصت منهم وأتيت إلى أبناء جنسي، أنشق في ظلهم نسيم الحرية، وأخلص الود لسيدي فرهود، وأخدمه تحت رعايتك وإشرافك، ويسرني أن أكون من رجالك وأتباعك، كما يسرني أن تخبرني بكل مصيبة نزلت بالعرب، لأني شديد الرغبة في انقراضهم.

فقال فرار العيار: لا تحاول أن تخدعني فإني أعلم الناس بك وبحيلك. وخداعك!! لقد سرق حمزة أميرهم عمر الحبشي وصقلان الرومي، وأتيا به إلى فرهود فحبسه في قلعة الحديد على شاطئ البحر. وعما قليل يبيد العرب. فأظهر فرحه وسروره، وإن كان صدره يلتهب غيظًا، وقال لفرار: بشرك الله بكل خير، فإن حمزة هذا هو الذي كان يخيفني ويكرهني على خدمة العرب، والحمد لله الذي أوقعه في يد فرهود، لأخلص منه، وأخص بخدمتي أبناء جنسي من السودان، فإذا أطلقت سراحي وعاونتني على أن يقبلني فرهود خادمًا له كان لك على أخيك الفضل العظيم.

فقال فرار: لا تطمع في إطلاق سراحك فقد أصر فرهود على أن يرسلك إلى كسرى ليكافئه بنصف ملكه.

فقال عمر: إن أعطاه كسرى ملكه جميعه وأسلمني إياه كان كسرى هو

الرابح، فعجب فرار وقال: وهل أنت إلا نفس يتردد، وجسم إن انقطع نفسه هذا كان جيفة، ولا بد أن ينقطع؟! ولكن الملك باق، وسيرثه أعقابه من بعده.

فقال عمر: لا تعجب فإن معي ذخائر إن ملكها كسرى فقد ملك الأرض، وقد رغبت أن أخصك بها من دون الناس لأنك أخي ومن أبناء جنسي. فسال لعاب فرار إلى تلك الذخائر وقال: وما قيمة تلك الذخائر؟ وكيف يملك بها الأرض إن حازها وأخذها؟

فقال عمر: إن أردت بها أن أكون فرهود نفسه، أو أي أحد من أهل الأرض كنته، و إن أردت بها أن أعرف طرق الموت والبلاء عرفتها في لحظة، وإن أردت بها كشف الأرض وضحت أمامي وضوح الشمس، وإن أردت بها أن أعرف كنوز الأرض والسبل إلى الحصول عليها عرفته في طرفة عين، فكيف لا يكون كسرى هو الرابح إن ملكها وأخذها؟! فزادت رغبة فرار فيها والتهبت نفسه شوقًا إليها وقال: أصحيح ما تقول يا عمر؟ فقال: وحق أبيك ما قلت إلا حقًا، فأطلق لي يدًا واحدة لأعطيكها وأعلمك كيف تنتفع بها.

فقال فرار في نفسه: وماذا عليّ لو أطلقت له يدًا واحدة؟! إنه لن يغوص في الأرض، ولن يطير في السماء، وما هو بمستطيع أن يخطو من أمامي خطوة واحدة، ثم تقدم إليه وفك من القيد يده وقال: هات يا أخي ما وعدتني، فمد يده في جيبه وأخرج السيف ذا الشطين وقال: هذا من عمل اليونان وليس له نظير في خزائن كسرى وغيره من الملوك، فأخذه فرار وأعجبه، ثم أخرج له خنجرًا وقال: وهذا لا يصلح إلا لك، فأخذه وقال: جزاك الله خيرًا يا أخي، ثم أعطاه المرآة والمكحلة وقال: إذا نظرت في المرآة عرفت خبايا الأرض، وإذا اكتحلت من المكحلة كنت في صورة من شئت من الناس، فأخذهما ونظر في المرآة فانبهر وقال: أحسن الله إليك يا أخي، وهل معك شيء آخر؟ فقال: نعم معي ذخيرة واحدة لا تطاوعني نفسي على أن أسلمها إلى أحد غيري، فقال فرار وقد اشتد شوقه إليها: وما هي؟

فقال: علبة صغيرة من النحاس في داخلها لولب إذا كشفت عنه الغطاء وأدرته وطلبت أي نوع من الطعام حضر في التو والساعة، فقال فرار: وكيف تبخل على أخيك بها وقد أعطيتني غيرها؟

فسكت عمر كأنه يراود نفسه ثم قال: خذها وأحضر لنا الطعام الذي تريده وتطلبه. فأخذها وكان في غطائها ثقوب صغيرة وبداخلها بنج سريع أثره، ولها شيء كأنه جزء اللولب ظاهر بين الثقوب وحاول فتحها بيده فما استطاع فقال له: أمسك بفمك جزء اللولب الظاهر ثم شده بأسنانك، ففعل فرار ذلك وسري البنج الطيار في أنفه فوقع على الأرض مغشيًا عليه، وأخذ عمر الخنجر وقطع به القيود، ثم أخذ جميع ما أعطاه وخرج في زي رجل من أتباع فرهود، وذهب إلي صوان عمر الحبشي وصقلان الرومي فبنجهما، وقطع آذانهما وجدع أنفيهما؛ وأخذ سمته إلى معسكر العرب فلقيه العيارون وأرادوا منعه فعرفهم بنفسه ففرحوا، ودخل المعسكر وانتشر نبأ عودته فاستيقظوا لرؤيته وفرحوا بعودته، وكانت ليلة سعيدة عليهم لأنهم اطمأنوا إلى عودة الأمير حمزة على يد عمر أخيه.

نهض عمر وصاحبه صقلان فوجدا أنفسهما على تلك الحال المخزية الفاضحة، فأخرس الحزن ألسنتهما ومضيا إلى فرهود في مجلسه، وشخصت إليهما الأبصار ونطقت الألسنة: كيف وقع هذا؟ وأين كنتما؟

فقال أحدهما: استيقظنا في الصباح فوجدنا أنفسنا كما ترون، ولا نظن إلا أن عمر العيار انفلت من سجنه وفعل بنا فعلته، فأرسل في الحال فرهود إلي فرار وأحضره، فوقف بين يديه كئيبًا حزينًا لا يدري ما يقول.

فقال فرهود: احك ما حصل ولك الأمان، فحكى فرار ما وقع.

وقال عمر الحبشي: ألم أقل لكم إنه شيطان ويسرق الكحل من العين؟!

أمر عمر العيار جماعة الأمراء أن يجمعوا أدوات الحرب القديمة من سيوف ورماح ودروع وغيرها، وذهب إلى مهردكار وقال لها: هاتي ما عندك من الحلي والجواهر وأمهليني ستة أيام، وبعدها تجدين الأمير حمزة لديك حاضرًا فقالت: خذ مني جميع ما أملكه وخلص لي الأمير.

أخذ عمر الحلي والجواهر وصحب جماعة من عياريه وذهبوا إلى شاطئ البحر، وهناك ركبوا مركبًا للنزهة، ولما بعدوا عن الشاطئ أشار عمر على أصحابه أن يقتلوا الملاحين أصحاب المركب ويلقوهم في البحر ففعلوا، ثم رجع إلى الشاطئ، ورسا المركب، وأمرهم أن يحضروا إليه أدوات الحرب القديمة التي جمعها الأمراء، فذهبوا وأحضروها وملأوا بها المركب، ثم نزلوا جميعًا فيه، ولبس عمر ثيابًا ملكية فاخرة، وزينها بالحلي والجواهر التي أخذها من مهردكار، واكتحل وطلب أن يكون في صورة قابض بن مخلص ملك ملوك السودان، فصار كأنه قابض نفسه، ثم أمر أصحابه أن يسيروا بالمركب إلى قلعة الحديد التي فيها الأمير حمزة، ولما وصلوا إليها اعترضهم هداد وكيل القلعة، ومنعهم من الدنو منها، فصاح فيه العيارون وقالوا: هذا مركب قابض بن مخلص ملك ملوك السودان، فارتعدت فرائص هداد وجرى إليه مسرعًا وقبل يديه.

وقال أحد العيارين: إن ملك الملوك جاء ليسألك عن أشياء فأجبه عنها، فقال: سمعًا وطاعة.

وسأل الملك: ماذا فعل فرهود مع العرب؟ فقال: الحرب قائمة بينهما وقد أسر أميرهم حمزة وهو عندي محبوس في القلعة، فقال: ما أجهل فرهود وما أسوأ تدبيره!! وكيف يحارب العرب دون إذن مني؟ لقد كان سببًا في قتل كثير من رجالي، وأصبح لا ينفع أن يكون ملكًا من ملوكي، وقد عزلته وجعلتك ملكًا وحاكمًا مكانه، ولكن اكتم هذا في نفسك حتى أرى ما يكون بيننا وبين العرب، وكم عندك من الحرس؟ فقال: أرسل لي فرهود خمسة عشر حارسًا.

فقال غاضبًا: وكيف يجعل في هذه القلعة هذا العدد القليل الذي لا يستطيع دفاعًا، ولا صدا لهجوم المعتدين الغازين؟! إن العرب وغيرهم لو علموا خلو هذه القلعة من قوة حارسة لدخلوا البلاد منها وملكوها، وسوف يلقى جزاءه مني، فهيا بنا إلى القلعة، وأنت يا هداد مر الحراس أن ينقلوا هذه الأسلحة إليها حتى يأتيها الجنود ليحرسوها، ودخل عمر القلعة

وسجد له حرسها، ولقيهم بالبشاشة والابتسام الدالين على رضاه عنهم، ثم نقلوا الأسلحة إليها، وقال هداد: أتحب أن أحضر إليك الأمير حمزة؟ فقال: لا حاجة لنا به، ولكن اذهب إلى الشاطئ وانظر هل بانت المراكب التي تحمل جنودنا أو لا تزال بعيدة؟

فذهب ورجع قائلًا: لم أر إلا مركبًا بعيدًا، فقال: هذا أولها وعما قليل تأتينا، وكان قد أمر عياريه أن يضعوا بنجًا في الطعام الذي يعده رجال هداد وهم لا يشعرون، وبعد قليل أحضر رجاله المائدة ورغب أن يأكل الملك منها فقال: إن لي طعامًا خاصًا في هذه الأيام، وأمر رجاله بإحضاره فأحضروه، وأمر وكيل القلعة أن يجلس ويأكل هو ورجاله، فجلسوا وجعلوا يأكلون، ولكنهم ما لبثوا أن وقعوا على الأرض مغشيًا عليهم، فأمر عمر عياريه أن يذبحوهم جميعهم ما عدا الأمير «هداد» فذبحوهم، ودخلوا القلعة، وعمر يقدمهم وجاءوا بالأمير حمزة من غرفة مظلمة فيها وعرفه بنفسه، ثم خرجوا منها وأسروا «هداد» وأضرموا فيها النار وركبوا المركب، وحكى لحمزة أخيه ما فعله بعمر الحبشي وصقلان الرومي، ولما وصلوا إلى الشاطئ نزلوا من المركب وساروا حتى دخلوا معسكر العرب وذاع نبأ قدوم الأمير حمزة فكان الفرح به عظيما.

وفي الصباح دقت طبول الحرب، وقامت معركة عنيفة اشترك فيها حمزة وعمر اليوناني وسعد بن طوربان، ولقي فيها فرهود وجنوده شدة وعسرًا وأسر الأمير حمزة «فرهود» فانحل عزم جنوده، وارتدوا إلى مدينتهم هاربين، وكان الظلام قد أقبل فسكت الفريقان عن القتال.

وجلس حمزة في صوانه وفي جمع من أمرائه، وأمر بإحضار فرهود فاحضروه مكتفًا مقيدًا، وأمره بالجلوس فجلس ثم قال له حمزة: خدعك عمر الحبشي وصاحبه، وحملك على عداوة من لا يكرهك، ودفعك إلى قتال وخيم العاقبة، وقد كنت في حمى من ذلك كله، لقد عرفتك في القتال بطلًا شجاعًا، ولا أحب أن أقتل مثلك، احترامًا لشجاعتك وتقديرًا لبطولتك، فإذا آمنت بالله وطهرت نفسك من الحقد والبغضاء والعداوة عفوت عنك

وأطلقتك، فقال فرهود: إن الفضل يعرفه من الناس ذووه، وقد عرفت أن قولك هذا صادر من نفس كريمة سامية، فإن قتلتني فما ظلمتني، وإن عفوت عني واتخذتني من رجالك المخلصين الذين يقاتلون بين يديك مدى الحياة كان ذلك من فضلك، والرأي لك، وقد آمنت بالله الذي لا رب سواه. وملأ حبك قلبي ولن أستطيع فراقك لحظة. وسأسلمك عمر الحبشي وصقلان الرومي عقب عودتي إلى المدينة لتقتلهما جزاء غشهما وخيانتهما.

وعرف حمزة أنه صادق في توبته وقوله فأمر بفكه من قيوده وقال: أنت بخير وعافية سواء بقيت معنا أم ذهبت إلى معسكرك ومدينتك، فقال: لا أحب أن أدخل المدينة إلا وأنت معي لأنها أصبحت ملكك وأنا في طاعتك، فقال: أرى أن تدخلها أنت وحدك وتعرض على قومك الإيمان بالله؛ فمن أطاع قبلناه ومن عصى قاتلناه، وأن تقبض على عمر وصاحبه حتى نلتقي. ثم سأله عن اليقظان فقال: إنه في مكان نظيف، ووكلته إلى خدم يقومون بما يحتاج إليه من الطعام والشراب والنظافة، وقد أبى أن يمسه أحد يبغي ركوبه، ولا يزال في خير وسلامة، ثم ودعه وجماعته ورجا منهم أن يزوره في الصباح إكرامًا له، واعترافًا منه أنه أصبح من أتباعه ورجاله.

ذهب فرهود إلى المدينة وطرق بابها المغلق، وعرف الحرس بنفسه ففتحوا له وأقبلوا إليه فرحين، ودخل المدينة وانتشر نبأ عودته، فخف أهلها وجنوده إليه مهنئين، وسألوه: كيف خلص من العرب؟! فشرح لهم ما عليه حمزة من خلق كريم، وبين لهم أنهم على دين قويم، وأنه دخل فيه، وأصبح يقاتل تحت لواء حمزة مدى الحياة، ثم قال: فمن أراد منكم أن يتبعني فقد عرف الحق واتبعه، فقالوا جميعًا: نحن معك وعلى دينك، وأين سرت فنحن بين يديك، فشكر لهم سلامة عقلهم، وبراءتهم من قذارة الكفر وظلمته، ثم سألهم عن عمر الحبشي وصقلان الرومي فقالوا: اختفيا عن أنظارنا فجأة، وفتشنا عنهما في كل مكان فما وجدناهما، وأغلب الظن أنهما خافا أن يمسكهما الأمير حمزة وينتقم منهما جزاء غشهما وغدرهما، فهربا إلى حيث لا ندري.

وفي اليوم التالي لعودة فرهود إلى مدينته جمع رجاله ومضى ليدعو حمزة

وأمراءه، فوجدهم قادمين إليهم، فاطمأنوا مغتبطين ورجعو معهم إلى المدينة، وقضوا يومًا سعيدًا، وأحضر له اليقظان فأخذه سائسه، وأخبره أن عمر وصاحبه هربا لينجوا بأنفسهما بعد أن أظهرا الفساد وأهلكا العباد، وبعد أن انتهى اليوم على أحسن حال من الود والفرح والصفاء قال الأمير: إلى مضطر أن أعود إلى حلب وأرحل من هذا المكان بعد خمسة أيام، فقال فرهود: وسأنيب عني في المدينة أحد أبناء عمي، وأستعد من الآن للرحيل معك لأكون طوع أمرك متى شئت. فشكره وسلم عليه وعلي رفاقه ورجع هو ومن معه إلى معسكرهم.

***

﴿ ١١ ﴾

وجاء اليوم الموعود ورحلوا جميعًا ومعهم فرهود في أهله وثمانين ألفًا من جنوده ورجاله، وما زالوا سائرين حتى ضربوا خيامهم في مصر وأقاموا فيها للراحة، وفي أثناء مقامهم بمصر قال المعتدي حامي السواحل لحمزة وهو في مجلس حافل من قومه: اعلم أيها الأمير أننا رأينا أن يكون لنا ملك نكون تحت أمره ونهيه ويدير شئوننا بمعونة الوزراء وأهل الرأي فينا، فقال: ذلك أصلح لأمرنا فافعلوا ما شئتم، وما أنا إلا واحد منكم، فقال المعتدي: قد اتفقنا على أن تكون أنت ملكنا وندين لك بالطاعة، فقال حمزة: ذلك ما لا أقبله ولا يمكن أن يكون، لأن الملك من شأنه ألا يحمل سلاحًا، ولا يخوض هو نفسه غمرات القتال، وأنا رجل حرب ولا يمكن أن أرى قتالا وأقف أمامه مكتوف الأيدي، فنظر بعضهم إلى بعض وتشاوروا فيما بينهم، ثم قال المعتدي: لقد قلت الحق وآمنا به وقد اخترنا ابنك عمر اليوناني ملكًا.

فقال عمر: ذلك ما لا أرضاه لأن شأني كشأن أبي، ولا يختلف عنه في قليل ولا كثير، فقال المعتدي: إن قباط ابنك وابن مهردكار لا يعرف حربًا ولا قتالًا، وقد تربى على سعة المعرفة والعلوم، وقد اخترناه ملكًا، فهو ابن أمير، وأمه بنت ملك. فقال: أصبتم الاختيار ولكني أود ألا يكون لي رأي في اختياره أمام أمه، حتى أكون بعيدًا عن لومها إذا ما أصابه مكروه أو نصب، ولهذا أرى أن تذهبوا أنتم إلى أمه وتذكروا لها رأيكم وما اتفقتم عليه في شأن ابنها، فإن رضيت فإني راض ولا مانع لدي.

فذهبوا إليها وعرضوا عليها الأمر فقالت: ولماذا لم يأت معكم أبوه حمزة؟ أليس هو شريكي فيه ولا بد من رأيه؟ فقالوا: عرضنا عليه الأمر فوافق، ولكنه قال: لا بد من أخذ رأي أمه وموافقتها فجئناك لهذا. فقالت: إني راضية بشرط أن يأتي الأمير حمزة أو أخوه عمر العيار ويحلف معكم أن

تكونوا مجتمعين على محبته عاملين وساهرين على راحته. فرضوا بما قالت: أما حمزة فإنه أبي أن يدخل معهم في اليمين لأنه حريص أن يكون بعيدًا عن لوم زوجته مهردكار، وأما عمر فإنه رضى وذهب معهم فأقسموا اليمين وولوه ملكًا، وقال قباط: قد اخترت عمر العيار وزيري الأول، فقال عمر ولن أقبل هذا المنصب إلا إذا كنت حرًا أذهب وأجيء وأحضر وأغيب حسب إرادتي، لأن عملي في المحافظة على العرب والتنكيل بالأعداء يستوجب مني ذلك.

فرضي الملك ورضي العرب ونودي بقباط ملكًا وعمر العيار وزيره الأول، ولبث العرب في مصر مدة شهرين على هذه الحال الجديدة، وقبل أن يبرحا مصر جاءهم كتاب من كسرى يقول:

- لقد أسأتم إلينا، وانتهكتم حرمتنا، وقتلتم مرازبتنا، وحططتم من قدرنا؛ وقد عولت على ألا يذكر اسمكم أمامي، وأن أترككم وشأنكم لعلكم ترجعون من أنفسكم عن غيكم وبغيكم، وتسكنون بلادكم وتتركون عدوانكم على غيركم؛ ولكن بلغني أنكم لا تزالون سائرين في طريق بغيكم واعتدائكم، فجعلتم لأنفسكم ملكًا تدينون بطاعته، وأرسلتم إلى عمال البلاد تدعونهم إلى طاعته ليصبح لكم بذلك ملك ودولة كملك كسرى ودولته؛ ولهذا فقد قررت أن أقتفي آثاركم، ولا أسكت عن قتالكم حتى أفك جماعتكم، وأجعلكم هملا لا راعي لكم.

وقرأ عمر العيار الكتاب على مسمع من الملك وجماعة الأمراء فقال الملك قباط: ماذا ترون في هذا يا سادة العرب؟ فقالوا: أطلعنا على رأيك لننظر فيه، فقال الملك لكاتبه: اكتب ما أمليه عليك فكتب:

- «من السلطان قباط بن الأمير حمزة إلى جده كسرى أنو شروان.

عرفت ما حواه كتابك فعجبت من عتوك وجهلك، وفهمك أن العرب من أتباعك، وأنك أنت ولي أمرهم، والحاكم فيهم فدخلت فيما لا يدخل فيه إلا كل جاهل أحمق، وطلبت ألا يكون لهم سلطان كسلطانك ودولة كدولتك، فاعلم أن العرب أثبت منك قدمًا، وأمضى سيفًا وأصح دينًا

وأعدل حكمًا وأسلم عاقبة، ونحن جادون في أن تكون لهم الكلمة العليا لأنهم يدينون بدين الله الذي يعز عباده المؤمنين، والذي لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض، والسلام على من آمن بالله وأطاعه».

أعجب الحاضرون بهذا الكتاب، ودفعوه إلى رسول كسرى. فأخذه ومضى، ثم أمر الملك بالرحيل إلى حلب، وكان أندهوق بن سعد قد رجع إليهم إذ ذاك من بلاده في ألوف من رجاله، فرحلوا وما زالوا يسيرون حتى وصلوا إلى المدينة وضربوا خيامهم عندها.

وعرف عمر العيار من بزرجمهر أن كسرى بنى مدينة نهروان واتخذها مخزنًا للمئونة والسلاح، وفيها أفلنطوش وزوبين، وأشار على العرب أن يهجموا عليها ويأخذوا ما فيها من الأموال والمئونة قبل أن يأتيهم داهور الهندي بجيوشه، وكان قد دل كسرى عليه ليستعين به على العرب بختك الخائن وزيره، ونفذ العرب مشورته فانتقلوا إلى نهروان وقتلوا كثيرًا من فرسان العجم، وقتلوا أفلنطوش وزوبين الغدار وعمر الحبشي وصقلان الرومي وغيرهم، فلما بلغ كسرى ذلك غضب وقال لبختك: ما أضلنا إلا اتباعك! ولقد كنت في غنى عن عداوة العرب، فقال: ومن عرفهم أنك بنيت مدينة النهروان؟! ومع هذا فإن داهور ملك الهند سيكون هنا عن قريب، وهو الذي سيقطع دابرهم.

جاء داهور في جيش لا حصر له، إذ كان إحدى وعشرين فرقة، وكل فرقة مائة ألف فارس، وكان عدد العرب قليلا جدا بالنسبة إلى عدد جيش داهور وحده، ومع هذا فقد استطاعوا أن يثبتوا أمامه ويقتلوا منه كثيرًا بعد قتال دام أيامًا، ووجد العرب فيه من الشدة والضيق ما أفزعهم، وكادوا يستيئسون، لولا أن حمزة أعلن فيهم أنه سيقتل هذا الطاغية.

وحاول حمزة أن يقتل داهور ليكون قتله وسيلة إلى إضعاف جنده فما استطاع، وخيف على حمزة من داهور هذا لأنه كان فارسًا لا يطاق، طويل القامة، عريض الصدر، ممتلئ الجسم، قوي العضل، فاستشار عمر العيار بزرجمهر في أمر داهور وإصرار حمزة على قتله، فقال بزرجمهر بلغ قومك أن

يرحلوا إلى مكة وينتظروا فيها الفارس الموعود بقتل داهور، فإن وجودكم هنا لا يغنيكم شيئًا، ولكنه يفقدكم جنودًا كثيرة، فأطاعه ورجع إلى حمزة وقباط ملك العرب وأخبرهم بما قاله بزرجمهر، فأمر ملكهم برحيلهم إلى مكة، ونهض الأعداء في الصباح فوجدوا أرضهم خالية، وبلغ كسرى ومجلسه نبأ رحيلهم، فقال الوزير بختك: إنهم خافوا من داهور فرحلوا، فلنرسل الجواسيس من خلفهم لنعرف إلى أين يذهبون، فأمر كسرى أن تقتفي الجواسيس آثارهم، فانطلقوا من ورائهم ورجعوا بعد يومين وقالوا: إنهم أخذوا طريقهم إلى مكة، فقال بختك: إنهم لن يعودوا إلى مكة إلا إذا يئسوا من النصر وانقطع رجاؤهم. ومن الواجب أن نتبعهم حتى نبيدهم فأمر كسرى أن يغزوهم في ديارهم.

***

﴿ ١٢ ﴾

وصل كسرى وجيشه إلى أرض مكة وضربوا خيامهم في ضواحيها وفيهم داهور وجيشه، ولما استقروا قال داهور: إني تعبت من قتال حمزة، والحق إنه بطل عظيم، وإن قاتلته مدى الحياة فلن أقدر عليه. وأريد أن نسكت عن الحرب عدة أيام حتى أستريح لأن العجم ليس فيهم واحد غيري، أما العرب فجميعهم أبطال وفرسان إذا مات منهم بطل قام بطل، وانفلت عمر العيار إلى بزرجمهر يستشيره في أمر الحرب والقتال، فقال: إن منية داهور على يد فارس شاب أشقر اللون، طويل القامة، فانتظروا في مدينتكم حتى يأتيكم الله بالفرج، وبعد ثلاثة أيام من انتظارهم خرج عمر العيار إلى القفار ونظر في مرآته عسى أن يرى ذلك الشاب الذي أشار إليه بزرجمهر في قوله، فرآه مقبلا على جواد ينهب الأرض نهبًا، وبين يديه غلام أسمر اللون دقيق الأرجل كأنه عفريت من الجن، فوضع المرآة في جيبه وانطلق نحوه ليتبينه، وعند المساء كان قد دنا منه وتبين الفارس وعياره، فكمن في جب وانتظر ما يكون منه؛ هل يبيت الليلة في هذا المكان، أو يستمر في سيره، ولما قرب الفارس منه تحرك في الجب وشعر الجواد به فتأخر.

فقال الفارس لعياره: ويحك يا سيار.. انظر في الطريق إلى ما أمام فرسي سلمى، فإن كان وحشًا فاقتله، وإن كان عفريتًا فأخبرني لأنزل إليه، وإن كان إنسانًا فانصح له ألا يتعرض لرستم فرتم بن حمزة البهلوان.

وبعد لحظة قبض سيار العيار على عمر ورماه أمام الفرس، فقال رستم: من هذا؟

فقال: عفريت أسود يريد أن يفزعنا ليعوقنا عن الوصول إلى مكة قبل الصباح، فقال: لا تمدد يدك إليه قبل أن أراه، وقفز على الأرض فوجد سيارًا واقفًا أمام عمر وفي يده خنجره ينذره القتل إن هرب.

سيار الصياد يقبض على عمر

فلما رآه رستم قال: إنك إنسان فأخبرني ما الذي جاء بك إلى هذا المكان في ذلك الليل؟ وإن قلت الحق نجوت وعفوت عنك وإلا قتلتك.

فقال عمر: إني لا أخاف ألف فارس مثلك وألفًا مثل عيارك، وسأقول لك الحق على شرط أن تجيبني عما أسألك عنه، فقال: سل ما شئت، فقال: أخبرني عن اسمك واسم أبيك فقال: أنا رستم فرتم بن حمزة البهلوان، قال: وما اسم أمك واسم أبيها؟ فقال: أمي مريم بنت الملك قيصر، فقال: ومن يكون هذا الغلام؟ فقال: عياري سيار بن الأمير عمر العيار فقال: ولكني رأيت عيارك قليل الأدب، فقال: وكيف عرفت هذا وأنت لم تعامله ولم تعش معه؟ فقال: يسطو على أبيه بخنجره يبغي قتله!! وهل بعد ذلك عقوق وقلة أدب؟ إني عمر العيار وأبو سيار هذا، وقد جئت إلى هذا المكان لأنتظرك لأن قهر أعدائنا مرهون بقدومك، فعجبوا وسلم بعضهم على بعض، وقبل سيار يد والده، واعتذر إليه فقبل عذره.

ثم سأل رستم عن أبيه فحكى له قصة العرب وكسرى من أولها إلى آخرها، فقال: ولن أدخل مكة حتى أقتل داهور وكسرى وبختك، وأصب على جيشهم الوبال والويل؛ ثم رجع عمر إلى قومه وأيقظ حمزة ورفاقه وأخبرهم بما وقع له مع رستم وأمرهم أن يستعدوا للقتال في الصباح. وأخبرهم أن الفارس الذي أخبرنا به بزرجمهر أقبل، وأنه ابن الأمير حمزة من مريم بنت الملك قيصر، ومعه عياره وهو سيار ابني من جارية مريم، ففرحوا وأخذوا يتأهبون لبدء القتال في الصباح.

بدأ القتال في الصباح واستمر عنيفًا بين الفريقين، أخذ رستم يبحث عن داهور حتى التقى به فدار بينهما قتال عنيف، ووقف قتال الحملة ليتمتع الناس بمبارزة الفارسين واحد بفيله والآخر بفرسه، وظلت المعركة حتى شق رستم بسيفه داهور نصفين، وسقط على الأرض يتخبط في دمه، ورأى جيشه وجيش كسرى ما حل بداهور وما أصابهم من الفتك الذريع، فولوا أدبارهم، ورجعوا إلى ديارهم خائبين.

وبعد شهر من رحيل كسرى وجيشه جمع الملك قباط سادات العرب

وقال: إن كسرى لن يسكت عن قتالنا ما دام الوزير بختك عنده، وأرى أن نذهب بجيوشنا إلى المدائن، ونطلب من كسرى أن يعطينا وزيره بختك لنقتله حتى يدوم الود بيننا وبينه، ويشغل كل منا بشئون دولته وصلاح أمرها، فإن رضى أخذناه وتركنا كسرى وسالمناه، وإن أبى حاربناه واقتحمنا مدينته وأزلنا ملكه، فأعجبهم هذا الرأي وأخذوا في الاستعداد للرحيل.

سار العرب إلى المدائن، وضربوا خيامهم من حولها وحاصروها، ثم أرسلوا إليه كتابًا بما قاله ملكهم، فأحضر كسرى وزيره بختك وقال له: إن نجاة ملكنا في تسليمك إلى العرب، وليس لدي مانع من ذلك، لأنك أنت السبب في كل هذه المصائب، ولم أجدك في كل مرة من المرات جلبت خيرًا أو دفعت شرًا، فقال: إني أعطيك الآن عهدًا ألا يتحرك لساني بالعرب، وألا أذكر لك شيئًا يتعلق بهم، فإذا عاهدتهم على ذلك تكون قد أرضيتهم وحافظت على حياتي، فقال: إنهم لا يطمئنون لهذا لأنهم عرفوك بالغدر والخيانة، فقال: سأدلك على طريقة ترضيهم.

فقال: وما هي؟ فقال: إنهم يطمئنون إلى الوزير بزرجمهر ويستمعون لنصحه، فكلفه ذلك وهو كفيل بإرضائهم والقضاء على حالة الحرب بيننا وبينهم، فالتفت كسرى إلى الوزير بزرجمهر وكان حاضرًا قراءة كتاب العرب وما دار من الحديث بين كسرى وبختك وقال له: أظنك قادرًا على تحقيق ما قال بختك؟! فلم يجد بدا من القبول وقال: سأذهب إليهم وأجتهد في إرضائهم، وأرجو أن أفوز بالنجاح في مسعاي.. ثم ذهب إلى العرب ففرحوا به وأكرموا قدومه، وعرض عليهم ما جاء من أجله، ثم قال: إني متألم لقدومي إليكم في مثل هذا الأمر لأني أبغى لبختك الهلاك لتستريحوا ويستريح كسرى من شره، ولكن كسرى كبير الأمل في نجاحي.

فقال حمزة: نحن لا نرد لك رجاء، ولا نخالف لك أمرًا، وأرى أن نسالم كسرى دون قيد أو شرط، ولكن نلبث مقيمين في مكان بعيد عن المدينة بمسير نصف ساعة مدة شهرين، وتكون المدينة مفتوحة الأبواب لرجالنا يدخلون ويخرجون كما يشاءون، ويكون معسكرنا مفتوحًا لرجالهم أيضًا،

فإن مضى الشهران ولم يعمل بختك عملا يدل على أنه لا يزال سادرًا في غدره تركنا المدينة وسالمنا ورجعنا إلى ديارنا، وإن لعب الغدر في صدره، ورجع إلى سيرته الأولى طلبناه وأصررنا على أخذه، فإن أبى حاربناه وأزلنا ملكه.

فقال بزرجمهر: لكم شكري وسأبلغه ذلك، ورجع بزرجمهر إلى ملكه كسرى وذكر له ما دار من الحديث بينه وبين سلطان العرب.

فقال كسرى: رضيت بذلك.

وقال بختك في نفسه: لقد نجوت من أيديهم، ولن أسكت عن تدميرهم ما دمت حيا، ثم أخذ يفكر في حيلة يكون بها هلاكهم وكان أهم شيء يفكر فيه أن يقتل أولاد حمزة ليعيش كئيبًا مشغولا بالحزن على أولاده.

❊❊❊

عَوْدَة مهردكار

﴿ ١ ﴾

جلا العرب عن المدائن، وضربوا خيامهم على مسافة نصف ساعة منها، واختلط المعسكر وأهل المدينة بعضهم ببعض، واتخذ المعسكر سوقًا لفاكهة المدينة وبضاعتها، وكان بختك منكبا على نصب شرك الغدر والمكيدة. فخلا إلى فرمز تاج بن كسرى وقال له: إن عندي سرًا أريد أن أطلعك عليه، بعد أن تقسم لى أن تكتمه في صدرك ولا تبديه لأحد، وفيه الخير العظيم.

ولما أقسم له قال: دار بيني وبين أبيك حديث في شأن الملك، وقال أبوك: لقد كبرت سني وأتعبني الملك وشئونه، ورغبت في التنازل عنه إلى ابني خرسف لأنه عاقل حازم يجيد السياسة ويحسن التدبير، فقلت له: إن فرمز تاج ابنك أولى بالملك من أخيه لأنه أقوى إدراكًا منه فقال: إن فرمز تاج يحب العرب، وما رأيت منه عملا يؤهله للملك ويجعله أحق به من أخيه، وطال بيني وبينه الجدال في هذا الأمر، وما استطعت أن أصرف أباك عن رأيه، فأرجأت النظر فيه إلى جلسة أخرى حتى أتمكن من الاجتماع بك وتدبير طريقة ترضي أباك.

فقال فرمز تاج: أنت أبي فدبر ما شئت، ومرني بما شئت، وإن أصبحت ملكًا فستكون شريكي، وصاحب الأمر والنهي معي، فقال: فكرت كثيرًا ولم أجد إلا طريقة واحدة وهي كفيلة بتحقيق ما نريد، فقال فرمز تاج: وما تلك؟

فقال: أن تذهب إلى عمر اليوناني بن حمزة وتتودد إليه وتأكل عنده، وتصادقه، ثم تضيفه في قصرك، وحينئذ تقبض عليه وتسلمه إلى أبيك، وإذ ذاك أبين له اهتمامك بشأن الملك، وقدرتك على الاضطلاع به، والنهوض بأعبائه، ثم اترك لي تدبير ما بقي ليكون الملك لك دون أخيك، ففرح فرمز تاج ونهض واعدًا أنه سيفعل ما أشار به في سر وخفاء. ثم خلا بختك

إلى خرسف بن كسرى وسلك معه المسلك الذي سلكه مع أخيه فرمز تاج، وأمره أن يقبض على رستم فرتم بن الحمزة بالطريقة نفسها، ففرح ووعده أن يقوم بما أمر.

وفي الصباح ذهب فرمز تاج إلى عمر اليوناني فاستقبله استقبالًا عربيًا كريمًا، ولما جلس فرمز تاج واطمأن قال: لقد رأيت من العار أن نكون في سلام، ثم نتقاعد عن زيارتكم والسؤال عنكم والقيام بما تحتاجون إليه من شئون الغربة وأمور المعيشة، فجئتك لأكون في خدمتك، ولأمكن للمودة بيننا وبينكم، ولو أطاعني أبي لقتل وزيره بختك بن قرقيش جرثومة الشر، وموقد نار العداوة بين العرب والعجم، ولكنه يحبه ويطيعه ونحن من الغيظ منه في نار حامية.

فقال عمر: لقد عرف العرب ذلك ويبدو لي أن تسليمكم الوزير بختك إلينا يقلع جذور الشر بيننا وبينكم ثم أمر عمر بالطعام فحضر، وأكلوا وانقضى اليوم في صفاء ومودة، ثم رجع فرمز تاج واجتمع ببختك وأطلعه على ما دار من الحديث بينه وبين عمر، فقال: أحسنت وعليك أن تلزم هذه الخطة حتى تقبض عليه.

وذهب خرسف إلى رستم فرتم وقضى نهاره معه في خالص من الوئام والمؤانسة، وتوطيد دعائم السلم بين العرب والعجم بالقضاء على بختك الوزير بأية وسيلة، ثم رجع وأطلع بختك على ما كان بينهما في ذلك اليوم، فقال أحسنت، وعليك أن تلزم هذه الخطة حتى تقبض عليه.

شغل بختك الأخوين الشقيقين بأمر مزعوم لا حقيقة له، وجعل كل منهما يختلف إلى صاحبه كل يوم، وكان عمر العيار يرقب حركاتهما وزياراتهما، وأدرك أنهما ينفذان مكيدة دبرها الوزير بختك.

وذات يوم عند الغروب رأى عمر اليوناني خارجًا من المعسكر في صحبة فرمز تاج ورستم فرتم خارجًا في صحبة خرسف، وكانت المدائن وجهتهم فأسرع إلى حمزة أخيه وقال: أدرك ابنيك. فقد خدعهما فرمز تاج وخرسف بتدبير بختك وأخذاهما إلى المدينة للقبض عليهما وقتلهما، فنهض وركب

اليقظان وطار به من أقرب الطرق وانتظرهما.

وصل فرمز تاج ومعه عمر إلى حمزة فخفق قلبه وخاف أن يكون أدرك السر والغاية، وحيا الأمير حمزة وهو يكاد يسقط من الخوف، فأجابه الأمير بالتعنيف القارس وشتمه وشتم أباه وقال: لولا أننا وعدناكم بالهدنة لقتلتك، وما كاد ينتهي من تعنيفه حتى أقبل خرسف ومعه رستم فرتم فقال: الله الله !! أذلك عهدكم الذي عاهدتمونا عليه؟ ! أما علمتم أن كسرى وأولاده وملكه لا يزن عندي قلامة ظفر لأحد أبنائي؟! إن بختك يضحك عليكم كما ضحك على أبيكم من قبل، وأنتم كالحيوان الأعجم تساقون إلى المذبح وأنتم لاهون، والآن قد حرمت على أولادي وفرساني ألا يدخل أحد منهم مدينتكم إلا بإذن مني، أو من الملك قباط، فقال اليوناني: طب نفسًا يا أبي فقد حرمنا المدينة علينا إلا بإذنك، والحمد لله الذي نجانا من مكرهم، ولولا عمي عمر لنفذت فينا حيلتهم. أما رستم فإنه لا يزال واثقًا بخرسف وصدقه في مودته، ونفذ الأمر طاعة لوالده واحترامًا.

خجل فرمز تاج من هذه الحال، وعظم في نفسه أن يكون غاشًّا خائنًا، وخاف أن يقتله الأمير حمزة إن حاول أخذ ابنه مرة ثانية، فأعرض عن بختك، وأبى أن يطيعه على الرغم من إلحافه، وقال: لا أريد ملكًا يأتيني بالغش والخيانة ودونك أخي فليأخذ الملك كما يشاء.

واجتمع بختك بخرسف وحمله على أن يعالج دعوة صاحبه إلى المدينة مرة أخرى فقال له: لا تدفعنا إلى الخطر، فإن محاولتي مرة ثانية لا جواب لها إلا إلقاء رأسي تحت قدمي. فقال بختك: لا تأت به المدينة ولكن خذه معك إلى الصيد، ثم عد به إلى معسكره عدة أيام حتى يطمئن، وفي يوم كذا خذه إلى وادي الغزلان، وتأخر به إلى المساء، واجعل مبيتك في قرية فلان، ودع لي بقية المكيدة، فإني سأبعث إلى صاحب القرية ليقتله، وتبرأ أنت من دمه.

وفي اليوم الموعود خرج رستم فرتم للصيد، وإلى جانبه خرسف، وبين يديه سيار عياره، وقاده خرسف إلى وادي الغزلان من طريق وعر متعرج صاعد هابط لا يمكن لأحد أن يسلكه إلا في ضوء النهار، وأعجب رستم

الوادي وطيب هوائه وكثرة غزلانه، فجعل يصيد وهو مسرور، وألهاه الصيد عن العودة حتى أقبل الظلام، وأراد الرجوع فقال خرسف لا يمكن أن نسلك في ظلام الطريق الذي جئنا منه، وقد رأيت كيف تعبنا ونحن سائرون فيه والشمس ساطعة، فقال: أليس لهذا الوادي طريق آخر؟ فقال: له طريق ولكن بينه وبين المدائن مسير عشرة أيام، فقال: أليس هنا كهف نأوي فيه الليلة؟

فقال خرسف: يمكن أن نبيت الليلة في هذا المكان، فإن بالقرب منا قرية صغيرة جميلة، ومن الممكن أن نبيت عند صاحبها، ونجعله يشوي لنا من هذا الذي صدناه، ثم نحمل الباقي في الصباح راجعين، فقال رستم: ليس لدي مانع.

فرح صاحب القرية بقدومهم، وأكرم ضيافتهم وقدم لهم مائدة حوت شهي الطعام فأكلوا وشربوا؛ ولما جاء موعد النوم أخذه شيخ القرية إلى غرفة ضيقة لينام فيها، ولما دخلها تذكر الفرس وسيارًا فخرج ليطمئن عليهما، ورأى إذ ذاك شبحًا يمشي متلصصًا إلى الغرفة التي أعدت له، فأخرج سيفه وذهب إليه ليقتله فقال ذلك الشبح: ارجع يا رستم ولا تقتل من جاءت لتنقذك من الموت، فقال: ومن أنت؟!

فقالت: أنا بنت شيخ العزبة الذي أكلتم طعامه، وقد جاءه منذ ثلاثة أيام كتاب من بختك وزير كسرى يقول له: سيأتيك في خلال هذا الأسبوع الأمير خرسف بن كسرى ومعه رستم فرتم بن حمزة البهلوان وغلام أسود، فاصبر عليه حتى ينام، ثم اهجم عليه بخمسين رجلا واقتله، واقتل غلامه واحذر أن يفلت منهما أحد، واعلم بأن خرسف يحتال الآن ليسحبه إليك. فانج بنفسك، وما جئتك الآن إلا لنجاتك، لأني لا أحب الغدر وأهله ولعل الله ينجيني منهم، فقد رأوني وأنا قادمة إلى غرفتك فقال: شكرًا لك، وإذا أحببت الهرب معي حميتك منهم ومن غيرهم، وأرى أن الحزم يقضي عليك بالرحيل معي، ولا ينبغي لي أن أتركك وأكون سببًا في ضرك بعد أن دفعت عني هلاكًا كان محتومًا، فاذهبي إلى بيتك واستعدي للرحيل، ثم شهر سيفه

وانتحى ناحية حتى جاء الرجال الخمسون فلقيهم بسيفه وجعل يحصدهم حصدًا فقتل كثيرًا منهم وفر باقيهم هربًا. ثم دخل على خرسف في مكانه، فوقف يرتعش وهو يظهر أنه لم يعلم شيئًا وقال: ما وراءك يا رستم ؟!

فأجابه بضربة من سيفه أردته قتيلًا، ثم قطع رأسه وأخذه، وأردف الفتاة خلفه، وسار يتخبط في ظلام الليل حتى ظهر نور الفجر، واستمر سائرًا حتى وجد فرسان العرب متفرقين باحثين، وأبوه معهم يبحث مثلهم، واجتمع شتيتهم حين وجدوه، ثم سأله أبوه عن غيبته هذه فقال: أستغفرك أولا يا أبي، وما أنا بعاص بعد ذلك أمر الملك. فإن الأمر كان كيت وكيت وحكى له ما حصل ثم قال: وهذه الفتاة ابنة شيخ القرية سبب نجاتي، وكأنها وهبت لي حياة جديدة. ثم رجعوا إلى صوان الملك، واجتمع سادات العرب، وعرفوا ما حصل، وأرسل رستم سيارًا عياره، برأس خرسف إلى المدائن، وقال له علقه على باب الديوان في ظلام الليل ثم ارجع، ففعل سيار وعلقه وعاد من فوره. ورآها قوم كسرى في الصباح، فصاحوا وهاجوا وماجوا، وجاءه كسرى فكاد يغشى عليه من الهم، وكان بختك في خوف عظيم لأنه يخشى أن يفتضح أمره، ثم أقبل العرب على المدينة وحاصروها، فلم يسمحوا بدخول أحد فيها ولا خروجه منها.

وجمع كسرى رجاله ووزراءه وقال: لوزيره بزرجمهر أرأيت كيف نقض العرب العهد، وخانوا الأمانة؟

فقال بزرجمهر: ما نقض العرب عهدًا وما خانوا وقد وعدوني وعدًا صادقًا، ولكن بختك دبر مكيدة أودت بابن سيده وجعل المدينة في حصار لا نعلم مداه ولا مصيره، لقد كان خرسف يذهب إلى رستم هذا كل يوم، وما ذلك إلا لغاية يعرفها، وعمل لها الوزير بختك، وما تركنا ندبر الأمر لدفع العرب عنا وطردهم من بلادنا فوقع هذا القول من نفس كسرى موقع القبول وقال لبختك: إما أن تحتال في رفع الحصار ودفع العرب عن بلادنا، وإما صالحت العرب ودفعتك إليهم يمزقونك شر ممزق، وقد أمهلتك بضعة أيام، وغير هذا لا أحب أن أسمعه.

وأردف الفتاة خلفه وسار

وبقيت المدينة في حصار شديد. وفي أثناء الحصار خرج رستم للصيد ومعه سيار عياره، فرأى غزالة أعجبه شكلها، ورام صيدها ففرت منه، وجرى بجواده خلفها حتى دخلت قصرًا أقيم في الخلاء فدخلته هاربة، فطرق رستم الباب، وأطلت من نافذته بنت جميلة وقالت: من الطارق؟ فقال: كنت أجري خلف غزالة لصيدها، ودخلت هذا القصر فقالت: لقد دخلت في حمانا فإن شئت قبلت رجاءنا فيها، فقال: ومن أنت حتى أنظر في رجائك؟

فقالت: أنا قمر شاه بنت حاكم مدينة خوارزم، ومن أنت حتى أعرف من وضعت رجائي عنده؟ فقال: أنا رستم فرتم بن الأمير حمزة البهلوان، فتهلل وجهها فرحًا وقالت: أهلا وسهلًا، تفضل على الرحب والسعة، فأنت ضيفنا الكريم، ثم نزلت واستقبلته وقامت بوسائل إكرامه وراحته، ووجد منها طهر العفاف وعلو النفس، وشمم الفضيلة، وأدب الحديث، وحسن المعاملة، فراودته نفسه أن تكون له زوجة، وبات عازمًا على أن يتحدث إلى أبيها في شأنها، وفي الصباح وفد إلى أبيها خاطبًا، ولما كلمه في أمرها قال: أمهلني حتى أعرض عليها الأمر وأرى رأيها، فلما حدثها أبوها قالت: إن في رجالنا كثيرًا من أمثاله، فكيف ترضى أن أتزوج من رجل غريب على غير ديننا؟

فقال: إنه من بيت الإمارة في العرب لأنه ابن الأمير حمزة الذي ذاع صيته، وعرفه القريب والبعيد، وسيقوى شأننا بمصاهرته، ولهذا فإني أراه لك يا بنيتي خير زوج، فقالت: كما تشاء يا والدي، وفرح أبوها وأبرم عقد الزواج وأقام عندها أيامًا. ثم رجع إلى معسكره، وأراد الله أن يكون له منها ولد اسمه قاسم.

وذهب عمر العيار إلى بزرجمهر ليعرف ماذا عزم عليه كسرى في أمر بختك بعد أن قتل ابنه خرسف، فقال بزرجمهر: ما دام بختك حيا فإن كسرى لن يقعد عن قتالكم، وقد أرسل في جمع الجنود، واستعان برعد المنقش حاكم مدينة صنداي وعما قريب يصل إلى المدائن في جنوده التي لا تحصى عدًّا،

وأرى أن تذهبوا إلى حلب، وتقيموا هناك فهو خير من بقائكم، فرجع عمر وأخبر الملك ورجاله بما سمعه، فأمر الملك بالرحيل إلى حلب، فصدعوا بأمره وارتحلوا.

عرف بختك أنهم رحلوا إلى حلب، وكان قد جاء رعد المنقش بجيوشه الجرارة واستقبله كسرى فرحًا به وشكا له ما قاساه من العرب، فقال: وكيف كان ذلك وأنتم أكثر منهم عددًا وأعظم قوة؟

فقال: ذلك ما كان وما وجدنا منهم راحة، وأخشى على الملك منهم.

فقال رعد: سأجعلهم هباء تذروه الرياح، فطب نفسًا وانتظر ما سيكون، وبعد أيام من قدومه أمر كسرى بالمسير إلى العرب في حلب، وهناك قامت حرب قاسية بين الفريقين دامت خمسة عشر يومًا، وقتل العرب من أعدائهم كثيرًا حتى جاء يوم برز فيه رعد المنقش في الميدان طالبًا من يبارزه، فبرز إليه فارس عربى، وتلقاه رعد فما أمهله حتى أرداه ؛ وغضب حمزة وهم أن يبرز إليه، ولكن الفرسان تزاحموا وتنافسوا وكل يريد أن يبرز إلى رعد، وانطلق من بينهم فارس وكان في غمضة الطرف أمام رعد وأخذ يجالده ويحاوره، وبينما هما في احتدام الجلاد انشق جيش العجم عن غلام فوق جواد كأنه الليل الحالك، وبين يديه غلام أحمر اللون، وكان يدور حول الجواد كأنه طائر، ووقف الغلام في وسط الميدان وعجب الجمعان من أمره، لا يدري كل منهما ما يفعله، وكان أشد ذلك عجبهم من الغلام الصغير الذي كان يعدو أمام الجواد ومن خلفه، ويدور حوله كأنه عفريت من الجن، ثم هجم على رعد هجمة الأسد وكان حمزة إذ ذاك ينبض قلبه عطفًا وحنانًا على هذا الغلام، ويود أن يفديه بنفسه دون أن يفهم لذلك سببًا، وقد تقصفت في أيديهما الرماح وعمدا إلى السيوف، وانعقدت الأنظار برعد والغلام.

ثم صاح الغلام صيحة ارتجت لها قلوب الجمعين ورفع يده وقال: خذها ضربة قاضية من سعد الطوقي بن حمزة من زوجته لوعة القلوب، فنزلت على عنقه وفصلت رأسه من جسده، وسقط على الأرض قتيلًا.

وفزع كسرى وبختك، وأمروا الجنود بالحملة، فلقيهم العرب وأمراؤهم

وأذاقوهم مريرًا، وخاف كسرى أن يقتل أو يؤسر ففر هاربًا وفر من خلفه جيشه، وجعل العرب يطردونهم حتى بعدوا، واستمروا سائرين حتى دخلوا المدائن وهم في غم عظيم.

أما العرب فقد فرحوا بنصرهم وبابن الأمير حمزة سعد الطوقي من زوجته لوعة القلوب، وكان الغلام الذي معه عياره وهو الذئب بن عمر العيار من فانوس جارية لوعة القلوب. واجتمع الأمير حمزة بزوجته لوعة القلوب وابنها سعد الطوقى، كما اجتمع عمر العيار بزوجته فانوس وابنه الذئب عيار سعد، وأخذت كل زوجة تقص على زوجها كثيرًا من أنبائها وأنباء ابنها.

❊❊❊

﴿ ٢ ﴾

وجمع الملك قباط أمراءه وعرض عليهم أن يرحلوا إلى المدائن ومحاصرتها. والتضييق على أهلها حتى يذعنوا لإرادة العرب ويستقر السلام. فوافقوا على ذلك، وأمرهم أن يشدوا رحالهم إليها، وهناك نزلوا وضربوا خيامهم وبعثوا إلى كسرى يطلبون منه وزيره بختك، ويعقدون صلحًا على أن تنتهي الحرب ويطمئن كل فريق في دياره.

قرأ الوزير بزرجمهر رسالة ملك العرب، والتفت كسرى إلى بختك وقال: لقد علمت ما صببته علي وعلى بلادي من المصائب والأهوال والمهانة بآرائك الفاسدة وحقدك الذميم وكيدك الظالم الذي جعلك منا في موقف العاق الجاحد الذي لا يهمه إلا نفسه، وإشباع الخبث الذي يلعب في صدره، وقد أصبحت راحتنا وسلامتنا في تسليمك إلى العرب، وذلك حق لا مرية فيه، لأنك أصل هذا الشقاق ووقوده، وإذا سلمناك لا نكون قد ظلمناك، ومن الخطأ أن أحافظ عليك، وأضيع الملك وأخسر البلاد.

فقال بختك: يسرني أن أكون فدية لك ولبلادك، ولكني أعتقد أن العرب وجدوني حجر عثرة في سبيل ثل عرشك، والاستيلاء على بلادك فإذا أسلمتني إليهم وقتلوني فقد زال الحجر الذي يعترض سبيلهم وذلك ما أخشاه عليك بعد قتلي، فالمحافظة على حياتي محافظة على عرشك وبلادك.

فقال كسرى: ولكني ما وجدت من تدبيرك ومكرك إلا شرًّا ودمارًا، فإذا دبرت أمرًا يقضي على ما بيننا وبين العرب من شقاق فلا مانع لدي من المحافظة عليك، ولا أرى ما يدعوهم إلى طلبك مني.

فقال بختك: كلف وزيرك بزرجمهر أن يهادنهم أربعين يومًا، وعلي فيها أن أدبر ما يرضيك وتحمد عاقبته، فأمر كسرى بزرجمهر يهادن العرب أربعين يومًا، وأن يقنعهم بضرورة المهادنة لإقرار السلام بيننا وبينهم وقال له: وإن

امتنعوا وأبوا كان ذلك لتقصير منك في إقناعهم، أو لرغبة منك في امتناعهم وإبائهم.

فقال بزرجمهر: وأية علاقة بيني وبين العرب حتى تحملني تبعة امتناعهم؟ إني لم أذهب إليهم إلا تنفيذًا لأمرك، وأبذل الجهد في مرضاتهم وإقناعهم برغبتك، إن العرب يعرفون أني لست عدوا لهم، لأنني ما وشيت عندك، ولا حركت من أجلهم ضغائن في صدرك، وقبل أن يولد حمزة سعيت في أن يكون من رجالك، وكان الأمر كما أردت وسعيت، ولبث في خدمتك بضع سنين، وكنت راغبًا في أن تزوجه ابنتك، ولو فعلت ذلك كنت الآن سيد ملوك الأرض، فقال كسرى: ذلك حق، ولكن ما مضى فات، والمؤمل غيب، ولك الساعة التي أنت فيها، فاذهب إليهم ودبر بحكمتك ما شئت، فما أنت عندي إلا الوزير الناصح الأمين.

ركب بزرجمهر بغلته، وذهب إلى العرب فرحبوا به وأجلسوه بجوار الملك في صوانه، وقال له الملك: مر بما شئت فما نحن برادين لك أمرًا، فذكر لهم ما دار من الحديث بينه وبين كسرى وبختك، وأن كسرى يريد الهدنة أربعين يومًا، فقال الملك: أشر علينا بما ترى، فإنا فاعلون ما تأمرنا به، وهل يترك الخيانة والغدر إن صالحناه أو هادناه؟

فقال بزرجمهر: لن يسلو الغدر ما دام بختك حيًا، ولهذا أرى ألا تقبلوا لكسرى رغبة، وأن تستمسكوا بطلب بختك وقتله، فقال: وهل نرضى أن ترجع إلى كسرى وتقول له: عجزت عن إقناع العرب وترضيتهم بالصلح أو الهدنة؟ فقال: ذلك ما أردته، وما لا بد منه، وإني راغب في أن تأمر بعض فرسانك أن يتبعوني بسيوفهم، فإذا قربوا من الإيوان صاحوا وشتموني وطردوني، ليعرف كسرى أني عجزت عن إقناعكم. وأنكم أهنتموني وطردتموني، وحينئذ يسكت عن إيفادي لكم، فقال حمزة: معاذ الله أن نفعل ذلك!

فقال بزرجمهر: ذلك شيء لا بد منه، وإن لم تفعلوه أوقعتموني في تعب أليم، فأمر الملك قباط بتنفيذ ما رغب فيه. واختار أربعة من الفرسان،

وكلفهم طرد الوزير بزرجمهر إلى أبواب المدينة، ثم ودعهم وانصرف راجعًا. ولما كان أمام باب المدينة سمع الذين كانوا عنده من أهل المدينة صياحًا والتفتوا فوجدوا الوزير داخلا ومن خلفه أربعة فرسان يطردونه ويشتمونه وينذرونه القتل إن رجع إلى العرب مرة ثانية، فنقل بعضهم هذا إلى كسرى في ديوانه، فالتفت إلى بختك وجعل يوبخه ويؤنبه لأنه كان السبب في إهانة وزيره، وإذا بالوزير بزرجمهر يدخل عليه حزينًا غاضبًا، فقال: لقد علمت يا سيدي ما أنا ممن يقف نفسه موقف الخطأ والإهانة، وأن العرب يعتقدون أن الفرس أعداؤهم لا فرق بين كبيرهم وصغيرهم. وقد كان الموت أحب إلى نفسي من أن أهان من العرب أو أذل، وقد كانت إجابتهم لي أن شتموني وطردوني وقالوا: إن عدت إلينا مرة ثانية قتلناك، فأبدى كسرى أسفه وألمه وقال: ذلك من مصائب بختك وآرائه الخاطئة.

فقال بختك: لقد اهتديت إلى ملكين إن حضرا قضيا على العرب في ساعة واحدة، فأرسل بزرجمهر إلى هارون المجنون صاحب بلاد البردع ومعه كثير من الهدايا والمنح، وسأذهب أنا إلى تركي طاووس التتري صاحب بلاد التتر، فإن جاء هذان الملكان في جنودهم نسخوا العرب كما ينسخ النهار ظلام الليل، فخفق فؤاد بزرجمهر، وكادت مرارته تنفطر إشفاقًا على العرب، أما كسرى فإنه اغتبط وأشرق وجهه وطابت نفسه وقال: خذا ما شئتما من الهدايا واذهبا إليهما في التو والساعة. فحمل كل منهما كثيرًا من الهدايا الغالية ومضى إلى صاحبه.

سار بزرجمهر متمنيًا أن يخفق المسعى ويخيب الرجاء حريصًا على أن يصل نبأ هذا التدبير الجديد الخطير إلى العرب بأية وسيلة، ولكن كيف يستطيع ذلك وقد بدأ الرحيل وخلت منه المدينة، وإن جاءه عمر العيار كعادته فلن يجده؟ واضطرب في مسيره، فهو يخطو إلى الأمام تارة، وتمسكه الأرض تارة فهو جامد لم يتحرك، ويدور على نفسه من الهم والحيرة تارة أخرى، وإذا بعمر العيار يحييه ويسلم عليه، فنزلت عليه السكينة، ووضع يده على كتف عمر وقال: نفست عني بقدومك، وحكى له ما دبر بختك في شأن العرب

وقال: ليكن سعيك منصبًا على إبطال ما دبر، وأن تمنع اجتماع هذين الملكين في المدائن، فإنهما إن اجتمعا وتعاونا في القتال حل بالعرب الفناء المحتوم العاجل. وتلك محنة أرادها الله لحكمة يعلمها، ولكنه لن ينسى المؤمنين الصابرين من عباده.

فشكره عمر ورجع مسرعًا إلى العرب وأخبرهم بما دبره لهم بختك، ثم قال لهم إني ذاهب إلى البردع راجيًا أن يوفقني الله إلى حبس ملكها ومنعه من السير إلى المدائن. فقالوا: وفقك الله وأعانك، ونود ألا تتأخر علينا لتطمئن نفوسنا. دخل عمر على هارون في زي درويش، واستجداه فمنحه العطاء، وخرج من المدينة يمشي فوجد صومعة منعزلة، فسأل عنها فقيل إنها لرجل سطيح له رأى نافذ في أهل المدينة وملكها هارون الذي لا يفعل أمرًا يخالف رأيه. فبرق نجم الأمل في نفس عمر، وتنكر في زي راهب، ومضى إلى الصومعة وطاف بها فلم يجد لها بابًا، ونادى من فيها فأطل عليه من نافذتها واحد من تلاميذ السطيح وقال: ماذا تريد؟ فقال: أريد أن آتيكم، فاستأذن التلميذ أستاذه السطيح فقال: هاتوه إلينا، فأدلوا له حبلا وأمسكه ورفعوه إليهم. وأقبل على السطيح وحياه وأثنى عليه، ثم أخرج من جيبه كتابًا كان قد أعده زورًا على لسان البطريق الأكبر وناوله إياه فقرأ فيه: بلغني ما أنت عليه من الصلاح والتقوى ومحبة البطريق الأكبر، فأحببت أن أقوي الرابطة الروحية بيني وبينك، وأرسلت إليك راهبًا من رهباني ليكون في خدمتك وطوع أمرك، ثم قال: أهلا وسهلا، إني أحب البطريق الأكبر حبًا كثيرًا، ثم أمر تلاميذه أن يأتوه بالطعام فأكلوا، وأخذوا يتحدثون حتى فرقهم النوم في مضاجعهم.

تناوم عمر حتى غرق السطيح في نومه، ثم قام إليه وذبحه ونزع عنه ملابسه وخبأه في مكان بعيد خفي في الصومعة ولبس ملابسه واكتحل فكان هو السطيح نفسه، ونام على فراشه حتى الصباح، وجاء التلاميذ وقبلوا يديه وسألوه عن الراهب فقال: سأحدثكم عن المنحة العظيمة التي نفحني بها الراهب، فإنه استيقظ بعد نصف الليل وقال: حان موعد صلاتي ووردي في

صومعتي ببلادى، وأحب أن أذهب الآن إليها وأعود إليك سريعًا، فقلت: إن بلادك بعيدة، وبينك وبينها سفر أيام، فقال: إنا معشر الرهبان نعرف شيئًا إذا تلوناه استطعنا أن نطير كأقوى الطيور وأسرعها، وقد علمنيها، وسأجربها غدًا، فإن وجدتها صحيحة علمتكم إياها، فإذا لم تجدوني بينكم أكون قد طرت إلى رومية وسأمكث فيها عدة أيام ثم أرجع إليكم فقالوا: ولكنه لم يقدر أن يطير إلى نافذة صومعتنا وأدلينا له الحبل ورفعناه؟!

فقال: سألته عن هذا فقال: ما أردت إزعاجكم ولا الدخول عليكم من غير استئذان، فصدقه التلاميذ وسكتوا، وانتظروا أن يعلمهم كيف يطيرون بعد أن ينتهي من تجربته.

وكان الوزير بزرجمهر قد أقبل وبلغ هارون رسالة كسرى ومنحه الهدايا فقال: إني أحب أن أمضي إلى كسرى، وأقضي على أعدائه ولكني لا أفعل شيئًا إلا إذا استشرت السطيح وأذن لي، فإنه رجل تقي صالح لا أخالفه ولا أعصيه، ولا أفعل شيئًا إلا بإذن منه، فقال بزرجمهر في نفسه: لعل الله يوفق السطيح إلى منعه وحبسه عن الرحيل إلى كسرى، وأرسل هارون وزيره إلى السطيح ليستشيره في أمره هذا فقال السطيح: إني قادم إليه للتحدث معه فيه، فأرسل إليه المحفة ورجالا يحملونه عليها، وعلم أهل المدينة أنه قادم إلى الملك، فخرجوا من المدينة لاستقباله وتقبيل يديه والتبرك به، ودخل ديوان الملك والحفاوة به من كل كبير وصغير ورجل وأنثى ترفرف عليه.

ولما جلس عرض عليه أمره فقال عمر: يا ولدي ماذا يعبد كسرى أنو شروان؟ فقال: إنه يعبد النار، فقال: وماذا يعبد العرب؟ فقال: يعبدون الله، فقال: الأمر جلي واضح يا ولدي، فكيف تترك حزب الله إلى حزب النار التي خلقها الله؟! لو كان العجم والعرب يعبدون الله لأصلحنا بينهم، وقاتلنا الباغين منهم حتى يفيئوا إلى أمر الله. فقل لرسول كسرى: إننا من حزب الله الذي بيده الملك، واقسم هدايا كسرى ثلاثة أقسام؛ قسم للفقراء، وقسم لك، وقسم لرسول كسرى بزرجمهر فأخذ بزرجمهر نصيبه ورجع، وعاد هو إلى صومعته في حفاوة عظيمة، وترك الملك يستعد للرحيل إلى العرب في

جيشه الكبير ليرد عنهم كيد كسرى وأنصاره؛ لأنه لا يخالف السطيح فى أمر من أموره.

ونزل عمر من الصومعة وجرى في طريق بزرجمهر حتى أدركه فسلم عليه، وفرح الوزير به وأثنى عليه، وكان قد فهم في الديوان بإشارة منه أنه عمر، وسأله كيف فعلت ذلك، فقص عليه قصته مع السطيح وتلاميذه ثم قال: وهم الآن يعتقدون أنني في رومية وينتظرون عودتي، ثم أعطاه بزرجمهر ما أخذه من الهدايا وقال: إني لست في حاجة إليها ولا أحب أن أدخل المدائن ومعي شيء منها، فأخذها ومضى إلى العرب، ومضى بزرجمهر إلى المدائن.

فوجد كسرى ينتظره، فدفع إليه كتاب هارون الذي ضمنه رأيه، فقال كسرى: ما دام قد قبل الهدايا فلا بد أن يأتينا ونشد به أزرنا.

أما عمر فإنه شرح لجماعة العرب وملكهم ما فعله، فحمدوا له ذكاءه وقدرته وتفانيه في قهر أعدائهم ودفع الشر عنهم، وأما بختك فإنه أرسل إلى كسرى كتابًا يخبره فيه أنه قادم مع ملك التتر وجيشه، وبعد أيام وصل ملك التتر وجيشه، ودخلوا المدائن وانتظروا ما أمر به كسرى في شأن القتال.

وبعد ثلاثة أيام من قدوم ملك التتار قامت الحرب واشتعلت نيرانها بين العرب والعجم، وكافح العرب فيها كفاح المجاهدين الصابرين، واندهش ملك التتار من ثباتهم والتنكيل بأعدائهم على قلة عددهم، ثم دقوا طبول الهدنة لتطهير ساحة الحرب من القتلى، وقتل في هذه المعركة عمر اليوناني بن حمزة وسعد الطوقي أخوه، فحزن أبوه والعرب عليهما حزنًا أليمًا، وجاءهم في وقت الهدنة هارون وجنوده، فزاد: بقدومهم أمل العرب في النصر العاجل.

انتهت مدة الهدنة واشتبك الفريقان، وخاض العرب غمرات هذه الحرب ثائرين، مستميتين، وحاكاهم في الاستبسال ملك التتار وجنوده، فكانوا كأنهم رسل الموت يخطفون الأرواح، ولا ينال أحد منهم نيلا وقتل تركي طاووس ملك التتر وحصدت جنوده وجنود العجم، ورأى كسرى أنه لا ثبات له فأسرع إلى المدينة ودخلها وأمر الجنود أن يدخلوا من خلفه،

فجروا إليها مسرعين وأغلقوا عليهم الأبواب، وكان هذا الهرب سببًا في نجاة من هرب من جنودهم وجنود أنصارهم.

وأرسل الملك قباط إلى كسرى يطلب منه بختك ويقول: لقد عرفت أنه كان سببًا في هلاك الكثير والأعزاء من جنودكم وجنودنا فإذا أشفقت على نفسك وبلادك فأسلمه إلينا لنقتله وينتهي ما بيننا من عداوة، وقد غفرنا لك ما تقدم من أخطائك وذنوبك؛ وبعد هذا إن عصيت فلن تجد لك نفسًا تلومها ولا بلادًا تحكمها، وما نحن بساكتين عنك حتى يتقلص ظلك، وتذهب ريحك.

قرأ بزرجمهر كتاب العرب على الجالسين بأمر كسرى، وفيهم بختك ابن قرقيش، فكاد قلبه يهوى بين رجليه من الخوف، والتفت إليه كسرى وقال: لقد سمعت ما قاله العرب، وليس فينا من ينكره أو يعترض عليه، وما كنا ننتظر من العرب بعد قتل ابني الأمير حمزة أن يتساهلوا معنا هذا التساهل العظيم، ولهذا فقد صح عزمي على تسليمك حماية لأنفسنا وبلادنا وراحة لنا ولهم، فقال بختك: إن حزني عليك وعلى بلادك أكبر من حزني على نفسي، لأن العرب عندي لا يزالون كاذبين، وإذا أردت أن تتبين كذبهم فاكتب إليهم:

– لقد قتلتم منا أضعاف ما قتلنا منكم، وقد رضيت أن أسلم إليكم بختك على أن تعطونا عمر العيار، فإذا رضوا فقد خلصت من العار وقتلته فيمن قتل من المرازبة، فقال كسرى: إني أعلم وأنت تعلم وجميع الناس يعلمون أن العرب لا يفرطون في كبش من قطعانهم، فقال بختك: وإذا علمت هذا فلم لا تكون مثلهم؟ فقال كسرى: نحن المغلوبون، وأنت ترى أننا محصورون. وما استطعت أنت للعرب دفعًا.

فقال بختك: اكتب إليهم أنك تسلمني إليهم بعد أربعين يومًا حتى أستودع دنياي، وفي هذه المدة سترى ما أفعله لطردهم.

كتب كسرى إلى قباط ملك العرب رسالة تلطف فيها ووعده يسلم إليه بختك بعد أربعين يومًا، ولما قرئت على مجلس العرب اختلفوا في صدقها

فمنهم من صدقها ومنهم من كذبها، وقال عمر العيار: إن كسرى يخادعنا ليمكن بختك من تدبير المكايد لنا، ووافقه الأمير حمزة وأيده، ورأى أن يشددوا في محاصرة المدينة.

رجع بختك إلى بيته حزينًا مضطربًا لا يدري ما يفعله وقاية لنفسه من الهلاك، وبينما هو جالس في قصره وقد أعياه ذهوله وفزعه دخل عليه الحاجب يستأذن لأخيه بختيار، فقال: عليّ به، وكان بختيار هذا من أعظم الناس مكرًا واحتيالا وأفصحهم لسانًا، تعلم الطب والفلك والفلسفة وعرف لغات عدة، فلما سلم عليه وجلس إليه قص عليه ما هو فيه، وبينه له بيانًا شافيًا، فأطرق بختيار قليلًا ثم قال: سأريحك من العرب، وأدبر لك أمر هلاكهم.

وفي الصباح أمر بختيار الخدم أن ينزلوه من أسوار المدينة، فلما أنزلوه مشى إلى العرب فأمسكه العيارون، قال لهم: امضوا بي إلى ملككم فقد جئته بشيء ينفعكم فمضوا به إليه، ورآه العرب الذين في حضرة الملك من أعيان الفرس ووجهائهم، وأمر الملك بجلوسه حتى يتبين أمره وينظر فيه، فلما جلس قال:

- أيها السادة: إن الحكيم العاقل يضع نفسه موضع النظر، فيجلب لها الخير ويدفع عنها الشر، وأحزم الناس من استمال عدوه وبدل عداوته صداقة، وبغضه محبة، لتكثر أنصاره، ويعز جانبه، وما أنا برجل سياسة، وحكم، ولكني رجل معرفة وعلم، وقد عرفت أن دولة العجم قد حان أفول نجمها، وستقوم دولة العرب على آثارها، لأني أعلم أن كل دولة طال في الكفر والطغيان أمدها لا دوام لها، وأنا «بختيار» أخو بختك بن قرقيش، وقد حاولت صرفه عن مكره وخبثه، وعناده وجحوده فما استمع لنصحي، وقد جئتكم لأكون خادمًا أمينًا فيكم، فإن قبلتموني فذلك لكم، وإن قتلتموني فقد مت راضيًا، لأني وفيت لنفسي حقها من مواقف الحق والحماية، وإن لم أكن قد فعلت هذا وجئتكم فإني ميت بسيوفكم حين تملكون البلاد وتبطشون ببختك وعائلته البطشة الكبرى، وما أنا الآن بشاذ

في عائلتي، فقد أصبحوا جميعًا يكرهونه بعد أن كانوا يحبونه، ولو كانوا على مثل علمي ومعرفتي وخبرتي بالحياة لفعلوا مثل الذي فعلته، وكانوا بين أيديكم خدمًا أوفياء.

أعجب العرب ببيانه وبلاغة قوله وترددت عقائدهم بين صدقه وكذبه، وقال الأمير حمزة: إنكم قوم كذابون، وما جئتنا إلا للغدر والخيانة.

فقال بختيار: ما أسمعتني إلا ما في نفسي، لأني أعتقد أنكم لا تصدقوني لكثرة ما جرى عليكم من الكذب والغش والخيانة، ولكم في ذلك كل المعذرة، وأمري بين أيديكم، فإما أبقيتموني خادمًا لكم، وإما قتلتموني ولا ذنب عليكم، ولكن ذلك تقدير الله العزيز العليم.

فقال حمزة: وهل تعرف الله حتى تذكره؟ فقال: أعرف الله وأعبده فهو الذي خلق السموات والأرض، وسخر الشمس والقمر دائبين، وجعل الليل والنهار خلفة، وأرسل رسله للهداية، حتى لا يكون للناس على الله حجة.

صدقه العرب واطمأنوا إليه إلا عمر العيار فإنه قال: هذا الرجل لا يزال موضع ريبة في نفسي، وأرى ألا تتركوه مقيمًا فينا، فإن كان صادقًا فنحن عنه في غنى، وإن كان كاذبًا فقد أبعدناه عنا، وحمينا أنفسنا من شره.

وقال الملك قباط: إذا كان الله معنا فلن يقدر أحد أن يضرنا، ولا ينبغي أن نخيب رجاء لرجل يريد أن يقيم فينا على شريعة الله والجهاد في سبيله. ثم قربه منه وأنعم عليه، وأمر له بخيمة إلى جانب صوانه، وأن يأكل معه على مائدته، ويكون نديمًا له. وعاش فيهم بختيار عشرة أيام عيشة العابد الصالح الوفي الأمين، وكان يسهر عند الملك يحدثه بكل مليح من الأخبار والحوادث، فإذا جاء وقت النوم خرج إلى خيمته ونام.

وفي الليلة الحادية عشرة نام الملك وخرج بختيار؛ ولكنه وقف عند باب الصوان حتى غط الملك في نومه، ثم رجع إليه وذبحه بخنجره، وخرج من الصوان، وكان السكون عميقًا والعرب يغطون في نومهم، فوقف حائرًا لأنه يخشى أن يمسكه أحد وقد تلوثت ثيابه بدم الملك، وبينما هو واقف جاءه

عمر العيار وسأله: هل نام الملك؟ فأجابه بصوت خافت أجش ولسان ثقيل مضطرب: نعم. وارتاب عمر فانفلت ونظر إلى الملك فوجده غارقًا في دمه، فارتد إلى بختيار وبقر بطنه بخنجره فسقط قتيلًا، وصاح بين الخيام: أن هبوا من نومكم، وانظروا ما نزل بملككم من هذا الخائن الذي عصيتموني فيه، قتل الملك، قتله بختيار الخائن..

هاج العرب وماجوا وخيم عليهم حزن أليم، وكان أبوه وأمه في حالة بئيسة يقول كل منهما ما لا يعيه، فقد غاب الصبر وضاع الجلد، وغشاهما سحابة قاتمة من الجزع اختفت في ظلامها قيم الأشياء، واختل في نظرهما ميزان الأعمال. وقالت أمه مهردكار: مات ابني، أملي في الحياة وغايتي منها، لقد ائتمر أبوه حمزة والعرب واتفقوا على توليته الملك، فحرمني ابني، وأفقدني ثمرتي.

وقال حمزة: أنت التي أخذت بيده إلى الموت، ورضيت أن يكون ملكًا، وإذا أردت اللوم فلومي والعني أباك وقومك، لأنهم جهلاء أشرار لا يعرفون الإنسانية، ولا يحبون أن يكونوا من أبنائها، فقالت: أنت وأبي على وتيرة واحدة، ولو كنت عند أبي ما تجرعت هذه المصائب.

ونبهتها غلظتها في مخاطبة زوجها فأحبت أن تغطيها بلين القول والتلطف فيه، لكن حمزة كان قد هاجه قولها فلم يترك لها فرصة وقال: أنت تتشوقين إلى بيت أبيك، وتكرهين المقام فينا؛ إنك لا تقيمين معنا بعد هذا اليوم.

وتلقت مهردكار بهذا القول مصيبة فوق مصيبة ابنها ففقدت حسها ووقعت مغشيًا عليها، وأنكر الأمراء وأعيان العرب موقف حمزة من زوجته، ولكنه في نظرهم في حالة شاذة لا يعي فيها وعيه الذي فطر عليه، فلم يستطيعوا أن يقولوا شيئًا، وشغلوا بتجهيز الملك ودفنه بين أنات حزينة من جميع العرب.

وبات العرب جميعًا وهم في ألم من تلك الحال التي وقعت بين الأمير حمزة وزوجته، وبات الأمير حمزة وهو في ألم شديد من قولها، وفي إصرار شديد على أن يرسلها إلى أبيها، ولو لم يفقد حمزة بالحزن على ابنه بعض جلده

وصبره، ما أغضبه قول زوجته، فإنها في مثل ذلك الموقف لها عذرها في أن تقول ما قالت وأكثر مما قالت، وهو مما لا ينكره حمزة في هدوئه وسكينته.

لبثت مهردكار تعض على أناملها حسرة وندمًا على ما فرط منها لزوجها، وكان بودها أن تنقضي حياتها دون أن يجد منها ما يغيظه ويغضبه، وقد دأبت فيما مضى من حياتها على مرضاته واحترامه وتوقيره، حتى كظمت في نفسها غيظها وغيرتها من زواجه بغيرها دون أن يجد فيها ريحًا لذلك في أية لحظة من لحظات عشرتها، لأنها تدرك قداسة الرابطة الزوجية ووجوب المحافظة عليها بأي ثمن.

وفي الصباح دعا حمزة أخاه عمر العيار وقال له: خذ مهردكار ومعها ما ترغب في أخذه من المنزل واتركها عند أبيها، ولما جادله عمر في موقفه ووجد ألا مفر منه عزم في نفسه أن يدعها عند ملك من الملوك الأصدقاء حتى تنجلي غمة الأحزان، وتعود السكينة إلى القلوب على غير علم من أخيه، وقال له: أمرك مطاع يا أخى، وإني لذاهب بها إلى أبيها من هذه الساعة.

وكانت مهردكار تحب رستم فرتم ابن زوجها محبتها لابنها قباط، وكان هو يحبها محبته لأمه، فجاء عمه عمر العيار وقال له: إن أخذتها إلى أبيها أخذت أمي ورحلت بها إلى جدي، وتركت أبي وشأنه.

فقالت مهردكار: إن كنت يا رستم تحبني كأمك فلا تفعل لأني لا أحب خلفًا للعرب ولا انحطاطًا لشأنهم بسببي، وما أريد من عمر إلا أن يأخذني إلى حلب لأقيم هناك إلى أن تنقشع سحب الأحزان، ويصفو الجو وتعود المياه إلى مجاريها، وأعجب رستم رأيها وقال لعمر: أرسلها مع أحد عياريك ولا تعلم أبي حتى نرى ما يكون.

حملت مهردكار أمتعتها وملابسها وكل شيء لها ثم ودعت رستم وقالت له: لقد قتل ابني، وكرهني زوجي، وعبس الزمن في وجهي، وربما حان موعد منيتي، وقد لا أراك ولا أرى والدك، فإذا مت فأقرئ والدك مني السلام وبلغه أني سامحته قبل أن أبرح بيتي هذا، وما أنا غاضبة منه في شيء، ولكني سأموت وأنا في غيظ من نفسي لأني أغضبته، وأدعو الله أن

يحفظه ويكلأه ويرفع شأنه ويؤيده، ولا يريه مكروهًا في نفسه ولا في أولاده ونسائه، وأرجو أن تطلب من والدك أن يغفر لي كل هفوة وقعت منى، فقال رستم: أطال الله عمرك، وإن شاء الله ستعودين على أحسن حال، واعتبريني ابنك البر الوفي الكريم، فقالت: إذا نفحني والدك بالعفو ورضى عني، فإنه يكفيني أن يخبرني بأنه رضى عني، وسأرجع إليه راضية شاكرة، أعيش في ظله، وأطيعه حق طاعته، ولكني أحس من نفسي أن هذا اليوم آخر عهدي بكم، وأن الموت ينتظرني على خطوات معدودات، ثم قبل رستم يديها وودعها.

كتب عمر كتابًا إلى صاحب حلب وصاه فيه أن يعني بأمرها ويقوم بخدمتها، ويكثر من جواريها وخدمها ثم دفعه إلى ابنه الذئب وقال له: كن في خدمتها وحاميًا لها حتى تصل إلى حلب عزيزة مكرمة.

ظن حمزة أن مهردكار ذهبت إلى أبيها، ولم يمض على ذلك إلا بضعة أيام حتى تغير حمزة وأدرك قسوته وظلمه، فمالت نفسه إلى أن يصالح كسرى، وكره الحرب، وانفرد عن الجماعة وركن إلى العزلة. وكان الفرسان قد أنكروا حالته ومالوا إلى الاعتزال وتركه.

كان كسرى قد أحس في العرب صياحًا وهرجًا فسأل بختك عن ذلك، فقال: إني أرسلت أخي بختيار لينفذ مكيدة وقد يكون نفذها وهذا الصياح والهرج من أجلها، فأمره أن يرسل العيارين لمعرفة ما جرى.

وذهب العيارون متنكرين وأقاموا فيهم، وعرفوا كل شيء ثم رجعوا ونقلوه إلى ملكهم ووزرائه، ففرح بختك وقال: انفرط عقد العرب وانفضوا عن أميرهم حمزة فاكتب إليه أن مهردكار وصلت إليك، واطلب منه علم الفرس، فكتب كسرى بذلك وبعث به أحد عياريه إلى حمزة فلما قرأ الكتاب قال: لقد خسرت أعزائي، وماذا يفيدني بقاء العلم عندي؟!

ثم نادى عمر أخاه، فلما حضر قال له: سلم رسول كسرى علمه، فقد مات أولادي، وخسرت زوجتي، ولا أمل لي في عودتها فماذا أصنع بالعلم؟!

فكاد عمر أن يضيق من هذا القول وذلك الأمر وقال له: إن إرسال

العلم سيتبعه تفرق العرب وانفضاضهم من حولك، وحينئذ لا تقوم لهم قائمة، فقال: اسمع وأطع ولا تجادل، وسلمه إياه، فجعل الأمراء يراجعونه ويصرفونه عن رأيه وقالوا: إن ذلك سيفرق الجمع ويحمل كل أمير على أن يعود إلى بلاده، فقال: من أراد الرحيل منهم فليرحل، فلا أريد صحبة أحد، ولا يهمني أمر أحد منهم، راحلا أو مقيمًا.

فخرجوا من عنده غاضبين وذهبوا إلى رستم في صوانه وأخبروه بما جرى، فقال: إن أبي ركب رأسه وقد حاولت إصلاح أمره فأبى وأرى أن ننفض من حوله ويرحل كل منا إلى بلده، وأنا أولكم. ثم نادى بقائد رجاله وأمره بالرحيل فصدع بالأمر، وأخذ في الاستعداد هو وجنوده، وتبعه في ذلك بقية الأمراء، وما جاء الصباح حتى كانت الأرض خالية إلا من الثمانين فارسًا الذين ولدوا مع حمزة في ليلة واحدة وهم عصبته ورجاله.

فاندهش حمزة ودعا أخاه عمر وقال: أين الأمراء والجنود فقال: رحلوا إلى بلادهم لأنهم يئسوا منك، فقال: واين ابني رستم؟!

فقال: كان أول الراحلين، لأنك لم تستمع لنصحه وركبت رأسك، وعولت على نفسك، فقال: هيا بنا إلى مكة لنريح أنفسنا من هذا العناء، قال: هل أسلمت مهردكار إلى أبيها؟

فقال: نعم، لأنك أمرتني ولن أخالف أمرك، فقال في مسكنة وذلة: ويحك يا عمر!! أما كنت جديرًا بشفقتك، وإصلاح ما فسد من أمري، والمحافظة على زوجتي؟! وكيف طوعت لك نفسك أن تسلمها إلى أبيها؟ أما تعلم أنه سيقتلها دون ذنب منها أو خطيئة؟! ليت لساني كان قد قطع أو أخرس قبل أن آمرك بإرسالها إلى أبيها!! لا سامحك الله يا عمر إذ لم تتدارك أمري بالإصلاح وقد كان بيدك.

فقال: لقد نصحتك مرارًا، ونصحك ابنك رستم، ونصحك الأمراء فما أجدى كل ذلك عندك شيئًا، فوجدت من الحكمة أن أرسلها مع ابني الذئب إلى نصير الحلبي، ووصيته بإكرامها والعناية بأمرها حتى تعود إليها بعد أن يرجع إليك عقلك ويثوب إليك غائب رشدك، وإذا كنت أنت قد فقدت

من الحزن وعيك، فما فقدت أنا وعيي ولا عقلي، ورأيت من الصواب أن أفعل ما فعلت.

فقال حمزة: حسنًا فعلت، وقد أرحتني بعض الشيء؛ فخذ أنت الفرسان والأموال وامض بهم إلى مكة، وسأذهب إلى حلب أسترضيها وآتي بها إلى مكة.

فقام عمر إلى شأنه، ومضى حمزة في سبيله إلى حلب.

***

﴿ ٣ ﴾

وركب حمزة فرسه اليقظان وجد في المسير إلى حلب، ويكاد الشوق إلى مهردكار يطير به إليها.

أما كسرى فقد سره ما أصاب العرب من التفرق والانحلال والرحيل عن بلاده وقال لبختك وزيره: أنت اليوم أرحتني وأزحت عن صدري همًا ثقيلًا كأنه الجبال، فقال بختك: كثيرًا ما طلبت منك الصبر ولكنك كنت ترتاب في قولي وتقسو في معاملتي، وإني أعدك ألا أقعد عن العرب حتى أقتل حمزة وأبيدهم، فقال كسرى: لا أحب بعد هذا أن يذكروا أمامي أبدًا، ودعنا نصلح من أمورنا ونرد البلاد التي خرجت من أيدينا إلى طاعتنا فقد سئمت الحرب ومتاعبها، واكتب إلى البلاد بما جرى للعرب، وادع ولاتها وأصحابها إلى الدخول في طاعتنا، وبلغهم أني عفوت عنهم.

خرج بختك إلى قصره وهو عازم على أن يستمر في كيده، فأحضر أحد القواد وقال له: خذ معك خمسين ألف فارس وامض بهم إلى حلب وأعط واليها كتابي هذا، وفيه أمر من كسرى بتسليمك ابنته مهردكار فإن أبى فهاتها قهرًا.

وصل القائد وفرسانه إلى نصر الحلبي ودفع إليه الكتاب فلما قرأه اضطرب وحار في أمره، فهو لا يستطيع أن يدفع إليه مهردكار خوفًا من حمزة زوجها، ولا يستطيع أن يعصي أمر كسرى خشية أن يكون العرب قد ذهب مجدهم وتفرقت كلمتهم، وحينئذ ينتقم منه كسرى؛ فأطرق نصف ساعة ثم قال: إني وضعت مهردكار في قصر منعزل عن المدينة وجعلت لها من الجواري والخدم من يقوم بخدمتها، وأجريت عليها من المال ما يفي بحاجتها ويجعلها في رخاء من العيش وسعته، فإذا كنت تريد أخذها فلا أمنعك، ولكن اذهب أنت إليها في قصرها، واجعل ذلك الأمر منك إليها،

دون علم مني، وإذا سألني حمزة عنها اعتذرت بأن كسرى أخذها قهرًا، فقال القائد: لا بأس في ذلك.

ذهب القائد إليها وبلغها أنه جاء ليأخذها إلى أبيها رغبًا أو رهبًا فقالت: جئت تطلب المحال، وإن لمس السماء أقرب إليك من أخذي، فقال: إنما يقول هذا من يستطيع أن يدافع عن نفسه، وإن معي خمسين ألف فارس، وليس معك أنت إلا نفسك، فلا بد من أخذك كرهت أو رضيت.

وكان معها خاتم فصه من السم القاتل فوضعته في فمها وابتلعت ما ذاب من سمه، فظهرت في الحال على جسمها أعراض التسمم وسقطت على الأرض مبهورة النفس، جاحظة العينين، فاقدة النطق والحركة، وفي ذلك الوقت حضر حمزة فوجدها على تلك الحال، ووجد القائد واقفًا أمامها كالمذهول، فجرد سيفه وشقه به نصفين وسقط قتيلًا، وجلس يبكي أمام مهردكار وينداديها، فلما سمعت صوته استجمعت قواها وقالت: عرفت حبك، وسامحتك، وجزاك الله خيرًا، وآخر كلمة أقولها: لقد أحببتك إلى أن نلتقي في الآخرة، ثم لفظت النفس الأخير، وذهبت إلى ربها راضية مرضية.

وجاءه نصير الحلبي فوجده جالسًا يبكي بجوارها وقد قتل قائد كسرى فقال له: شغلت نفسك بالبكاء، وتركت ألوف الفرسان حول المدينة، وإن جاءوك وعرفوا أنك قتلت قائدهم هجموا عليك وكنت مأكولا بسيوفهم، فانتبه وقام إلى اليقظان فركبه وشهر سيفه وخرج إلى الفرسان وهو في ثورة البركان فأعمل فيهم سيفه وجعل يجزهم جزًا، وشاع في الجيش ظهور حمزة ففعل اسمه فعل السحر، واتفق أن ثارت عاصفة في البرية أثارت الغبار فظنوها لجيش حمزة الذي يركض من خلفه، وكانت عزائمهم قد انحلت بموت قائدهم، فخافوا وفروا من وجهه إلى المدائن هاربين. ثم رجع وأمر نصيرًا الحلبي أن يدفنها في قبر خاص بها، وأن يجعل من فوقه قبة يعرف بها، ففعل ما أمر به، وعكف على المقام بجوار قبرها وهو في حزن أليم لفقدها.

***

وصل عمر وجماعة حمزة الثمانون إلى مكة، وسأله أبوه إبراهيم فقص عليه قصته، ثم قال: وقد يأتينا هو وزوجته قريبًا، ولما بطَّأ عليهم بالعودة قال إبراهيم لعمر: اذهب إلى أخيك وأحضره ليقيم بيننا في راحة من هذا التعب والعناء، فلما ذهب إليه وجده عاكفًا على قبرها كئيبًا حزينًا، فحزن عمر وجعل يعزيه فلم يلتفت إليه، فقال: إن أباك بعثني إليك لأنه يخشى أن يدهم كسرى بيت الله الحرام، فقال: مالي وللدنيا وآلامها، وتنكرها وغدرها؟! ما أنا بنازح عن قبر مهردكار حتى يجيء أجلي وأدفن بجوارها، فقد ختمت حياتي معها بقسوة لم ترع حقًا لعشرة ولا رحمة بزوجة كانت مثلًا كاملًا في رعاية العشير وراحته. ولما عجز عمر عن إقناعه واستمالته أخذ جواده وعدته ورجع إلى مكة على أن يعود إليه بعد أن تفتر حدته، ويمل المقام وحده. ويسلو ذلك الحزن الذي كره إليه الحياة.

***

انتظر بختك القائد الذي أرسله إلى حلب ليحضر إليه مهردكار وإذا بفلول جيشه ترتد إليه خاسئة فاشلة، وحكت له ما كان من أمر حمزة فغاظه ما وقع ولكنه ما يئس ولا انزوى عن سعيه، فأرسل الجواسيس إلى حلب لتنقل إليه أخبار حمزة تباعًا ليدبر على ضوئها ما يكيده، فلما وصلوا إليها وعرفوا مصير مهردكار وحمزة بلغوه ما عرفوا في أعجل سرعة، فكاد يخرج من جلده فرحًا، وقال: جاء وقت الانتقام من هذا الطاغية ولا بد من قتله وإلحاقه بزوجته، فأحضر إليه أكبر العيارين في الفرس وأقدرهم وكان اسمه (قرقدان) وقال له: إن حمزة قد ماتت مهردكار زوجته، وتخلى عنه أنصاره، وأغلقت سبل الدنيا في وجهه، وعكف حزينًا على قبر زوجته لا يتركه لا سلاح معه ولا نصير، ولو ذهب إليه غلام لغلبه، وأريد منك أن تأتيني به، وستجد ما يغنيك ويرضيك من المكافأة فقال: لك ذلك ولن أبطئ عليك.

أخذ قرقدان العيار جماعة من أتباعه العيارين، وانطلق بهم إلى حلب، وهناك أجلس أتباعه في مكان قريب من قبر مهردكار، وتنكر هو في زي

الدراويش، ومضى إلى قبة مهردكار ووقف ببابها يتلو ذكر الله، ولما رآه حمزة أنس به ودعاه إليه وأجلسه إلى جانبه وسأله: من أين جئت أيها الدرويش؟ فقال: إني من بلاد المغرب الأقصى، خرجت منها صغيرًا، وعرفت الله وعبدته، وسلخت من عمري أربعين عامًا في الطواف بالبلاد، وكان ربي يكرمني حيث نزلت، وقد رغبت في أن أسير إلى مكة وأقيم فيها عاكفًا على عبادة ربي حتى يأتيني أجلي، وأواري هناك في مثواي الأخير حتى نبعث للحساب في يوم الجزاء.

فقال حمزة: أقم معي تلك الليلة فإني في حاجة إلى من يؤنسني ويخفف عني ما نزل بي، فقال قرقدان: وقاك الله كل شر، فمن أنت؟ وما الذي أقلقك؟ فقال: إن الله جعل من عباده الصالحين لأمثالنا من المصابين مثابة أمن وسكينة، وقد وجدت فيك راحة من ألمي، وأنسًا من وحشتي، وأنا حمزة بن إبراهيم أمير مكة، ثم نفض له ما في نفسه، وقص عليه قصته، فقال قرقدان: ما هذا شأن المؤمنين الصابرين، وكيف تجزع من قضاء الله، وتستوجب غضبه عليك؟! إنك يا ولدي إن لم تصبر صبر الأحرار سلوت كما تسلو البهائم، فانفض عن نفسك الأحزان، وتعال معي إلى مكة، وهناك تنسى همومك، وتعيش بين أبيك وأهلك.

فقال حمزة: لا ينبغي أن تنسى كل زوجة كريمة أدت رسالتها لزوجها، فكانت عونًا له في حياته، ورخاء من نسيم أزال عنه متاعبه وآلامه، وإني لا أذكر لمهردكار إلا كل فضل ومكرمة، فاسترح عندي هذه الليلة وليكن ما يكون غدًا.

أخرج قرقدان من جرابه خبزًا وتمرًا وقال: أظنك تعاف طعام الدراويش، وليس معي غيره مما تأكلون أيها الأمراء منه، فقال حمزة: إني أحب التمر فأعطني منه قليلا، فناوله الدرويش بعضًا من التمر كان قد وضع فيه بنجًا، فلما أكله خدر في الحال وسقط مغشيًا عليه. فأسرع قرقدان إلى جماعته وجاء بهم إليه فكتفوه وحملوه ومشوا به إلى المدائن ولما بعدوا في مسيرهم أمر جماعته بالوقوف وأن يعطوه منبهًا، فلما أفاق حمزة وجد نفسه مقيدًا مكتفًا

في مكان قفر يحيط به جماعة من العيارين وفيهم قرقدان، فأدرك أنه وقع في شبكة الغدر والخيانة ثم قال: لم فعلتم هذا برجل لم يضركم؟

فقال قرقدان: ما خرجنا من المدائن إلا لأسرك وأخذك إلى كسرى ليثأر منك، فسكت حمزة وقال في نفسه: هذا ما جنته يداي، والله يخلق ما يشاء ويختار.

وصل قرقدان إلى بختك ومعه الأمير حمزة، فكان من الفرح كأنه ملك الدنيا وطار إلى كسرى وأخبره فقال: اذهبوا به إلى ساحة الإعدام واقتلوه ولا ترنا وجهه ولا تذكر لي بعد ذلك شيئًا عن العرب ولا عن أحد منهم.

فقال بختك: لا ينبغي أن نقتله، ولكني سأصلبه في الساحة العامة لوادي خراسان تحت الشمس، وأكلف الخدم بإطعامه وسقيه ويبقى كعبة نصر لنا على العرب يأتي إليه الناس من كل فج إلى أن يموت. فقال كسرى: افعل ما شئت ولا ترني وجهه. فخرج بختك وأمر بوضعه في السجن إلى الغد، وكان الوزير بزرجمهر في حزن أليم من أجله ولكنه كظمه في نفسه. وفي زحمة الناس صغيرهم وكبيرهم، نسائهم ورجالهم، صلب حمزة في وادي خراسان، وأخذ الناس يتقاطرون عليه من المدينة والبلاد قريبها وبعيدها ليروا ذلك الأمير الذي أفزع الإنس والجن. وقد وكل أمره إلى رجال يطعمونه ويمنعون الناس من الاقتراب منه. جرى كل ذلك وحمزة مسلم أمره إلى الله في صبر جميل.

أما عمر العيار فإنه وصل إلى مكة وأخبر أباه بما كان من شأنه، فقال: إذا كان قد عصاك وأصر على بقائه بجوار قبرها كان من الواجب عليك أن تبنجه وتأتيني به، فإذا كان بين يدي أطاعني وما خالف لي أمرًا، فارجع إليه ولا تأتي إلا به وإن كان مبنجًا، فقال عمر: سأذهب إليه بعد أسبوع فربما خففت الأيام عنه أحزانه ورضي بالعودة معي.

وبعد سبعة أيام ذهب عمر إليه فلم يجده عند قبة مهردكار فمضى إلى نصير الحلبي صاحب المدينة وسأله عنه فقال: لا نعلم عنه شيئًا، وقد ظننا أنه رحل إلى مكة، لأننا لم نشاهد عدوًا جاءنا في هذه الأيام فلعب الخوف في صدر عمر، وظن أن يكون قد سرق، وحمل إلى المدائن، ولهذا اكتحل وتبدل

شكله وصار كأنه من حجاب كسرى وأسرع إلى المدائن، ولقى بزرجمهر وخلا إليه فعرفه بنفسه وسأله عن حمزة فقال له: ألا تخشون الله ربكم؟! وكيف تتخلون عن أميركم في شدته ؟! ثم حكى له ما جرى لحمزة، فتألم عمر وقال: ستجدني إن شاء الله أخرجته من محنته، وجمعت العرب لكسرى ووزيره بختك، ينتقمون ويسقون الفرس حميما من القتال.. فدعا له بزرجمهر بالتوفيق والسداد.

انطلق عمر إلى وادي خراسان واختلط بالعيارين الذين يحرسونه ويطعمونه، فدنا منه وجعل يشتمه مثلهم، وفي غفلة من العيارين أفهمه أنه أخوه عمر، وأنه ساع في إنقاذه من صلبه، ووصاه بالصبر حتى يخلص من شدته. فشكره حمزة ورجا منه ألا يبطئ في إنقاذه، وانفلت عمر خفية إلى ابنه رستم فرتم في مدينة جده، وهناك أخبره بما نزل على أبيه وحمله تبعته، وأفهمه أن انحلال جمع العرب وانفضاضهم من حول أبيه كان هو السبب فيه، وأن العتب عليه في ذلك أشد من غيره، لأنه من لحم أبيه ودمه، فلم يطق رستم صبرًا على ما سمع، وأحضر أمه وأعاد عليها عمر ما قاله، فأمرت ابنها بالركوب في الجيش إلى أبيه، وألا يعود إلا به، فأمر رستم في الحال الصيصان قائد جيشه أن يعد الجيش للسير غدًا إلى وادي خراسان، فقال عمر: لا تسر إلى وادي خراسان ولكن انتظرني في وادي الكمال حتى أجمع إليك بقية العرب، لأن جيشك لا يفي بالغرض لقلة عدده بالنسبة إلى جيش كسرى وأتباعه.

فقال: إني لمنتظركم في وادي الكمال فلا تبطئوا، ثم ودعه عمر وأخذ يطوف على بقية الأمراء ويرسلهم واحدًا بعد آخر في جيوشه إلى وادي الكمال، فأخرج مع رستم أندهوق وفرهود وعمر الأندلسي والنجاشي والمعتدي والنعمان والعرب بمكة، حتى غص الوادي بجيوشهم، وكانوا من الكثرة والقوة في حال لا يستطيع جيش كسرى ومثله معه أن يثبتوا أمامهم.

وبينما هم يتأهبون للمسير إلى وادي خراسان رأوا غبار الجيش يدنو منهم، فقال رستم: إن العرب قد كملوا، وحضروا جميعًا، وليس فيهم من

غاب أو تأخر، فلمن هذا الجيش القادم؟ فقال عمر: سآتيك بخبره الساعة، وانطلق يجري إليه فوجد جماعة من الفرسان يناهز عددهم الثلاثين ألفًا يقدمهم شاب أمرد مشرق الوجه مدجج بالسلاح، وعلى جواد ضخم كأنه الفيل، فتقدم إليه وقال: مهلا أيها الفارس، وإني سائلك فأجبني؛ هل أنت صديق العرب، أو عدو لهم، أو عابر سبيل؟

فقال الشاب: أراك من العرب فمن تكون؟ فقال: إني سألتك فأجبني وبعد ذلك سأطلعك على ما تريد، فقال الشاب: إني سائر إلى وادي خراسان لأخلص الأمير حمزة البهلوان بن إبراهيم أمير مكة، فضحك عمر حتى بدت نواجذه وقال: أبهذه القلة التي أنت فيها تطمع أن تخلص الأمير من يد كسرى أنو شروان؟ لقد جاء العرب جميعًا ونزلوا بوادي الكمال لهذا الغرض نفسه، وأظنهم لا ينالون مأربهم إلا بعد جهد جهيد، وأنا عمر العيار أخو حمزة في النشأة والتربية، فمن أنت أيها الفارس البطل؟

فنزل الشاب عن جواده وسلم على عمر وقال: إن من كان أبوه رستم فرتم لا يرهب الموت، ولا يهمه عدو، كثر عدده أو قل، أنا قاسم بن رستم فرتم ابن حمزة، وقد بلغني كيف غدر كسرى بجدي وصلبه في وادي خراسان، فجئت لخلاص جدي أو أهلك بين يديه، فقال عمر: إن العربي لا ينام على الضيم، فتعال معي إلى أبيك رستم في وادي الكمال، لتكون له وللعرب قوة، ومضى عمر به وبجيشه إلى أبيه. ولما دخل على والده وعرفه به فرح كثيرًا وحمد الله كثيرًا، وأفاض عليه من حنانه ما قرت به عين قاسم ابنه، وذاع خبره بين العرب فابتهجت نفوسهم، وتقاطروا على رستم يهنئونه.

وكان عمر العيار بعد أن طاف بالعرب لجمعهم قد رجع إلى وادي الكمال، ومعه عصبة حمزة الثمانون وعياروه، ثم أخذ العيارين وجعلهم يقفون في الطريق إلى خراسان ويقتلون من مروا بهم حتى لا ينتقل إلى كسرى نبأ قدوم العرب، وقد أدوا عملهم هذا على أكمل وجه، فلم يدعوا عابرًا إلا قتلوه، وبقي كسرى ووزراؤه يعتقدون أن العرب لا يزالون متفرقين وأن كل أمير منهم قد اعتزل بجيشه ورجاله في موطنه، وما كانوا يعرفون عنهم شيئًا

أكثر من ذلك فاطمأنت نفوسهم، واستقرت قلوبهم في صدورهم، وغص وادى خراسان بجنودهم، وعكفوا على المرح واللعب ينتظرون عيد النيروز وتحريق حمزة فيه، وتسلل عمر العيار إليهم ليعرف أحوالهم، ويضع الخطة الناجحة في قتالهم، فوجدهم غارقين في جهلهم ولهوهم ومرحهم. ورجع إلى العرب وأخبرهم أن جيوش كسرى تملأ الفضاء، ثم سألهم عن الخطة التي يريدونها في قتالهم وتخليص حمزة.

فقال رستم فرتم: نهجم عليهم دفعة واحدة من كل ناحية، فقال عمر: ستهجمون عليهم دفعة واحدة وستقتلون منهم ألوفا، ولكنكم لن تنتهوا من إبادتهم إلا بعد شهر أو يزيد، فإذا أفزعتموهم أول يوم وجاء المساء وأوى كل فريق إلى خيامه غاظهم فتككم بهم، وأنزلوا الأمير وأحرقوه وضاع تعبكم وقتالكم سدى، فقال الأمراء: وماذا نفعل يا عمر؟ مرنا بما شئت فنحن لك طائعون، فقال عمر: اجعلوا جيشكم ثلاثة أقسام: قسمان يتناوبان القتال ليلا ونهارًا، والقسم الثالث من خلفهم يمدهم بالزاد والسلاح، ويحمي القسم الذي يأوي إلى النوم والراحة، واجعلوا القتال مستمرًا ليلا ونهارًا حتى تشغلوهم عن الأمير حمزة، ولا ينتهي القتال إلا بعد أن يخلص من صلبه ونرده إلينا سالمًا. فاتفق الأمراء على ما دبر عمر ونفذوه في دقة وإحكام، وجعلوا أول هجوم لهم في منتصف الليل والأعداء نائمون. واستعدوا لذلك في خفية وحذر.

استيقظ الفرس في منتصف الليل على ضرب السيوف وطعن الرماح فهبوا فزعين وعمدوا إلى أسلحتهم مضطربين حائرين. وبدأت حرب طاحنة، أصر العرب فيها ألا نهاية لها ولا راحة إلا بفناء أحد الفريقين، ودامت ثلاثة أيام متتاليات، قدم في أثنائها بديع الزمان بن حمزة من زوجته سلوى، فأبلى بلاء حسنًا، وكان له فيها مواقف مشهورة وكفاح لا ينسى أثره، وكانت الحرب تلعب بالفريقين عابثة لاهية، فتميل بكل الميل هنا، وتميل كل الميل هناك، حتى أبطلت الرجاء، وتعلقت القلوب في كسرى وجيشه بنارهم التي يعبدونها، وفي العرب بالله الواحد القهار، وفي اليوم الثالث خاف العرب أن

يموت الأمير حمزة من الجوع والعطش، لأن الفرس شغلوا بالحرب وتركوه يموت جوعًا، جعلهم هذا الخوف يتخذون هذا اليوم الفاصل بين الحياة والموت، والنصر والهزيمة، فنزلوا على أعدائهم نزول الصواعق، وما وجد أعداؤهم مخلصًا إلا الفرار إلى مدينة خراسان، فدخلوها وأغلقوا عليهم أبوابها، وأنزل العرب الأمير حمزة فوجدوه بين الحياة والموت، واختلفوا في أمره، فهذا يقول: إنه مات، وذلك يقول: إنه حي، وكان بزرجمهر قد تأخر في دخوله المدينة، ووقف مترددًا، فجاء عمر العيار وقال له: إنك إن بقيت معنا فما لك عندنا إلا كل إكرام ومحبة فقال: إني راغب في البقاء معكم لمداواة الأمير حمزة، وملازمته حتى يبرأ ويشفى وترجع إليه صحته وعافيته، ورجع عمر إلى صوان الأمير، وكانوا قد أضجعوه على سريره، فنظر إليه وفحصه وقال: إن أميركم لا يزال حيًا، وسيشفى بإذن الله تعالى. ثم سقاه وأعطاه من دوائه، وقام على علاجه أيامًا حتى فتح عينيه وتحرك لسانه، وكان فرح العرب بذلك عظيمًا. واستمرت العناية حتى عادت إليه عافيته وركب جواده، وكان مبعث سعادة العرب وهناءتهم.

أما كسرى فإنه جعل يسب بختك ويشتمه ويقول: أنت سبب المصائب، وليتني أسلمتك إلى العرب، وأرحت نفسي وحميت ملكي وعشت آمنًا في بيتي.

فقال بختك: ما كنت أظن أن العرب سيجتمعون كما كانوا بهذه السرعة العاجلة، وما كنت أبغي لك إلا النصر والفوز العظيم، ولكن عمر العيار هو الذي دبر هذه الخطة، وجمع العرب وأخفى عنا أخبارهم حتى دهمونا بسيوفهم في حلك الليل.

***

﴿ ٤ ﴾

كان حمزة وزوجته سلوى في إحدى بلاد الشام فأرسلها إلى مكة لتقيم فيها وتضع حملها، ولكن عمر الحبشي وصقلان الرومي سرقاها ومضيا بها إلى زوبين، وهذا أهداها إلى صاحب مدينة كيوال، الذي أرادها لنفسه زوجة، وخاطبها في ذلك فأظهرت الرضا وأمهلته حتى تضع حملها، وبعد أربعين يومًا من وضعها، أحضرت صندوقًا ووضعت فيه ابنها ومعه جواهرها وحليها، ثم أحكمت إغلاقه وألقته في البحر ليكون في رعاية الله يقضي فيه بما يشاء، ووضعت في يده سوارًا كتبت فيه أنه ابن الأمير حمزة البهلوان، وجاءها صاحب كيوال وطلب منها الوفاء بما وعدت فأبدت له سرورها ورضاها، ولما خلا إليها بقرت بطنه بخنجرها ثم شقت به بطنها، وماتا، ودخل الخدم عليهما في الصباح فوجدوهما قد قتلا، وذاع الخبر واجتمع أهل المدينة فدفنوهما وأدركوا أن سلوى فعلت ذلك صونًا لنفسها، وكان لها بذلك شأن جميل بين الناس نسائهم ورجالهم.

وعثر صياد بصندوق الغلام عقب إلقائه في البحر فأخرجه وأخذه إلى بيته، والأمل في الغنى يلمع في نفسه أحيانًا ويختفي حينًا، ودعا زوجته وفتح الصندوق بين يديها وهي تمنيه بالغنى والسعادة، وغاب الأمل وضاع الغنى حين كشف الغطاء ووجداه غلامًا، وكان جميل الوجه حسن التقويم، فقال الصياد: ربما كان لهذا الغلام شأن عظيم، وما وضعته أمه في الصندوق وألقته في البحر إلا لتخف أمره، وقالت زوجته: وما أعلمنا؟ لعل امرأة دفعها شذوذها إلى أن فعلت بابنها هذا ما فعلت، وعلى أية حالة فنحن لا مال لنا ولا ولد، فلنتخذه لنا ولدًا، ولعل الله يرزقنا بسطة في العيش بسببه ..

وأخرج الصياد الغلام من الصندوق، وناول زوجته إياه، ثم بحث في الصندوق فأخرج الجواهر والحلي وقال لزوجته: ألم أقل لك إن هذا الغلام

ذو شأن عظيم، وما أرادت أمه إلا إخفاء أمره، فوضعت معه في الصندوق هذه الجواهر والحلى، لتنفق في تربيته، لأنها تبغي له الحياة والبقاء؟ فقالت زوجته: سواء علينا أكان معه مال أم لم يكن فإن الواجب الإنساني يقضي علينا بكفالته، ثم أحست في ساعده شيئًا فتبينته فوجدته سوارًا وقالت لزوجها: وهذا ساعده يحمل سوارًا ذهبيًا فنظر فيه وقرأ: هذا ابن الأمير حمزة البهلوان وأمه سلوى، وكان صيت حمزة قد ذاع، وعرفا من أمره شيئًا كثيرًا، كما عرفا قصة سلوى وأنها قتلت صاحب المدينة وقتلت نفسها، فاندهش الصياد وقال: وضح الأمر وعرف الغلام، ووجب علينا أن نكتم أمره وأن نحسن كفالته ليكون منبع سعادة لنا إلى الأبد، وعرف به زوجته، فقالت: إنه ابننا وقد سميته بديع الزمان. فانهض أنت من الآن وافتح لك متجرًا في المدينة، وسيرزقنا الله من فضله بسبب هذا الغلام.

شغل الصياد بمتجره وأراد الله له الرواج والسعة، وشغلت الزوجة بتربية الغلام وخدمته، ولما كبر ألحقه الصياد بالمدرسة فكان تلميذًا نجيبًا، حتى إذا ما انتهى منها جعله كاتبًا في متجره، والغلام لا يعرف له أبًا ولا أما إلا ذلك التاجر وزوجته، وكانا من أصل عربي، ويعبدان الله بخفية، ولهذا حرص الصياد على أن يعلم الغلام اللغة العربية فيما تعلم من لغة المدينة. كان فريد بن زوبين يطوف بالمدينة فرأى ذلك الغلام في المتجر قائمًا بأعماله الكتابية خير قيام فنال إعجابه ورغب أن يكون كاتبًا في ديوانه، وخاطب الصياد التاجر في شأنه، فلم يجد مفرًا من الاستجابة له، ووصاه أن يعني بأمره لأنه ابنه الوحيد الذي لم يرزق غيره، وأخذه فريد وعنى بتعليمه الفروسية وركوب الخيل والصيد وفنون القتال إذ وجد في فطرته استعدادًا للتبريز والتفوق في هذا السبيل، وكان ما قدره، وفاق بديع الزمان أقرانه من الأبطال والفرسان.

ودخل بديع الزمان الديوان ذات يوم فوجد رجلًا جالسًا بجانب فريد ابن زوبين، وهو يخاطبه في استكبار وأنفة ويقول: إن الملك مهرين لم يرد أن يرهقك بعد قتل أبيك ويطلب منك الجزية لأنه كان صديقًا لوالدك، ولما انتظم أمرك وصلح شأنك لم ترسل إليه الجزية التي كان يرسلها أبوك

إليه من قبل، وقد بعثني إليك لأطلبها منك بالمعروف والحسنى، فإن أبيت عزلك أو قتلك وولى بلاده غيرك، وكان الرجل قاسيًا في بلاغه غليظًا في قوله، فلم يحتمله بديع الزمان، وشهر سيفه وضربه به فقتله.

فزع فريد، ولام بديع الزمان وقال: لقد جلبت علينا المصائب بقتلك رسول الملك مهرين، فنحن ضعاف أمامه وما لنا قدرة على قتاله فقال بديع الزمان: أنا الذي قتلته، وأنا الذي أحمل تبعة قتله، وسأذهب من فوري إلى مهرين مليكه فأقتله كما قتلت رسوله، ثم خرج من الديوان واختار ثلاثمائة فارس، ومضى إلى مدينة مهرين، وعسكر على مقربة منها، وبعث إليه كتابًا قال فيه: «لقد ظلمت واعتديت، وأرسلت إلى فريد تهدده وتطلب منه الجزية وغفلت عن أن بديع الزمان عنده، فاخرج إلى لقائي، لأسقيك كأس الموت مريرة»، وقرأ مهرين الكتاب وثارت ثورته وخرج في جنده إلى لقائه، فلما التقيا قال مهرين لبديع الزمان: كيف دفعك الغرور إلى أن تعادي مهرين، وليس لك في الفرسان ولا في المعارك شأن يذكر؟! هل وطأت بقدمك بساط كسرى أنو شروان؟ هل تزوجت ابنته غصبًا؟ هل لقيت حمزة البهلوان في معمعة القتال؟ هل لقيت رستم أو أندهوق أو غيرهما من الأبطال؟ إنك لا تزال في دور الصبا والحداثة، فما الذي حملك على أن تتحداني وتعاديني؟! فاستمع لنصحي، وارحم ضعفك وحداثتك، وارجع إلى صاحبك صاغرًا ذليلا.

فقال بديع الزمان: إن القول كثير، وأستطيع أن أكيل لك منه ما يصغر شأنك، ولكن مقطع الحكم في حد السيف، فابرز لي لتعرف نفسك من بديع الزمان، الذي ترميه بالصبا والحداثة.

لم يجد مهرين بدًّا من مبارزته، وقام بينهما أعنف كفاح دام ساعات من الزمان، ثم اختطفه بديع الزمان ورفعه بيده وقال: ما شأنك الآن؟ هل أضرب بك الأرض فأخلط عظامك بلحمك؟

فقال مهرين: عفوًا يا بديع الزمان، فما كنت أحسبك تفوق حمزة البهلوان، وما كان لمثلي أن يعادي مثلك، فإن عفوت عني كنت معك ومن أتباعك،

والأمر إليك، فأعاده بديع الزمان إلى ظهر جواده وقال: عفوت عنك ووهبت لك دمك، فقد عرفتني وأنت حر فيما تريده لنفسك، فقال مهرين: ما أردت بقولي مكرًا ولا خديعة، ولكني أحببتك ولا أبغي فراقك فاجعلني وقومي من رجالك الذين يحملون سيوفهم بين يديك حيث كنت.

فقال بديع الزمان: قبلت صحبتك وأخوتك، ولن تراني بعد ذلك إلا أخًا وفيا، ثم اصطحبا ودخلا المدينة في مظاهر رائعة من الفرح والغبطة.

ولبث أسبوعًا عنده مغمورًا بالكرم السابغ والحفاوة البالغة، ثم جند مهرين جنوده وسار معه إلى فريد بن زوبين في مدينته، وضربوا خيامهم في ظاهرها، ثم دخل بديع الزمان ومهرين على فريد بن زوبين في ديوانه.

وقال بديع الزمان: هذا مهرين الملك قد جاءك أخًا وفيا خاضعًا لأمرك، تقضي فيه وفي جنوده ورجاله بما تشاء، فنهض إليه وسلم عليه، وهنأه بتلك الصداقة التي ستعود عليهم جميعًا بالخير والسلامة وأصبح لبديع الزمان في هذه البلاد شأن عظيم.

وجاء فريد بن زوبين كتاب من كسرى يدعوه فيه أن يأتي هو وجنوده وأتباعه إلى وادي خراسان ليشهد إلقاء حمزة البهلوان في النار يوم عيد النيروز، ولما قرأه قال بديع الزمان: وكيف وقع حمزة في أسر الفرس بعد أن أيسوا من قهره؟ فحكوا له قصته وكيف سرق غدرًا وغيلة، وأخذ فريد في الاستعداد للرحيل، ورجع بديع الزمان إلى أبيه وأمه ليستأذنهما في الرحيل، وأخبرهما بما هو ذاهب إليه، فأطرق الصياد قليلًا ثم رفع رأسه وقال: وهل يرضيك أن تشهد قتل رجل يعبد الله ويؤمن به؟ فقال: نعم، لأنه ترك النار التي نعبدها وعبد غيرها، فقال: وهل ترضى أن تشهد قتل رجل أنت أقرب الناس إليه، وتلزمك حمايته والقتال دونه؟ فقال: أوضح ما تريد، هل هو أبوك أو أخوك أو ابنك حتى كنتُ أقرب الناس إليه؟

فقال الصياد: أصبح من المحتوم أن أطلعك على الحقيقة، أنت بديع الزمان، وأبوك حمزة البهلوان، وقصتك كيت وكيت... وهذا هو السوار الذي وجدناه في ساعدك، فسكت بديع الزمان طويلًا ثم قال: أصحيح

ما تقول؟ فقال: لو لم تكن هذه المعضدة لاعتراك الريب فيما قلت، فقال: ولعل فريد بن زوبين يعلم ذلك؟ فقال: لا يعلم أحد حقيقة أمرك إلا الله وأنا وزوجتي، وقد حرصت على كتمان أمرك حتى تبلغ رشدك ويكون أمرك بيدك، فقال: شكرًا لك، وأنا مدين لك ولزوجتك بما يدين به ولد لوالديه، غير أني في عجب عظيم: كيف يأخذني فريد بن زوبين لأشهد رمي أبي في النار؟ لقد كفرت بنارهم، وآمنت بالله الذي بيده ملكوت كل شيء، وسأذهب إلى مهرين وفريد لأدبر الأمر وأرى ما سيكون.

جلس بديع الزمان إلى مهرين وقال له: لقد ظهر ما يفرقنا ويقطع حبل الأخوة بيننا، فقال: لن يكون ذلك أبدًا حتى يواريني تراب قبري، فقال بديع الزمان: إن الأمر كذا وكذا.. وحكى له قصته، ثم قال: ولهذا فإني ذاهب إلى وادي خراسان لأخلص أبي حمزة الذي أصبحت على دينه.

فقال مهرين: ذلك أمر يزيد في أخوتنا، ويقوي الرابطة بيننا، لأننا ندين بالنار قهرًا وخوفًا من كسرى، ولو أتيحت لنا فرصة غير تلك لآمنا بالله وتركنا عبادة النار، ولأن حمزة أبوك، وما دمنا نحبك فإنا نحب والدك، ولهذا فإني وقومي معك إلى وادي خراسان لتخليص أبيك وأميرنا، فقال: شكرًا لك، واسمك من الآن عبد الله مهرين، وتعال معي إلى فريد بن زوبين لأدعوه إلى دين الله، وأن نكون يدًا واحدة، فإن عصى واستكبر قتلته وجعلت منه عبرة ومثلًا.

مشى بديع الزمان إلى فريد ومعه عبد الله مهرين، فلما جلسا واطمأنا قال بديع الزمان: عرفت في اللحظة الأخيرة أن أبي الأمير حمزة البهلوان وقصتي كيت وكيت، وحكاها له، ثم قال: ومن أجل ذلك جئتك لأدعوك إلى دين الله وتكون معي في تخليص والدي، وترخي على الماضي ذيل النسيان، ولا يحزنك أن أبي حمزة قتل أباك زوبين.

فقال فريد: أأنت ابن سلوى التي أخفت أمرك ؟! أأنت ابن حمزة الذي قتل أبي؟ وكيف يأويك ديواني وأنت عدوي وابن عدو أبي، لا كنت ولا كان أبوك وأمك، ولا بد من ذبحك ذبح الشاة.

لم يجد بديع الزمان جوابًا لهذا الغرور الجاهل إلا أنه استل سيفه وهوى به على رأس فريد فشقه وقتله في عقر ديوانه.

ثم صاح في الرجال: من تبعني سلم من سيفي، ومن عصاني فهذا مصيره - وأشار إلى فريد وهو غارق في دمه - وصاح مهرين: أنا وقومي أول من يتبعك، ونحن طوع يمينك، وخاف أهل مدينة فريد فصاح منهم من أعلن طاعته، ثم جعلوا يزيدون حتى كانوا جميعًا تبعًا له، وعلى دينه ومذهبه، ثم سار بالرجال إلى وادي خراسان، وكان له الأثر المجيد في تخليص والده الأمير حمزة.

وسمع حمزة وأمراء العرب قصة بديع الزمان، فأسف حمزة على زوجته سلوى، وفرح بابنه ونهض إليه وضمه إلى صدره، وفرح العرب وشكروا له شجاعته وما أبداه من الكفاح والقتال حتى نصرهم الله نصرًا عزيزًا.

***

حسد قاسم بن رستم فرتم بديع الزمان على منزلته بين العرب، فضحك حتى استلقى على قفاه، فسأله جده حمزة: مم تضحك يا قاسم؟ فقال: ضحكت مما وجدته فيكم، فقد ارتفعتم بابن الصياد الذي تربى في الذل والمهانة وخدم فريد بن زوبين في ديوانه، وجعلتموه أميرًا فيكم، فأدرك حمزة أنه مخبول أو حاقد، وقال له: إذا جلست بين الأمراء فليكن حديثك حديث الأمراء، فقال: وكيف أرضى أن يساويني في الإمارة هذا الحقير الذي كفله الصياد ورباه، وأنا أمير لأبي وأمي؟!

فغضب رستم أبوه وأمسك يده وأخذه وقال: اذهب إلى بلدك وبلد أمك فلسنا في حاجة إليك، ثم قال حمزة: لا يحزنك ما سمعت من قاسم فهو ابن أخيك، ولا يزال حدثًا غريرًا، فقال: على أية حال فهو ابن أخي وليقل ما يشاء.

ثم قال حمزة: ما دامت المدينة متينة أسوارها، ولا ينفعنا حصارها فلنرحل منها.

فقال الأمراء: لنأخذ رأي عمر العيار في ذلك.

فقال عمر: أمهلوني حتى أطوف حول المدينة فإن لم أجد منفذًا إليها رحلنا، ثم نهض قائمًا وتنكر في صورة حاجب من حجاب ملكها سمنهور، وجعل يطوف حولها وهو لا يجد لها منفذًا، حتى وجد كلبًا بجانب سورها. فقال: هذا من كلابها ولا بد أن يكون قد خرج منها، وهو الذي سيدلني على المخرج الذي جاء منه، ثم نهره فجرى أمامه وهو يعدو من خلفه حتى دخل سردابًا ضيقًا فدخل من خلفه حتى كان في المدينة، فقصد ديوان كسرى فوجده جالسًا فيه تعلو وجهه غبرة قاتمة من الحزن وآلامه، وبختك بجانبه، وقد لمح في عمر العيار أنه كثير الجولان بنظره، والتسمع بآذانه لم يشاركه في ذلك أحد من الحجاب، فظنه عمر العيار وعزم أن يمسكه ويقبض عليه، فلما قال له كسرى: أرأيت كيف خسرنا رجالنا وشرفنا وحبسنا في هذه المدينة فلا نستطيع الخروج منها، قال له: انتظرني حتى أدبر لك في الحال المنفذ الذي ستخرج منه دون أن يحس العرب، وانتظر عمر ليعرف ماذا يفعل، وبعد برهة وجد عمر العيار شخصًا يقبض عليه وسمع بختك يقول: هذا عمر العيار فأمسكوه، وكان قد خرج وأرسل رئيس العيارين في خراسان، واسمه محبوب النار فأمسكه ووقف به أمام كسرى.

فقال له: أأنت عمر العيار؟ فقال: نعم، فقال: لقد قتلت رجالي وخربت بلادي وأذللتني، ولا جزاء لك عندي إلا القتل.

فقال عمر: ما دام الأمير حمزة قد نجا فلا يهمني قتلت أو حييت، وإن لي ابنين عيارين في العرب وهما أكثر مني قدرة، وأوسع حيلة وأعظم نفعًا، فافعل بي ما شئت، فإني لا أرهب الموت.

فقال بختك: سنقيم له بناء فوق سور المدينة، ونضعه فيه على مرأى من العرب فإذا رأوه جاءوا لإنقاذه، وحينئذ ترميهم جنودنا بالنبال حتى نقتل منهم كثيرًا، وأمر محبوب النار العيار أن يحبسه عنده حتى يقيم البناء، ووصاه أن يكون يقظًا شديد الحرص حتى لا يخدعه ويفلت من يده.

دخل محبوب النار وعمر العيار غرفة وأغلقها، وجلس إلى جانبه يحرسه

وأخذ عمر يفكر: كيف يفر من هذه الغرفة ويفلت من تلك القيود التي تحبس يديه ورجليه؟ واهتدى أخيرًا إلى حيلة فقال لمحبوب النار: أرأيت لو أحسنت إلى أخيك العيار في سجنه هذا بشيء من الخمر ليخف عن نفوسنا بؤس الحبس وآلام ضيقه؟! فقال: ذلك يسير علينا، ولا مانع لدي من إكرامك ما دمت في يدي، ثم خرج وأغلق الباب ومضى إلى السوق فأحضر طعامًا وخمرًا كثيرًا ورجع، فقال: أحضرت لك فوق ما طلبت من الطعام والخمر، فقال: شكرًا لك فاجلس واسقني وأطعمني واشرب معي، فجعل محبوب النار يطعمه ويسقيه ويشرب معه الخمر، وكان محبوب النار شرها في الشرب فجعل يعب حتى ثمل وسكر وصار لا يعي.

فقال عمر: افكك يدي لأتناول الطعام، والخمر وأريحك، فقال: حسنًا طلبت فإني في حاجة إلى الراحة.

ثم فك يديه، وأخرج عمر جراب إسماعيل من جيبه وقال: ضع رجليك في هذا الجراب. فوضعهما وهو لا يعي، وما لبث أن ابتلعه الجراب وأصبح محبوب النار في ظلام حالك داخله، وكانت هذه الحال قد ردت إليه بعض الوعي، فناداه: أخرجني يا عمر من هذا الظلام، فقال: يخرجك بختك الذي تخدمه، ولو كنت مع العرب لكان معك مثل الجراب وغيره، فقال: إني أعدك أن أكون معك وأن أطلق سراحك على أن أصحبك إلى العرب لأنجو بنفسي من بختك، فقال: ناولني مفتاح القيود حتى أفكها، فناوله إياها ومعها مفتاح الغرفة، وأطلق عمر نفسه من القيود وفتح باب الغرفة وخرج منها ثم أغلقها ومضى ومحبوب النار في جرابه، وكان ذلك في منتصف الليل، وقد عزم على أن يأتي برجل يضعه في الحبس بدلا منه، فرأى شخصًا واقفًا على مقربة من قصر الملك سمنهور، وكان الظلام شديدًا ولكنه يرى فيه أكثر من غيره، فقرب إلى أنف الرجل منديلا به بنج، ولما ملأت ريحه أنف الرجل وقع على الأرض مغشيًا عليه، فحمله وأدخله الحبس، ووضعه في قيوده وأغلاله كما كان هو ثم أغلق الغرفة ومضى، وكان هذا الرجل ابن الملك، وكان واقفًا ينتظر جارية من جواري أبيه، فاستحق ما وقع فيه.

وقال محبوب النار لعمر: إني أعاهدك على أن أكون من عياريك أخدم العرب في صدق وأمانة، ولكن أخرجني من الجراب، فقال: إن العرب يؤمنون بالله ويبغضون الكفار الذين يعبدون النار، فقال: آمنت بالله، وأعاهدك على الأمانة والصدق، وأن أكون معك حيث كنت، وأحب أن تخرجني من الجراب، وعرف عمر صدقه وتأكد منه فأخرجه، وقال محبوب النار: لقد فكرت في إطلاق سراحك، ولكننا لم نفكر: كيف نخرج من المدينة، وليس فيها منفذ لنملة، فقال عمر: تعال، ومشيا في السرداب حتى خرجا من المدينة، وعجب محبوب النار أن يعرف عمر مسارب المدينة وهو لا يعرفها.

أما بختك فإنه أمر في الصباح أن يأتوا بعمر، ويضعوه في البناء الذي أقاموه فوق السور، ويقطعوه بسيوفهم، ولما جيء بابن الملك وكان عمر جعله على شكله إذ كحله وطلب أن يكون مثله، جعل هذا الابن يصيح مستغيثًا: أنا ابن الملك، ما فعلت شيئًا أستحق أن أقتل من أجله، لست عمر العيار، وأهل المدينة مجتمعون وبختك وكسرى وحاشيته، ثم أمر بختك أن يقتلوه وهو لا يزال يعتقد أنه عمر العيار، فلما قتله الجند بطل أثر الكحل، ورجع إلى شكله وعرفوا أنه ابن الملك، وما هو بعمر العيار، فانقلب فرح المدينة إلى غم عظيم وقال كسرى لبختك: كلما خطوت بنا خطوة أوقعتنا في مصيبة، وليتني أسلمتك إلى العرب واسترحنا من شؤمك، فما كنت إلا نكبة علينا، فقال: وما أعلمني أن عمر سيفلت ويضع مكانه ابن الملك، لقد كنا جميعا نعتقد أن عمر، وما أرتاب أحد منا في ذلك، وبات كسرى ورجاله وأهل المدينة وحاكمها وزوجته في غم عظيم.

أما عمر ومحبوب النار فإنهما دخلا معسكر العرب، وما كادوا يرون عمر حتى هاجوا فرحين وأقبلوا إليه من كل ناحية مهنئين ووصل إلى الأمير حمزة يشق الزحام شقًا حتى كان عنده، فنهض إليه وقبله، ونهض الأمراء فرحين مهنئين، ثم جلس إلى جانبه وقص عليه ما فعله وقال: وهذا محبوب النار أكبر العيارين في خراسان قد جعلته رئيسًا للعيارين عندى، وقد آمن بالله

وعاهدني على أن يخدم العرب في أمانة وصدق ولما انفض المجلس انصرف كل إلى مقره ونام إلى الصباح، أما عمر فإنه جعل يطوف بالليل حول المعسكر لعله يجد عيارًا أجنبيا أو غريبًا، وبينما هو سائر وجد رجلا وامرأة، فأمرهما بالوقوف وسأل: من أنتما؟

فقال الرجل: أنا الملك سمنهور حاكم خراسان وهذه زوجتي نريد الأمير حمزة في أمر لنا، فقال: إني أخوه ورئيس عسكره، فقل ما شئت فإني أقضي لك ما تريد، فقال: أريده في سر لا أحب أن يطلع عليه أحد، فقال: إن لم تطلعني عليه فلن تطمع في الوصول إليه، لأني أخوه وأمينه، وما أنت بواصل إليه حتى أعرف ما تريده، فقال: قتل الفرس ابننا الوحيد بدلا من عمر العيار، وما عرفنا ذلك إلا بعد موته، وتلك المصيبة حلت بنا من أجل كسرى ووزيره الخبيث بختك، وأخشى أن تفتح المدينة ويدخلها العرب فيقتلوننا فيمن يقتلون، ولهذا جئت لأعرض عليه أن أفتح له المدينة ليدخلوها على شرط أن تدوم لي حكمها، وأكون ملكها، وألا ينهب العرب شيئًا من المدينة إذا دخلوها، فقال له: تعال معي؛ وأخذه إلى صوان أخيه حمزة وأيقظه من نومه، وجعل سمنهور يحكي ما جاء من أجله، فجمع حمزة الأمراء، وعرض عليهم ما يقترحه سمنهور من فتحه المدينة مع الوفاء بما شرط من بقائه فيها ملكا، ومن حماية أموال المدينة من أن تنهب أو تؤخذ ظلمًا، فوافقوا على ذلك واتفقوا على أن يكون موعد فتح الباب قبل الفجر بساعة، ومن باب معين ذهب معه عمر العيار وعرفه.

واستعد العرب لدخول المدينة ليلا، وقبل الفجر في ذلك الموعد المتفق عليه كان العرب، أمام الباب، ودفعوه بأيديهم، فانفتح وتدفقوا إلى المدينة فاهتزت بالجنود من جميع نواحيها، وارتفع الصياح وجرت الدماء، وصعدت الأرواح، وأحس كسرى تلك الجلبة، فقال لبختك: إن العرب دخلوا المدينة، فقال: لا تخف فإن المدينة حصينة، ولا يقدر العرب ولا أمثالهم أن يقتحموها ولكنهم يصيحون أمام أبوابها، وسيرحلون عنها إذا ما يئسوا، ودام القتل والذبح حتى وصل الفرسان إلى القصر الذي فيه كسرى

وبختك، فأيقن أنه وقع في يد العرب.

وفار غضبه على وزيره بختك فلطمه على وجهه وقال: أهلكتنا وخربت ديارنا وكنت شؤمًا علينا، وما أتم شتمه حتى دخل عليهم عمر العيار وجماعته، فقبضوا على كسرى وبختك وكتفوهما وقيدوهما، وقال عمر لبختك: سأريك الصليب الذي أقمته للأمير، والبناء الذي أنشأته لي.

وفي الصباح جلس الأمير حمزة في دار الحكم وأمر أن يقف القتال، وأن تهدأ المدينة، وأن يخرج الجنود إلى خيامهم، ولا يبقى في المدينة إلا كبار الفرسان، ففعلوا، وجاءه الأمراء في مجلسه وعمر العيار ومعه كسرى وبختك، فلما رأى حمزة كسرى مقيدًا مكتفا أمر أن يعتق من قيوده وأغلاله، ثم نهض وسلم عليه وأجلسه بجانبه وقال له: لا بأس عليك، فلا تزال ملكًا وسيدًا في قومك، ولا نريد لك إلا الخير والعافية، ولو أنك عصيت وزيرك بختك لرأيت العرب جميعًا في طاعتك.

فقبله كسرى بين عينيه وندم على ما فعله، واعتذر بأن وزيره هو الذي دفعه إلى هذه الأخطاء، وشكر لهم هذا الخلق الكريم والمروءة العالية، فقال حمزة: إنا نصونك ونحميك بأرواحنا، ولا زلت ملكا، ولك منا كل إجلال ومحبة. أما وزيرك بختك فإنه مقتول لا محالة، فقال كسرى: الأمر لكم ولا راد لما تقولون.

فاضطرب بختك وقال: إنك أيها الأمير كريم النفس عالي الهمة، تعفو عند القدرة، ولا تقابل الشر بمثله، وقد عفوت عن الملك فاعف عن وزيره.

فقال حمزة: لم تكن عدوا للعرب فحسب، ولكنك عدو للإنسانية عدو للخير، عدو للفضيلة، فوجب اقتلاعك من بين الجماعة الإنسانية، والعفو عنك جريمة لا غفران لها، فخذه يا عمر واقتله شر قتلة.

وقال كسرى: لقي جزاءه الأوفى، وأرحتنا من شره، وطهرت البلاد من فساده وخبثه، ثم استأذن حمزة في أن يعود إلى المدائن، لأنه أبغض بختك ومجه، ولا يحب أن يرى وجهه حيًا ولا ميتًا، فأذن له وودعه خير وداع.

أما عمر العيار فإنه طلا جسم بختك بالكبريت، وصلبه على خشبة في

الساحة العامة للمدينة، ثم أشعل فيه النار في يوم مشهود وحفل جامع، وبذلك خمد بركان الشر الذي أهلك بحممه العباد، وخرب البلاد، وأعلن حمزة الرحيل إلى مكة حيث توزع المغانم، ويعود كل أمير بجنوده إلى بلده، ثم سلموا على سمنهور حاكم خراسان، وتركوه فيها ينعم بملكه، وإن كان قد خسر ابنه.

***

﴿ ٥ ﴾

وبعد سير يوم نزل حمزة بجنوده للراحة، وفي أثنائها دخل عليه عمر ومن خلفه رسول من العجم فتقدم وناوله كتابًا، فلما قرأه بكى وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ففزع الحاضرون وسألوه عما فيه، فقال: هذا كتاب من فرمز تاج بن كسرى يخبرنا فيه بموت أبيه على أثر مرض أصابه في طريقه، ويطلب منا العودة إليه لنجعله في الملك خلفًا لأبيه، فحزن العرب وعزوه وسألوه: هل تريد العودة إلى المدائن؟ فقال: نعم، ولا بد من ذلك، لنقيمه ملكًا ونجدد عهد السلام بيننا وبينه، ثم نعود منها عن طريق العراق، فوافقه العرب وساروا في رعاية الله.

ولما وصلوا إلى المدائن ضربوا خيامهم في ظاهرها، وجاءه فرمز تاج وسادات العجم، فسلموا عليه، ورغبوا أن يدخل المدينة لتقرير الملك وتولية من يختاره، فقال لهم: سآتيكم بعد ثلاثة أيام، حتى نستريح من متاعب السفر، فودعوه ورجعوا ولبثوا ينتظرون. وجمع حمزة أمراء العرب وساداتهم وشاورهم فيمن يكون ملكًا للفرس فقالوا: إن تقاليد الملك وعرف الفرس تقضي بالملك لأكبر الأبناء، ولهذا كان فرمز تاج خلفًا لأبيه لأنه الأكبر والأرشد، فقال: وذلك ما عولت عليه بيني وبين نفسي.

وكان لبختك ابن اسمه بختكان وهو أشد من أبيه عداوة للعرب وأخبث منه نفسًا، وأقدر منه على الغش والخداع والسعي بالفساد، وقد عزم على أن يكون وزيرًا للملك الجديد، ليتمكن من أن ينتقم لأبيه من العرب، وأخذ يسعى لتحقيق ما عزم عليه.

ذهب إلى فرمز تاج في قصره، ولما جلس واستكمل تحيته قال: لقد علمت يا سيدي مبلغ المحبة التي كانت بين أبي وكسرى أبيك، وأنه كان حريصًا عليه من العرب، وأنه ما ترك مكيدة يقضي بها على العرب إلا فعلها، ولكن

الأيام لم تساعده، وقتله العرب بسبب تفانيه في خدمة أبيك، ووقوفه سدًا منيعًا في سبيل أطماعهم، وسعيهم إلى أن يكون لهم في الفرس نفوذ الحاكم وسطوة السلطان المالك، وأخشى أن يعطي أخاك الملك ليتخذ له وزيرًا غيري، يكون من طبعه وسياسته اللين والتفريط في حقوق البلاد. فقال: وماذا ترى في هذا الأمر يا بختكان؟ فقال: أرى أن تذهب سرًا إلى ابنه بديع الزمان، وتبين له جدارتك بالملك من دون أخيك، وترجو منه أن يكون سندًا لك وعونًا، فإن وعدك بالملك فارجع مطمئنا فإن العربي لا يرجع في قوله، فقال فرمز تاج: إن صح هذا فلن أختار وزيرًا غيرك لي يا بختكان، ليكون ما بيننا من المحبة مثل الذي كان بين آبائنا، ولا أنسى لك هذه النصيحة، وفي الصباح أمضى إلى بديع الزمان، ليمدني بمعونته فهو فارس عظيم، وإن أباه يحبه، ولا يرضى أن يرد له رجاء.

خرج بختكان من عند فرمز تاج وذهب إلى أخيه فروخ في قصره، وحدثه بما حدث أخاه، وأشار عليه أن يمضي إلى رستم فرتم بن حمزة، ويطلب منه معونته، فشكره فروخ ووعده ألا يتخذ لنفسه وزيرًا غيره ثم خرج بختكان فرحًا، لأنه ضمن لنفسه الوزارة مع فرمز تاج أو أخيه غير عابئ بما يقع بين العرب من شقاق، فذلك من مآربه التي يسعى إليها.

وفي الصباح ذهب كل من فرمز تاج وفروخ إلى صاحبه، وحدثه بما أشار به بختكان بن بختك، ونال وعدًا أن يكون له الملك وإن خالفه العرب، واطمأن كل من الأخوين إلى مصيره، ولم يكن بديع الزمان قد عرف مسير فروخ إلى أخيه رستم، ولا عرف رستم مسير فرمز تاج إلى أخيه بديع الزمان. وكل منهما عازم على أن يساعد صاحبه.

اجتمع الأمراء وحمزة في صوانه في اليوم الثاني فقال لهم: لم يبق لنا إلا أن ندخل المدينة غدًا لنختار الملك ونوليه، ثم نرحل في الحال إلى مكة، فقالوا: متي شئت سرنا بإذن الله تعالى، وانتهز رستم هذه الفرصة وقال: وعلى من وقع اختيارك يا أبي ليكون خلفًا لكسرى أنو شروان؟

فقال بديع الزمان: ليس في الفرس من يصلح للملك غير فرمز تاج لأنه

أكبر أبناء الملك الراحل وأرشدهم وأحبهم إلى الفرس، فقال رستم في لهجة الغاضب: إن فروخ أخاه أصلح للملك منه، ولا أريد أن يكون غيره ملكا، فقال حمزة: إن فرمز تاج أكبر الأبناء، ومن المعروف عند الفرس وغيرهم أن الأكبر يحكم الأصغر، ما دام الأكبر عاقلا رشيدًا، فقال رستم ولكني أردت الملك لفروخ، ولن يكون إلا ما أردت، وقال بديع الزمان: ومن قال إن الإرادة الشخصية المحضة من عوامل السياسة الرشيدة؟ وما دام أن الحق ظاهرًا فلا ينبغي الجنوح عنه إلى نزعة من هوى أو رغبة، واعلم أن بديع الزمان لا يمكنه أن يرى وجه الحق ويفرط فيه.

فقال رستم: قل ماشئت فلن يكون إلا ما أردت، وقال قاسم بن رستم: جاء الزمن الذي رفع فيه العرب ابن الصياد الذي تربى على مهاد الذلة والمسكنة وادعى أنه ابن جدي بهتانًا وزورًا، فالتفت إليه أبوه قاسم وزجره وقال: إن هذا لا يعنيك، وإني قادر أن أنفذ ما قلت دون أن أحط من قدر أبي وأخي.

فقال الأمير حمزة: لا بد أن يكون كل منكما قد جاءه صاحبه ووعده أن يساعده، فقال بديع الزمان: ذلك حق يا أبي فقد جاءني فرمز تاج ووجدت الحق معه فوعدته بالمعونة، وقال رستم: وقد جاءني فروخ أيضًا ووعدته أن أساعده، فقال الأمير حمزة: إن الأمر يهمنا ولا ينبغي أن ندخل فيه إلا للحق والعدالة، وقد رأى جميع الأمراء أن يكون الملك لفرمز تاج لأنه أحق به من أخيه عدلا وحقًا.

فنهض رستم غاضبًا ودعا بالصيصان قائد جيشه وأمره بالرحيل إلى بلده وقال: هذا فراق بيني وبين العرب. فما عدنا نصلح للمقام فيهم أو التعاون بيننا وبينهم، فاجتمع إليه الأمراء وأبوه وجعلوا يخففون عنه غضبه، وهو لا يزال شديد الاستمساك برأيه، وبينما هم في هذه الحال انحطت على الأمير رستم يد واختطفته من بينهم وسمعوا قائلا يقول: إلى كنوز بهزاد، إلى محل الكاهنة زاجورة.

وقع العرب وأبوه في حزن أليم وجاءهم حينئذ بزرجمهر وعرف ما جرى

فخلا إلى نفسه واستفتى علمه في الحكمة والتنجيم ثم جاءهم وقال: لا تخافوا ولا تحزنوا فإنه سيرجع سالمًا بإذن الله، فاستراحوا وذهب عنهم حزنهم، أما الأمير قاسم فإنه لا يزال حاقدًا على جده حمزة، وعمه بديع الزمان فامتطى جواد أبيه ورحل بجنوده، وفي نفسه أن يغتنم فرصة ليوقع بعمه.

وجاء اليوم الثالث ودخل حمزة والأمراء، وولي فرمز تاج الملك خلفًا لأبيه، ووصاه أن يكرم أخاه ويقاسمه الرأي في شئون الملك وأن يحرص على مسالمة العرب حتى يكون عضدًا له في ملكه، ثم قال فرمز تاج: أريد أن أجعل لي وزيرًا يمدني برأيه ويشاركني في تصريف الشئون، فقال حمزة: اختر من شئت من رجال قومك فأنت أعلم بهم منى، فقال فرمز تاج: لا أجد من يصلح للوزارة إلا بختكان بن بختك، فقال حمزة: إن هذا يرث عن أبيه الخبث والخيانة وكراهية العرب وسيتبع سيرة أبيه، ولن يدع العلاقة سليمة بيننا وبينكم، فقال: إنه يختلف عن أبيه في طباعه ومعاملته، وهو مطبوع على الخير والصلاح، وإني أعرف ذلك فيه على أنني لست كأبي أنقاد للوزير في كل شيء، فإذا وجدته قد جنح للشر خالفته وأبعدته، وقال الأمراء: مادمنا قد تعاقدنا على المودة والولاء، فليس لنا شأن بهم، وليختر فرمز تاج لوزارته من يشاء، وليتحمل هو تبعة اختياره، فسكت الأمير حمزة وهو غير مطمئن إلى اختيار بختكان وزيرًا.

وبعد خمسة أيام من تولية فرمز تاج الملك رحل هو والعرب، وولوا وجوههم شطر مكة. ولما أجهدهم المسير نزلوا حيث تعبوا وضربوا خيامهم للراحة، وكان بختكان قد أرسل من خلفهم جماعة من العيارين، فتنكروا في زي العرب، واختلطوا بهم ليسرقوا بديع الزمان بن حمزة كما أمرهم، وبينما كانوا نازلين خرج من المعسكر بديع الزمان وجلس في الخلاء بعيدًا عنه، وكان العيارون يرقبونه، ولما جاء المساء أخذته سنة من النوم، فتقدم إليه أحد العيارين وبنجه، ثم دعا رفاقه فحملوه وطاروا به إلى قلعة الخراب كما أمرهم بختكان بن بختك، ثم مضى إليه أحدهم فحضر معه ورآه ملقى على

الأرض مغشيًا عليه، فأمرهم أن يشدوا يديه ورجليه إلى الحجارة الضخمة، وأن يضعوا على صدره حجرًا كبيرًا ففعلوا وتركوه يقاسي أعنف موتة.

افتقد العرب بديع الزمان وأوجعهم الحزن على فقده، وقال بزرجمهر: لتبحثوا عنه في المدائن فإني في ريب من أمر بختكان بن بختك، فانطلق عمر العيار ودخل المدائن لعله يسمع خبرًا عنه، ودخل الديوان على هيئة حاجب وسمع بختكان يقول للملك فرمز تاج: قد أخذت بثأر أبي، فقال له: هل قتلت حمزة؟ فقال: قتلت ابنه بديع الزمان وقص عليه قصته، فسمعها عمر وطار إلى القلعة الخراب مستعينًا على معرفتها بمرآته حتى دخلها فوجد الأمير مشرفًا على الهلاك، فرفع الحجر عن صدره وقطع الحبال التي شدت بها يداه ورجلاه، وسقاه بعضًا من الماء، ثم وضعه في جراب إسماعيل، وطار به إلى الأمير حمزة، فأخرجه من الجراب ووضعه بين يديه، فأضجعوه على السرير، وقام بزرجمهر بالعناية به حتى أفاق وصحا، وسألوه عما جرى له فقال: لا أدري ولكني جلست في الخلاء وأخذتني سنة من النوم، وصحوت الآن أمامكم.

وقص عمر العيار ما فعله بختكان وعياروه... فقال بديع الزمان والله يا أبي لقد قتلنا الحية وأبقينا رأسها، ولا ينبغي أن نعود إلى مكة حتى نقتل بختكان بن بختك. وكان هذا رأي جميع الأمراء، وقال بزرجمهر: ابعثوا إلى فرمز تاج كتابًا واطلبوا منه أن يسلم إليكم بختكان، فإن أخذتموه فاقتلوه وارحلوا إلى مكة، وإن امتنع فحاربوه وحجتكم أنه نقض العهد وغدر، وكتب الأمير الكتاب وبعث به الذئب بن عمر العيار، فلما قرأ ملك الفرس الكتاب دفعه إلى وزيره فقرأه، ثم قال بختكان: لا تحسبن يا سيدي أنهم يريدوني، ولكنهم اتخذوني وسيلة لبدء الشر وتحقيق أطماعهم، ولا بد أن يكون بزرجمهر الخائن قد حضهم على أن يكونوا ملوك الفرس، فاكتب إليهم بأن الفرس لا يخضعون للعرب ما دام في أجسادهم أنفاس تتردد، فإما أن ترحلوا إلى بلادكم، وإما قاتلناكم حتى نمحو أيامكم. فكتب إليه بما أشار الوزير.

أخذ الذئب الكتاب ودفعه إلى حمزة وحكى له ما سمع من بختكان بن بختك، فأقسم أنه لن يعود إلى مكة حتى يخرب المدائن، ويقتل فرمز تاج وبختكان، وقال الأمراء وما نحن براجعين حتى تبر بقسمك، وقال الأمير: قبل أن نرجع إلى المدائن أرى أن تولوا عليكم ملكا بدلا من قباط، وقال بزرجمهر: ذلك خير لكم وأحزم، وطرحوا أمر اختيار الملك على بساط المشورة، ثم أجمع رأيهم على اختيار سعد بن عمر اليوناني بن حمزة، ثم مضوا وعسكروا حول المدائن. وكان الفرس قد استعدوا للقائهم وعسكروا في ظاهر المدينة ينتظرونهم.

وبعد أن استراحوا يومًا أمر حمزة أن تدق طبول القتال في صبيحة اليوم التالي، واختلط الفريقان، وهاج الفرسان، فسالت الدماء، وتدحرجت الرءوس، وسطت أسود الموت على كل نفس، وغابت شمس ذلك اليوم آسفة على ما وصل بالفريقين من الدمار، وإن كان حظ الفرس منه أضعافًا مضاعفة من نصيب العرب، ودامت الحرب على هذه الحال ثلاثة أيام، وكان بديع الزمان في اليوم الأخير منها قد انحدر بجيشه خلف الأعجام حتى يحول بينهم وبين الهرب في المدائن، ورأى فرمز تاج وبختكان أن الفرس قد أحيط بهم، وأن هذا اليوم نهاية آجالهم، وخافا أن يمسكهما العرب ويقتلوهما ففرا إلى الخلاء، وتشتت على أثرهما جيش العجم ودخل العرب المدينة، وبحثوا عن الملك ووزيره فلم يجدوهما، وسقطت المدينة في أيدي العرب، وأصبحوا ملوكها وأصحاب الأمر فيها، وغنموا ما في الخزائن من الأموال والكنوز، ثم أمر حمزة أن يعلن في المدينة أن العرب سيدمرونها، وأن حمزة أمهل الأهلين خمسة عشر يومًا يرحلون فيها ومعهم ما يشاءون من أموالهم، فأخذوا يرحلون كل إلى وجهته، ثم أمر العرب بعد أن خلت المدينة أن يهدموها ولا يتركوا فيها منزلا مقامًا إلا إيوان كسرى ليكون للناس عبرة، وبعد أن انتهوا من هدمها وتدميرها قال حمزة: لا أريد الرجوع حتى أبر بقسمي، وأقتل بختكان وملكه. وأحب أن أعرف أين هربا؟ فقال بزرجمهر: لا يعرفهما إلا عمر.العيار فقال عمر: سمعًا وطاعة.

ثم ودعهم وانطلق إلى الأرض يمشي في مناكبها باحثًا عنهما حتى وصل إلى مدينة فدخلها متنكرًا، وعجب أن وجدها ثلاثة أقسام، يلبس أهل القسم الأول ثيابًا بيضًا، والثاني ثيابًا خضرًا، والثالث ثيابًا حمرًا، وليس فيها لون آخر إلا للغريب، فسأل أحد شيوخ المدينة عن ذلك فقال: هذه مدينة «دشتمغال» أغار على ملكها السابق أمير اسمه الصدام فقتل الملك وحاصر المدينة، وأصر على ألا يتركها حتى يفتحها، فاجتمع أعيان المدينة وأعلنوا أن من بارز الصدام وقتله وليناه ملكًا علينا، فتقدم رجل اسمه بلكان الهطال، وبرز إليه وقتله وطرد جيشه، ولما رجع نادى به أهل المدينة ملكًا عليهم، وخاف أن يرجعوا في قولهم، فوزعهم إلى ثلاثة أقسام كل قسم مستقل عن الآخر وله زي يعرف به، وحكم وزادت قوته واشتدت سطوته حتى فاق كسرى في المال والرجال، واستقل عنه بعد أن كان له تبعًا.

ذهب عمر إلى ديوان الملك بلكان الهطال فوجده جالسًا وعن يمينه فرمز تاج، وعن يساره بختكان، وهما يثنيان على بلكان، ويطنبان في مدحه وهو يعدهم أنه سيقتل الأمير حمزة ويبيد العرب، ثم رجع عمر إلى حمزة وأخبره بما رأى وسمع، فأمر بالرحيل إلى مدينة «دشتمغال» وساروا في خطا وئيدة حتى نزلوا تجاهها في واد فسيح. ثم أرسل الملك سعد إلى بلكان الهطال سيار بن عمر العيار بكتاب يطلب منه فيه فرمز تاج وبختكان حتى لا يقع بينهما قتال ولا تنشأ عداوة، فلما دفعه إليه وقرأه قال له: ارجع إلى مليكك و بلغه أنه طلب المحال، وغدًا سأخرج إليه بجنودي ليحكم السيف بيني وبينه، وناوله كتابًا بذلك، فأخذه سيار إلى الملك سعد وأخبره ورجع بما حمله وناوله الكتاب، فقرأه على الأمراء وعرفوا ما فيه، واستعدوا للقتال.

وفي الصباح رأوا المدينة فتحت أبوابها، وتدافع الجنود إلى ظاهرها ثم ضربوا خيامهم، وكانوا ثلاثة أقسام كل قسم في ناحية، وضربوا في الوسط صوان الملك بلكان الهطال، وكان من الحرير وعمده من الفضة، ثم أرسل إلى ملك العرب يسأله أن يجعل القتال مبارزة بين فارس وفارس، فقال حمزة: لقد أنصف بلكان وعدل، وحقن دماء الجنود الذين لا ذنب لهم إلا

أنهم طائعون، فأجابه ملك العرب إلى ما سأل وطلب، وفي صبيحة اليوم الثاني برز بلكان الهطال كأنه الليث، وأشار إلى العرب أن يبرز إليه من يشاء منهم، فبرز إليه أربعة من كبار الفرسان فارسًا بعد فارس، وأسرهم جميعًا بعد جلاد عنيف لقيه منهم، وهم: معقل البهلوان، وأصفران الدربندي، وقاهر الخيل، وفرهود، ثم جاء الزوال، ووقفت المبارزة إلى اليوم الثاني، ورجع إلى صوانه، وفرح بختكان وملكه، وبرق فى نفسيهما نجم الأمل في الفوز على العرب والعودة إلى ملكهما.

وكان قاسم بن رستم فرتم قد رجع إلى جده تائبًا معتذرًا فقبله وعفا عنه، ورجا من جده أن يأذن له بمبارزة بلكان الهطال غدًا، وحمزة يأبى إلا أن يبارزه هو نفسه، وبعد إلحاح شديد من قاسم أذن له، وبات فرحًا، ليقينه أنه سيغلب بلكان ويأسره.

وفي الصباح برز بلكان إلى الميدان فانطلق قاسم بن رستم إليه وبدأ الكفاح والمصاولة، وبلكان لا يقدر أن يغلبه حتى قرب الزوال وخشى بلكان أن يعود إلى قومه في خزي من ضعفه وفشله، فوثب عليه وثبة حاسمة، واقتلعه من سرجه وأخذه أسيرا ورجع.

أسف حمزة وقال: لن يبرز إليه غدًا أحد غيرى، فتقدم إليه ابنه بديع الزمان متضرعًا أن يأذن له بمبارزته، وعاونه في رجائه هذا أمراء العرب، فلم يجد بدا من الإذن له. وبات العرب على أن المبارزة غدًا لبديع الزمان.

وفي اليوم الثالث من حرب المبارزة، انفلت بلكان إلى الميدان، وانفلت على أثره بديع الزمان والتقيا أسدين، ترمقهما كل عين فقال بلكان: أراك حدثًا فمن أنت؟ فقال: أنا بديع الزمان بن حمزة البهلوان. وجئتك لنفرغ من المبارزة بأسرك، فقد وصاني أبي ألا أوذيك لأنه معجب بشجاعتك، ولكنه في عجب من حجزك عنه بختكان وملكه، فقال: لأنهما استجارا لي وأجرتهما، فأصبحت لا أفرط فيهما إلا قهرًا، ولهذا كان على أبيك حمزة أن يبارزني، فإما أسرني وأخذهما، وإما أسرته وأفلتا من يده، فقال بديع الزمان: إن أبي لا يخرج للمبارزة وعنده من الفرسان من يغلبك وعشرات من أمثالك، وستقع

في يدي أسيرًا بإذن الله لتعرف مبلغ العرب من القوة والشجاعة، ثم تصاولا وامتدت الأعناق إليهما، ولبثا ساعتين في مجالدة عنيفة لقى منها بلكان تعبًا، ثم مد بديع الزمان يده واختطفه وطار به جواده إلى قومه من العرب، فأسرع إليه عمر العيار وكتفه، ورأى بختكان وفرمز تاج أسره، فخافا أن يأخذهما العرب وهربا وهما يلعنان الزمن الذي سلط عليهما العرب، أما جنود بلكان فإنهم دخلوا المدينة وأغلقوا أبوابها، وذلك بأمر من فرمز تاج ووزيره قبل أن يهربا.

واجتمع الأمراء في صوان الملك سعد، ودعا حمزة بالملك بلكان الهطال، فأحضره عمر العيار، ودخل بلكان ضاحك السن لا يظهر عليه اهتمام بمن دخل عليهم، وجعل يلتفت يمينًا ويسارًا التفات ثبات وسطوة. فاغتاظ حمزة وقال: كأني بك غير خائف على نفسك، فقال: وممن أخاف، فقال: ممن أسروك وكتفوك، فقال: لم يدخلوا في حسابي لأن ورائي من يحميني ويقطع كل يد امتدت إليّ بسوء، فقال حمزة: ومن هذا الذي تعتمد على حمايته؟ فقال: اعلم يا سيدي أن لي جدًّا أخضع بسيفه كل جبار عنيد، وأحب كل ملك في الأرض أن يكون من رجاله وأتباعه، واعلم يا سيدي أن لي أبًا تخافه الأسود في مرابضها، واعلم يا سيدي أن لي عمًا تسجد لسيفه الملوك، فكيف أخافكم أو أهتم بشأنكم؟! فقال: ومن جدك وأبوك وعمك الذين تفتخر بشجاعتهم وبطولتهم؟ فقال: أما جدي فهو حمزة البهلوان، وأما أبي فهو رستم فرتم، وأما عمي فهو بديع الزمان، فاشتد عجب حمزة وقال: وكيف كان أبوك رستم فرتم؟ ومن هي أمك؟

وحينئذ دخلت عليهما امرأة وقالت: العفو أيها الأمير، فلا تمدن يدك إلى حفيدك بالأذى، وهو ابني وأبوه ابنك رستم فرتم فقال لها: ومن أنت؟ فقالت: حسانة بنت هندام، وزوجة ابنك رستم فرتم، فأمر في الحال أن تفك قيوده، وقام إليه واحتضنه، ثم قال: ولم فعلت هذا وعرضتنا وعرضت نفسك للشر والأذى؟ فقال: أردت أن أبارزكم جميعًا، وطمعت أن أغلبكم، ثم أعرفكم بنفسي ليكون لي من الفخر بينكم المقام الأول، ولكني وقعت

أسيرًا في يد عمي بديع الزمان، وأقبل الأمراء عليه يهنئونه فرحين به، ثم سألت المرأة عن زوجها رستم فقال لها الأمير حمزة: إنه غائب عنا الآن في مكان لا نعرفه، ولكنه سيعود إلينا سالمًا. فأخبريني كيف عشت هذه المدة؟ وكيف جئت هذه المدينة؟

***

قالت حسانة بنت هندام: تزوجت رستم وتركني عند أبي في جزائر هندام، وكنت حاملا ثم وضعت غلامًا سميته بلكان، وكان أبي قد عاد إلى عبادة النار، فقال: اكفليه وربيه ولا تخبريه عن أبيه حتى لا يفر إليه ويكون على دينه، ويموت في معارك حروبه، وقمت بتربيته وتعليمه في ظل ظليل من نعمة أبي، واحتفظت بالإيمان وعبادة الله سرًا، ولما كبر واشتد ورأى أبي فيه النجابة والشهامة علمه الحروب ومنازلة الأبطال حتى ذاع صيته وخافه الأقران، وكان لأبي قوة وعصمة عظمت به مهابته وخاف الملوك سطوته، ودخل عليّ ذات يوم وأنا أعبد الله فاندهش، وقال: أين النار التي تعبدينها يا أمي؟ فقلت له: إني أعبد الله الذي خلق النار والماء والهواء، ورزقنا من حيث لا نحتسب، أما النار فقد اتخذها الجاهلون إلها لهم، ولو فطنت إليها لوجدتها من صنع الإنسان، وأنه القادر عليها يشعلها متى أراد، ويطفئها متى أراد، ولو بال عليها حمار لانطفأت، فهل ترى عقلا سليما يستسيغ أن تكون هذه إلها يعبد؟ فقال: وكيف يصبر أبي وقومه على ذلك؟

فقالت: لأن عبادتهم تقليدية، وجدوا آباءهم يعبدونها فعبدوها دون تفكير ولا تدبر، فقال: ومن أين عرفت الإيمان؟ فقالت: من أبيك، فقال: ولكن أبي يعبد النار، فقالت: ليس هذا الذي عرفتك به أنه أبوك، ولكن أباك حمزة البهلوان الذي دوخ ملوك الأرض وأخافهم، فانشرح صدره فقال: هذا القول سليم وأجد في نفسي راحة له لأن العقل استساغه، ولكني أجد صعوبة في أن أصبأ وأترك دينًا نشأت عليه، فقالت: لا حرج عليك أن تنشأ في حداثتك على أي دين، ولكن الحرج متى بلغت رشدك وأصبح

مصيرك في يدك، وليس من العقل أن ترى وجه الحق وتعرض عنه، واعلم بأنك متى بلغت رشدك وعرفت الحق وجب عليك اتباعه، ووجب عليك أن تهدي إليه من ضل عنه.

فقال: لقد أغلقت في وجهي سبل الضلالة وفتحت باب الحق، ولابد لي أن ألجه، وأحب الآن أن أكون على دين الحق دين أبي فماذا أفعل؟ فعلمته الإيمان وعبادة الله، واطمأن قلبه لهذا الدين الصحيح وقال: إني ذاهب إلى أبيك لأدعوه إلى الإيمان، فقالت: أعانك الله يا بني وهداك، ثم مضى ومضت هي من خلفه من حيث لا يعلم، فلما كان بين يدي جده لأمه دعاه للإيمان فأدرك أن أمه أخبرته بأبيه وعلمته الإيمان، واندهش وضاقت الدنيا في وجهه ثم قال: اسمع يا بني، إن أحببت أن تكون على ديني فأنت معى، وإلا فاخرج من مدينتي، واتركني وشأني، فقال: ولكني ابن الأمير رستم بن حمزة وأحب أن أحسن إليك بهدايتك إلى الإيمان كما أحسنت إليّ بتربيتي وكفالتي، فقال: لا شأن لك بي وكل امرئ مسئول عن نفسه، فإن أحببت أن تعيش معي وكل منا على دينه فلا مانع لدي، فقال: إني لا أطيق أن أعيش في جماعة يعبدون النار ولا يعبدون الواحد القهار.

فقال: أبواب المدينة مفتحة أمامك، ولا لوم عليك، فودعه وخرج ومعه أمه فقالت: هيا بنا إلى أبيك فإنه كثير الخيرات سابغ النعم .. قالت أمه: وما زلنا نسير حتى وصلنا إلى مدينة «دشتمغان» فدخلناها لنستريح فيها، وسمع أهل المدينة ينشدون رجلا يقتل عدوهم ويولونه ملكًا عليهم، وكان قد اعتدى عليهم ملك من أعدائهم وغزاهم في مدينتهم وقتل منهم كثيرًا، وأصبحوا منه في حالة بأس شديد، فخرج إليه بلكان وقتله، ثم ولوه الملك وجلس على عرشه، وكان في النية أن يأتيكم، ولكن مجيء فرمز تاج ملك الفرس ووزيره بختكان أقعدنا، ليقيننا أنكم ستقتفون آثارهم وتجيئون المدينة، فلما جئتم وقع بيننا وبينكم ما عرفتم. وهذه قصتي وقصة ابني، فهل هناك أمل في عودة أبيه رستم من غيته؟ فقال حمزة: ستجدينه حاضرًا عما قريب.

كان سرور العرب بابن رستم عظيما، وقالوا له: نريد أن تمضي إلى المدينة للقبض على ملك الفرس ووزيره قبل أن يهربا، فنهض بلكان مسرعا ودخل المدينة، وفرح أهلها بعودته، ثم كلفهم أن يحضروا إليه ملك الفرس ووزيره، فبحثوا عنهما في كل مكان فلم يجدوهما، وأخبروه بذلك، فأدرك أنهما هربا لينجوا بأنفسهما، فأسف وقال: ليتني قبضت عليهما من قبل، ولكن القدر لا مرد له، ثم حكى قصته لأهل المدينة، وعرفوا أنه ابن رستم وكان فرحهم عظيما، وأخذوا في تزيين المدينة حين أخبرهم أن أسرته وأمراء العرب سيدخلونها في المساء، ثم رجع إليهم وأخبرهم بهرب ملك الفرس ووزيره واعتذر إذ قصر في القبض عليهما، فقال حمزة: لا بد من المسير حيث رحلا، ثم دعاهم إلى المدينة فأجابوا دعوته وساروا معه فوجدوها قد أخذت زخرفها وازينت، واستقبلهم أهلها استقبالا باهرًا، وأعدوا لهم المآدب الفاخرة، وفك بلكان الأسرى، واعتذر لهم وعرفهم بنفسه، وأقاموا في المدينة وفي خيامهم آمنين، وأمر حمزة أخاه عمر أن يبحث عن فرمز تاج وبختكان وزيره، فساح في الأرض حتى وصل إلى مدينة اسمها البرازمين على شاطئ البحر، وحاكمها اسمه طرا البرازيني، فاختلط بأهلها وعطفوا عليه لأنه غريب، وسألوه عن حاجته.

فقال لهم: إني من العجم وخرجت أفتش عن ملكنا فرمز تاج ووزيره بختكان، فقالوا: لقد مرا بنا وهما الآن في مدينة السبائل وهي قريبة منا، وطريقها هذا، وأشاروا إليه – ثم قالوا: وقد ذهبا إلى هناك ليستمدا المعونة والبركة من الخوند إلهنا الذي يعبده حاكم المدينة، فقال عمر: وهل الخوند إلهكم هذا إنسان؟ فقالوا: نعم هو إنسان منا، ولكن له قدرة عجيبة استحق بها أن نعبده ونتخذه إلها، فرجع عمر إلى أخيه حمزة وأخبره، فعجب حمزة وقال لبزرجمهر: هل سمعت عن هذا الإنسان الذي ادعى الألوهية وعبده قومه؟ فقال: سمعت أن الخوند ملك مدينة السبائل ادعى أنه خالق الوجود، وصدقه قومه لجهلهم وعبدوه، واتخذ لنفسه سماء من البلور، وروضة ذات أشجار وأزهار، واتخذها له دار مقامة، وأعد لقومه نارًا يلقي فيها من

يغضب عليهم منهم، فقال حمزة: نعوذ بالله من جحود الإنسان وكفره، ولا بد لنا من أن نخرب جنته وناره ونقتله، ونخرج قومه الجهلاء من ظلمات كفره إلى نور الإيمان.

وكان فرمز تاج وبختكان قد هربا إلى الخوند فقال له بختكان: اعلم أيها الإله الأعظم أنك لا بد قد عرفت ما فعله العرب بالعجم، وأنهم هدموا المدائن، وفررنا من وجوههم، فقلت لسيدى فرمز تاج: هيا بنا إلى الإله الأعظم في مدينة السبائل لنستمد منه المعونة، ونعتصم بقوته وعظمته حتى إذا جاءنا العرب أبادهم بكلمة واحدة. فقال الخوند: صدقت يا بختكان فقد عرفت من ألوهيتي أن العرب هدموا المدائن، وأنكما هربتما وجئتماني لأحميكما، فقال بختكان: نعم يا إلهي فقد عرفت ما حصل لنا قبل أن نخبرك به، فبئس الجاهل الذي ينكر ألوهيتك. فانتفخ الخوند كبرًا وقال: لا بد من هلاك العرب وفنائهم إذا جاءونا في طلبكما، ولبثا عند الخوند ينتظران ما يكون.

سار العرب إلى مدينة السبائل، وبعد أيام كانوا في ضواحي مدينة برازمين، وكانت خصبة طيبة الهواء كثيرة المياه فنزلوا فيها للراحة، وكتب الملك سعد إلى طرا البرازيني يطلب منه أن يسلم إليهم المدينة وإلا فتحوها عنوة وملكوها غصبًا، فأجابه: أمهلني قليلا حتى أستشير الخوند وهو الإله الذي نعبده، وكتب إلى الخوند يقول: إن العرب يطلبون مني تسليم المدينة، وأنذروني الحرب، وأخذها غصبًا إن عصيتهم، وقد أرسلت إلى الإله الأعظم أستشيره فيما أفعل، فكتب إليه الخوند: لا تسلم المدينة، واخرج إلى قتال العرب، وسأنصرك عليهم، فلما جاءه هذا الكتاب بلغ ملك العرب ما فيه، وخرج بجنوده من المدينة لقتالهم، فلما قرأ العرب كتابه ضحكوا وقال الملك سعد: ارحموا هؤلاء الجهلاء في قتالكم، فهم معذورون ونحب أن نهديهم إلى عبادة الله، ونتخذ مدينتهم مقامًا لنا في هذه الغربة، فقالوا: سوف لا نقتل أحدًا منهم إلا مضطرين.

كان جيش طرا البرازيني كثير العدد، ولكنهم جبناء وضعفاء في القتال

فما لبث القتال بينهم وبين العرب غير ساعة حتى أسر ملكهم واستسلموا، فدخلوا المدينة، وجلس ملك العرب وأمراؤه في دار الحكم، وأمر أن يعامل أهل المدينة بالحسنى لنهديهم إلى الهدى ودين الحق. ثم أمر أن يحضر إليه ملك المدينة ومن أسر معه من كبار قومه، فلما حضروا أمر أن تفك قيودهم، وأن يجلسوا معهم، فعجبوا أن أكرمهم العرب وقد كانوا يظنون أنهم سيقتلونهم، وقال ملك العرب: لقد وجدناكم تائهين في ضلالة من الكفر، وتعبدون إنسانًا لا يختلف عن أحدكم، ولا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، يأكل كما تأكلون، وينام كما تنامون، ويمرض كما تمرضون، و يموت كما تموتون، وقد وجب علينا أن نحلم عليكم، ونرحمكم ونهديكم إلى عبادة الله الذي خلقكم ورزقكم ويحييكم ويميتكم، وجعل لكم النهار معاشًا والليل سكنًا، وأيد عباده المؤمنين بنصره، لأنه القادر الذي لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض، فاستيقظوا من سبات جهلهم.

وقال طرا ملكهم: كيف نعبد واحدًا منا ليس له ميزة فينا، وربما كان أحدنا أشد منه قوة وأمضى فهمًا؟! إني آمنت بالله الذي آمن به العرب، وتبعه أكابر قومه، وأعلنوا إيمانهم بالله وحده، وانقاد أهل المدينة لهم، واختلط العرب بهم فعلموهم كيف يعبدون الله ويؤمنون به، وخلصت المدينة من الملك الخوند وضلاله، واختلطت بالعرب في العشرة، وارتبطت بالمصاهرة. وتعلم أهلها من العرب ركوب البحر، فكثرت المراكب وانتشر الجولان فيه، وكان على الشاطئ الثاني قصران ملكيان؛ أحدهما لفاتنة بنت الملك سنجاب صاحب مدينة السنجام، والثاني لجهانة بنت الخوند، أعدا لهما للإقامة فيه بعض الشهور من كل سنة، وكان قد وصل إليهما نور الإيمان من مدينة البرازمين وأن أهلها صاهروا العرب، ووجدوا منهم عشرة طيبة، ومعاملة حسنة، ورغبت فاتنة وجهانة في الاختلاط بالعرب فكانت كل منهما تجري بمركبها في البحر مختلطة بالعرب مشاركة لهم في الصيد والمسابقة حتى أغرمت فاتنة ببديع، وجهانة بقاسم، وكانت الرغبة في الزواج من الجانبين، فتزوجت فاتنة من بديع الزمان بن حمزة، وتزوجت جهانة بنت الخوند من قاسم بن

رستم، كما تزوج كثير من العرب كثيرًا من فتيات المدينة. ورزق بديع الزمان بغلام سماه «نور الدهر» ورزق قاسم بغلام سماه «الخواجة فرج».

سار العرب بعد أن مكثوا مدة طويلة في مدينة البرازمين إلى مدينة السبائل، ونزلوا في سهولها وعلى مسير ساعة منها، وفي صباح اليوم الثاني رأوا جنود الخوند قادمين من المدينة، وضربوا خيامهم تجاه العرب، ومن بينها صوان حريري محلى بالذهب للخوند صاحب المدينة.

وكان مع الخوند خاتم مرصود له مارد من مردة الجن، وأخفاه عن قومه ليوهمهم أن ما يفعله المارد من فعله وبقوته الألوهية، ولما تأهب الجمعان للقتال فرك الخاتم وجاءه المارد قائلا: لبيك يا سيدي لبيك، فقال له: أريد أن تقتل حمزة وتحارب العرب في صورة عملاق من الإنس، فقال: سمعًا وطاعة. ثم أعلن هو في جنده أنه سيرسل قوته الإلهية في صورة عملاق إنسي يحارب معكم، ويؤيدكم، ويهلك العرب جميعهم. وبدأ القتال في الصباح وسالت النفوس على صفحات السيوف وأسنة الرماح وتجلت وحشية الحرب وغلظتها، فما كنت ترى من الجمعين إلا تهافتًا على موارد الموت، وقتل العرب من أعدائهم كثيرًا، ولكن المارد كان يجزهم جزًّا دون أن يؤثر فيه رمح أو سيف، وكان كلما قرب حمزة منه بسيفه المرصود انفلت هاربًا كأنه ومضة البرق، واضطر العرب أن يرتدوا مهزومين وهم يكافحون كفاح الأبطال، ولولا المارد لأهلكوا أعداءهم وأبادوهم.

واستمر القتال على شدته حتى بعد الزوال فمرت بالجو حينئذ أسما بري ورأت العرب يلوذون بخيامهم هربًا من فتك المارد، فسقطت على العرب وصرخت في المارد صرخة أخفته من الميدان، ففر هاربًا منها، ودأب العرب على كفاحهم فرجحت كفتهم، وأحس الأعداء أنهم هالكون فارتدوا على أدبارهم، وأسرعوا إلى مدينتهم فدخلوها وأغلقوا أبوابها، وغنم العرب أسلابهم وكان النصر في النهاية لهم.

واجتمع ملك العرب وأمراؤه يحمدون الله ويشكرونه، وقال حمزة: عجبت من القتال هذا اليوم، فقد كنا في حالة شديدة من الضيق والخوف

حتى ارتد العرب إلى الوراء، ثم تغيرت الحال فظهرنا على الأعداء، وأرغمناهم على الفرار إلى مدينتهم خوفًا ورعبًا، وما زدنا قوة ولا غيرنا في القتال خطة.

فقالوا: كان في الأعداء عملاق يحصدنا بسيفه، ولا تؤثر فيه سيوفنا، ثم اختفى فجأة، ولا ندري أين ذهب، وهذا سر هزيمتنا ثم انتصارنا، ودخلت عليهم وقتئذ أسما بري وقبلت يد زوجها الأمير حمزة، وتلقاها لقاء جميلا، وقال لها: متى جئت؟ فقالت: جئت وقت أن كان المارد من الجن يقطع منكم الرقاب، ويتخطف بسيفه الأنفس حتى زواكم في الخيام فقال: أي مارد هذا؟ فقالت: كان يقاتلكم مارد من الجن وأنتم لا تعرفون، فلما رأيته نزلت إليه وصرخت فيه صرخة ففر من بين يدي واختفي واستطعتم بعد ذلك أن تغلبوا أعداءكم، وتطردوهم إلى مدينتهم أذلة خاسئين، فقال حمزة: نشكر لك هذا الصنيع الجميل، وأرجو أن تساعدي عمر العيار وجماعته في دفن القتلى من الفريقين حتى لا يفسد الهواء، ويجلب إلينا الأمراض، فقالت: سمعًا وطاعة، ومضت إلى الميدان وسلمت على عمر العيار، وقصت عليه ما فعلت في المارد الذي سخره الخوند للقضاء على العرب، فشكرها وأثنى عليها، وبينما هي تساعده في دفن القتلى قالت له: أريد منك يا عمر أن تساعدني وتجعل الأمير يقيم عندي ويكون لي من عشرته وصحبته ما لزوجاته، فقال عمر: إن الأمير لا يفكر في النساء بعد موت زوجته مهردكار، ولا أظن أنه يستمع لأحد في أمرهن، فقالت: بلغه عني أن زوجته مهردكار لم تمت، وأنها لا تزال تنعم بالحياة في سلامة وعافية.

فاعتدل واقفًا ونظر إليها قائلا: ويحك يا أسما بري!! أتكذبين على الأمير وعلينا؟! أتضحكين منه ومنا؟! لقد ماتت مهردكار، ودفنت في حلب، وقبرها لا يزال هناك، فقالت: قلت لك هذا وإني لصادقة، فقال: ولكني لا أجد مساغًا لتصديقك، فقالت: سأقص عليك قصتها، وستجد نفسك قد صدقتني، فجلس وقال لها: قصي يا أسما بري، فقالت: جئت مدينة حلب فوجدت مهردكار تعاني سكرات الموت والأمير بجوارها في حالة ذهول

المارد يقول للخوند: لبيك

وغيبوبة، فلم تطاوعني نفسي رحمة به أن أتركها للموت، وأنا قادرة على إنقاذها من مخالبه، فاستدعيت جنية من وصيفاتي وأمرتها أن تكون على هيئة مهردكار وتتظاهر بالموت، ثم سرقت مهردكار ونزعت عنها ثيابها، وألبست الوصيفة إياها، واضطجعت في مكان مهردكار بجانب الأمير، ولما انتبه وأفاق وجدها ميتة، فلم يشك في أنها مهردكار زوجته، ثم حملت مهردكار وطرت بها إلى بلاد الغرب عند حكيم ماهر في معالجة المرضى والمسمومين، ثم وضعتها بين يديه وحكيت له قصتها في إيجاز وسرعة، ووعدته المال الجزيل إن شفاها، فنهض من فوره وباشر عمله، وما هي إلا لحظات حتى ابتسم وبشرني بسلامتها وقال: إذا جئتني بعد شهر وجدتها برئت وسلمت ورجعت إليها صحتها ونضرتها، وبعد ثلاثين يومًا رجعت إليه فوجدتها في أكمل صحة وعافية، وجزيته بالمال والجواهر، وجعلت له عشرة من خدمي تحت يده، ووصيته أن يبقيها عنده ويكرمها حتى أطلبها منه، وذلك ما فعلته، فهل وقع قولي في نفسك موقع الصدق والقبول؟

فقال: ولكنك لم تذكريني بخير، ولم يجر على يديك نفع لي، وما فكرت ذات مرة في هدية لي أذكرك بها إلى الأبد، فقالت: حقًا إني مقصرة، وما قدمت لك شيئًا من ذلك، ولكني هذه المرة جئتك بهدية تنفعك في عملك، وتفوق الدنيا في نفسك، فقال ما تلك؟ فقالت: «قلنسوة الإخفاء»؛ كان يسمع عن حوادثها ولم يرها فقال: أين هي؟ فناولته إياها وقالت: ها هي ذي، فإذا لمستها اختفيت عن العيون وما رآك أحد، فأخذها ولبسها، وقال: إني ذاهب إلى الأمراء لأختبرها، فإن وجدتها كما أخبرتني أرغمت أخي على أن يعاملك معاملة ضراتك، ثم لبسها ومضى إلى الأمراء ودخل عليهم وهم جالسون وتقدم إلى أندهوق وكان جالسًا بجانب هاوون، فأمسك أذنه ثم تركها فظن أن هاوون هو الذي أمسكها، فالتفت إليه مستنكرًا ما بدر منه وسكت ثم كرر ما فعله فيه حتى غضب وقال لصاحبه: ماذا تريد مني؟

فنظر إليه مندهشًا وقال: لا أريد منك إلا كل خير، ولم تسألني عن ذلك؟ فأدرك أنه لم يفعل شيئًا، وسكت في حيرة، ثم أمسك عمر أذن هاوون وتركها،

وفعل في هاوون ما فعله في أندهوق، فثار وقال: ذلك لا يليق منك في مجلس الأمراء، ولا ينبغي أن تعبث فيه، فقال الأمير: ماذا حدث يا هاوون فحكى له، وقال أندهوق: ذلك ما فعله بأذني، وآثرت السكوت على الكلام: فقال الأمير: لا تزعلوا، ويبدو لي أن هذا من عمل الجن الذين يصحبون أسما بري، فعرف عمر أن القلنسوة أخفته وخرج عازمًا على أن يذهب في الصباح إلى مجلس الخوند في مدينته، وفي الصباح لبس القلنسوة ومضى إلى المدينة فوجد أبوابها مغلقة، ودخل من منفذ صغير في أحد أبوابها وكانوا قد أعدوه ليرى الحرس الذين خلف الباب ما يجري في ظاهر المدينة. ومر من بينهم وسيوفهم في أيديهم وما رآه أحد منهم، وذهب إلى قصر الخوند ودخله سائرًا بين صفين من الحجاب، وهو غير مكترث بهم لأنهم لا يرونه، وانتهى إلى ردهة فسيحة بها عشرة أبواب لعشر غرف فرشت بالبسط الوثيرة، وصفحت جدرانها بالنحاس الأصفر المحلى بالفضة البيضاء، وفيها سرر ذهبية عليها فرش من الحرير وفي كل غرفة امرأة جميلة ومعها ثلاث من الجوارى، فأدرك أن هذا مسكن نسائه، ورجع من حيث جاء. ووجد أمامه بابًا كبيرًا أرخى عليه ستارة حريرية منقوشة بالذهب والفضة، فرفعها ودخل إلى دهليز طويل خلص منه إلى روضة فسيحة تتجاوب طيورها ويداعب النسيم العليل أشجارها، مزهوة بكثرة ثمارها، ورأى في وسطها قبة من البلور، فذهب إليها فوجد الخوند جالسًا فيها على كرسي من الذهب المرصع بالجواهر النفيسة، وجلس إلى جانبه وزيراه، ورأى كسرى وبختكان في مجلسه.

وقف عمر خلف الخوند، وقص خصلة من لحيته، والخوند لا يرى أحدًا، فعرته هزة من العجب والحيرة، وحصل هذا في لحيته من الجانب الآخر، وهو في عجبه وحيرته، وكان الحاضرون أشد عجبًا وحيرة، وعمر يضحك منهم، فامتدت إلى قلنسوته يد واختطفتها وظهر للحاضرين والخوند، ورأوه جميعًا وفي يده الشعر الذي أخذه من لحية الخوند، وفي الحال جعل عمر يفرك بالشعر وجهه ورقبته وصدره، فقال الخوند: من أنت يا هذا؟ ولم فعلت ذلك؟ وكيف جئتنا وما رآك أحد منا؟ فقال عمر: اعلم يا سيدي أني

من العرب، وأعتقد أنك الإله الحق، ولهذا كنت أعبدك خفية، وأفكر فيك دائمًا، وأنت بألوهيتك تعرف ذلك، فقال: أعرف ذلك.

فقال عمر: ومرضت منذ أيام بالدوار، وخفت أن أموت قبل أن ألقاك وأنال منك البركة، وفي هذا الصباح اضطجعت على فراشي، وغرقت في النوم فرأيت في المنام أني دخلت مدينتك، ونزلت من سمائك حتى وقفت خلفك، وسمعت قائلا يقول: خذ هذا المقص، واقصص من لحية الإله خصلة من الشعر وافرك بها وجهك ورقبتك وصدرك، ففعلت، وإذا أنا بينكم على هذه الحال التي تعجبون منها، ولا ريب أن قدرتك الإلهية هي التي فعلت ذلك رحمة بي، وسأرجع إلى العرب وأقص عليهم ما حصل، وأعلمهم أنك الإله الحق القادر الرحيم بعباده، فقال الخوند: صدقت يا هذا، فإني كنت أعلم أنك مريض، وأنك تؤمن بي وتعبدني، فأحضرتك بقدرتي وأنا راض عنك وقد شفيتك من مرضك، وكان بختكان في عجب من ظهور عمر بينهم بغتة وهم لا يرونه، وملكه الخوف حين رآه قد غش الخوند وخدعه فقال: إنه كذاب يا سيدي فهذا عمر العيار، وما جاءنا إلا لشر يريده بنا.

فالتفت إليه عمر وقال: من أنت أيها الإنسان؟ وكيف تشك في قدرة الإله الأعظم الذي يعلم الغيب وما في الصدور، ويعلم أن كلامي حق لا كذب فيه؟! وكيف تحط من قدرة الإله الأعظم، وترميه بأنه لا يعلم ما في قلبي؟!

فقال بختكان: إنك كذاب، وما جئت إلا لتقتل الإله وتقتلنا، فصفق عمر بيديه وقال: أرأيت يا سيدي كيف يرميك بالعجز والكذب وعدم معرفتك ما في قلوبنا، وقد خلقت هذه السماء، وهذه الجنة وخلقت الجحيم لمن عصاك؟! إني مصر على عبادتك، وأحب أن أخدمك لتجعلني من ملائكتك، فأمر الخدم أن يضربوا بختكان على لحيته عشرين ضربة بالحذاء وقال: أنا الإله الأعظم، وما أنت بإله يا جاهل، وأنا الذي أعرف هذا الإنسان وصدقه، ألم تر أيها الحمار الجاهل أني أحضرته بينكم بغتة وأنه لم يدخل من باب ولا من نافذة؟ ألم تر أنه قص من لحيتي دون أن يراه أحد

منكم، وأني شفيته من مرضه؟ فإذا أنت عدت إلى قولك هذا ألقيتك في ناري، أو طردتك من بلادي.

ثم قال عمر: أرجو منك يا سيدي أن تأذن لي بالنوم في هذا المكان لأزيد بركة وعافية، فقال الخوند: أذنت لك أن تنام في هذا المكان، وفي كل مكان تختاره من بلادي، وقد أمرت أن تلبس من الآن لباس ملائكتي وجعلتك رئيسًا لهم، وألبسه الخوند ثوبًا من الحرير الأبيض وعلق في رقبته عقدًا من الحجارة الكريمة، أما بختكان فإنه قال لفرمز تاج: لا بد أن نغير مكاننا هذه الليلة، فإننا إن بقينا هنا قتلنا عمر العيار.

***

ودخلت أسما بري على الأمير ومن معه فسألها: هل أحضرت معك أرهاطًا من الجن؟ فقالت: لا، فقال: لا بد أن يكون معك عدد منهم لأنه حصل كيت وكيت في أندهوق وهاوون، فقالت: ذلك من عمر العيار، لأني أعطيته قلنسوة الإخفاء فجاءكم بها، ثم ذهب إلى الخوند في مدينته، وقد كنت أعطيته القلنسوة ليكون شفيعًا لي عندك ويساعدني في أن ترضى عني وتقيم عندي، ولكنه أخلف وعده وأهمل شأني الذي كلفته به، فقال: وهل أنا في يد عمر وقبضة يمينه يصرفني كما يشاء؟! إني رجل كبرت سني ومضى شبابي، ولا ينبغي أن أخاطب في أمر النساء، فقالت: إني زوجتك ولي حق العشرة في ظلك، فقال: إن أردت أن تعيشي معي كما يعيش الضيف فلا مانع لدي، فقالت: ما دمت مصرًا على هجرك فإني سآخذ القلنسوة من عمر. فقال غاضبًا: لا رجعت أنت ولا رجعت القلنسوة، فخذيها واذهبي إلى حيث تشائين. فطارت إليه من الغيظ واختطفتها وألقتها في النار، ثم رجعت إلى معسكر العرب وجرى لعمر ما جرى، ولولا حيلته التي خدع بها الخوند لقتل.

ذهب الخوند إلى فراشه، وعمد ملك الفرس وبختكان إلى غرفة فدخلاها وأغلقا عليهما الباب ولبثا ساهرين جميع الليل خوفًا من عمر العيار، أما عمر

فإنه وضع في جراب إسماعيل كرسي الخوند وكل أثاث فاخر، وخرج في منتصف الليل إلى باب المدينة وقال: إن الخوند أرسلني إلى العرب الآن في أمر سري، فتركه الحراس يخرج من المدينة وانفلت عمر إلى المعسكر وانتظر حتى ينقضي الليل، ويستيقظ الأمير ويجتمع بالأمراء وملك العرب. ولما تم جمعهم في الصباح دخل عمر عليهم، ورأى أسما بري بينهم يبدو على وجهها سحابة من حزن أليم، فأدرك أن الأمير غضب عليها وأنها هي التي خطفت القلنسوة، فأخرج خنجره وهم أن يقتلها به، فضحكت واحتمت بالأمير حمزة ووقفت خلفه، فقال له: لم فعلت ذلك يا عمر؟ فقال: هذه أوقعتني في تهلكة محتومة لم ينجني منها إلا ربي وحيلتي فقال الأمير: اهدأ يا عمر واجلس وأخبرنا ماذا فعلت، فجلس وحكى لهم حكاية القلنسوة، فأنكر الأمير وجميع الجالسين فعلتها، واشمأزت نفوسهم منها، وسأله الأمير: وكيف نجوت بنفسك؟ فأتم لهم قصته وأخرج لهم من جراب إسماعيل ما أحضره، ففرحوا به وزادت منزلته في نفوسهم، وجعل الكرسي للملك ووزع الباقي على الفرسان وعياريه.

اعتذرت أسما بري بأن الأمير حمزة هو الذي أمرها أن تأخذ القلنسوة إذ قال لها: خذيها فلا رجعت أنت ولا رجعت القلنسوة، فقال الأمير: كان من الواجب أن تصبري حتى يأمن على نفسه، ولا يكون عرضة للهلاك، ولهذا فأنت مذنبة آثمة، فإما رحلت فورًا، وإما قتلتك، فنهضت وخرجت من بينهم وهي ساكتة، وقالت في نفسها: لا بد أن يخبره عمر بأمر مهردكار، وحينئذ سيطلبني هو ويسعى في الحضور إليّ بجبال «قاف»، وطارت إلى قصرها، وندم عمر على فقد القلنسوة ندمًا عظيما، وقال: لقد كنت أنفعكم بها نفعًا عظيما، ولكن هذه إرادة الله، وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم.

استيقظ الخوند في الصباح وانتظره الوزراء والأمراء في روضته للجلوس معه في قبته وتحت سمائه، فلما حضر سجدوا له، وفيهم فرمز تاج و بختكان. ثم سار إلى القبة البلورية، ولما دخلوها كان في ظن الخوند أن عمر سيلقاه ويسجد له، ولكنه اندهش إذ لم يجده، ولم يجد كرسيه ولا كثيرًا من فاخر

الأثاث وجواهر الزينة، فصاح متألما: من فعل هذا وما خاف سطوتي وغضبي؟! فقال بختكان: ألم أقل لك يا سيدي: إن هذا عمر العيار وقد جاءنا لشر يريده بنا؟ فغاظه قول بختكان وقال: ما زلت تتعرض إلى ما لا يعنيك من شأن الإله الأعظم، فاضربوه خمسين ضربة بالحذاء على لحيته، فأمسكه الخدم وضربوه حتى أوجعوه، فقال له فرمز تاج: تستحق أكثر من هذا، فالزم الصمت مثلي ولا تدخل فيما لا يعنيك من أمرهم، فحلف ألا يتعرض لهم، وإن دمرت مدينة السبائل.

وكان للخوند ابن اسمه ياقوت فصادقه بختكان وتودد إليه حتى اطمأن ياقوت إليه وألفه، فقال له: إن أباك لا يستمع لنصح ولا ينظر في مشورة، وإن السبائل واقعة في يد العرب لا محالة، ولابد لنا من أن نحذر ونعد العدة للنجاة بأنفسنا عند الخطر، فقال ياقوت: إن مع أبي خاتمًا مرصودًا يخدمه مارد الجن وقد أطلعني عليه، فإذا وجدت الخطر أخذت الخاتم وكلفت المارد أن يحملنا إلى أرض قاصية، لا يمكن للعرب أن يصلوا إليها. فاطمأن بختكان وملكه وانتظرا في السبائل معتمدين على الخاتم ومارده.

وبعد حصار دام طويلا يئس العرب، وأرسل ملكهم كتابًا إلى الخوند يطلب فيه فرمز تاج وبختكان، ويدعوه إلى الإيمان بالله حتى يتركه آمنا في دياره، وإلا فتح المدينة عنوة وقهرًا وأنقذ قومه من الكفر وعبادة إنسان منهم لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، وبعث أندهوق بكتابه هذا، فلما كان عنده ناوله الكتاب وقرأه، ثم جعل يحدق في رسول العرب وقال: هم...!! هم..! هم...! وأشار إلى الخدم أن يخرجوه ويسرحوه إلى قومه، فأخرجه الخدم من المدينة.

ورجع إلى الملك في مجلسه وسأله عما جاء به من إجابة الخوند فقال: لقد أجابني بكلمات ما فهمت لها معنى، ولا عرفت له منها غرضًا، وأمر الخدم أن يخرجونى، فجئت إليكم، ولولا أن الرسول لا ينبغي له أن يجاوز الأمر الذي أرسل من أجله لقتلت الخوند وشردت رجاله، فقالوا: وبماذا أجابك، فقال: هم هم..! هم..! فحاروا في أمر تلك الكلمات وسألوا بزرجمهر فقال:

إن الملك يريد بهذه الكلمات أن المرء يلقى في دنياه ثلاثة هموم الأول هم القطام، والثاني هم التعليم الذي يحبسه عن نزعات الحداثة والصبا واللهو والمرح والثالث هم الزواج وذلك الهم الأخير يرافقه إلى أن يودع في قبره، ويريد الخوند أن يقول: إنه قد مرت به هذه الهموم الثلاثة، وليس في الحياة أمامه أثقل منها، ولهذا فهو لا يخافك ولا يحسب لك حسابًا، وأرى ألا تعلنوا غيبة أسما بري، لأن الخوند لا يعتمد في أمر القتال إلا على مارد الجان الذي فر من وجه أسما بري خوفًا.

وبعد أيام وجد العرب المدينة قد فتحت أبوابها وتدفق منها الجنود كأنهم الجراد وضربوا خيامهم تجاه العرب، فتبين عمر العيار أمر هؤلاء وسبب فتحهم المدينة وطلبهم القتال، ووجد أنه قد جاءهم مشاهد أبو الخنجر بجنوده، وهو فارس قوي يؤمن بالخوند ويتخذه إلهه، ولما بلغه ما فعله العرب برجاله ومدينته جاءه ليدفع العرب عنه ويطردهم أو يهلكهم ، وبعد يومين من ضربهم الخيام انفلت إلى الميدان في صبيحة اليوم الثالث مشاهد أبو الخنجر طالبًا مبارزة من يشاء من فرسان العرب.

❊❊❊

﴿ ٦ ﴾

وهم بديع الزمان أن يبرز إلى مشاهد أبي الجنجر، فصاح فيه قاسم بن رستم وقال: ارجع يابن الصياد فليس هذا مجالك، ولا ينبغي أن تمسك سيفًا أو تركب جوادًا حيث يمسك الأمراء والأشراف سيوفهم ويركبون جيادهم، واعرف أباك الصياد ومنزلته، ولا تحاول أن تكون من علية الناس وأمراء العرب وأنت من السفلة والهمل، فالتهبت نخوة العرب في رأس بديع الزمان، وجرد سيفه وأصر على قتله، ووجد أنه احتمله كثيرًا وحلم عليه كثيرًا حتى نفد الصبر وقاسم لا يرعوي عن كراهيته والتحقير من شأنه في مناسبة وغير مناسبة، ونشب بين قاسم وعمه مبارزة حامية، فأسرع الأمراء إلى حمزة وقالوا: أدرك قاسم وعمر ابنيك فإنهما في مبارزة لا تخرج منها إلا بقتل أحدهما، فانفلت إليهما ووقف بينهما وقال: ما لك ولقاسم بن رستم يا بديع الزمان؟! وكيف تنتهك حرمتي وحرمة أبيه في غيبته وتروم قتله، إن كنت قد نفد صبرك ولم تعد قادرًا على احتماله فارحل عنا فلسنا في حاجة إليك، فقال بديع الزمان: سمعًا وطاعة، وترك قومه بينهم وسار بجواده وحده إلى حيث أراد له القدر.

وجد بديع الزمان أمامه قرية فدخلها، ولقيه أهلها بالحفاوة والفرح وذهبوا به إلى شيخ القرية ونزل عنده ضيفًا، على أن ينزل كل ليلة ضيفًا على رجل من هذه القرية حسب عادتهم، وأكرمه شيخ القرية إكرامًا سابغًا، وفي الصباح ناوله بديع الزمان خمسين دينارًا وقال: هذه لتستعين بها وتنفقها فيما تريد من شئون المعيشة، فقال: يا سيدي، لا نأخذ أجرًا ولا ثمنًا لما نقدمه لضيوفنا، فقال: ما أعطيتكها لتكون أجرة أو ثمنًا ولكنها معونة من إنسان لأخيه، فقال: لا نرد معونتك، وسندفعه جزية عن أهل القرية وهو المطلوب منا هذه السنة، وكنا عاجزين عن دفعه، فقال: ولمن تدفعون الجزية؟ فقال:

للأمير ضامر، فقال: وزعوا هذا المال عليكم وحين يأتي ضامر لأخذ الجزية أخبروني لأدفعها عنكم وأرده راضيًا مسرورًا، وأضمر في نفسه أن يقتله ويبطل الجزية عن هؤلاء الفقراء المساكين، وانتظر في القرية حتى يأتي ضامر.

وذات يوم دخل على شيخ القرية - وبديع الزمان معه - رسول ضامر يطلب الجزية، فسأله بديع الزمان: وأين سيدك يا هذا؟ فقال: بظاهر المدينة في جماعة من رجاله، فقال له: ارجع إلى سيدك وقل له: لا تدفع القرية الجزية لاثنين، وفي صباح الغد يبارزني، فإن غلبني كانت الجزية له، وإن غلبته ترك الجزية لمن غلبه، وليس أمامه غير ما سمعت، فرجع الرسول إلى سيده وأخبره بما سمع، وبات ضامر وهو عازم على قتل هذا الذي اعترضه وتحداه، أما بديع الزمان فإنه قال للشيخ: مر أهل القرية ليخرجوا من خلفي بأسلحتهم، فقال الشيخ ليس عندنا سلاح ولا يملكون إلا فئوسًا ومعاول وعصيًا، فقال بديع الزمان: لا أريد منهم أن يقاتلوا ولكنهم يخرجون ليأخذوا المغانم والأسلاب، فإني سأقتل ضامرًا وأبدد جماعته.

وفي الصباح خرج بديع الزمان ومن ورائه أهل القرية يحملون الفئوس والمعاول والعصي، ولقيه ضامر في الميدان يبغي قتله، وقامت بينهما مبارزة أثارت المخاوف، وأزعجت القلوب، وانتهت بأن ضرب بديع الزمان ضامرًا بسيفه فسقط على الأرض يتخبط في دمه، ثم هجم على رجاله هجمة الأسد الكاسر، فشتت شملهم وأرغمهم على الفرار فزعين، وانهال أهل القرية على أموالهم وأسلابهم فأخذوها ورجعوا فرحين، واستقبل نساء المدينة وصبيانها وشيوخها بديع الزمان بالزغاريد ومظاهر الحفاوة والفرح مهنئين، وأرادوا أن يقيموه شيخًا عليهم فقال:

- إني بديع الزمان بن حمزة البهلوان، وما أنا بحاجة إلى قريتكم، ولكني مررت بكم في طريقي فأضفتموني وأكرمتموني ورأيت من الواجب أن أدفع عنكم ظلم الظالمين، وإني راحل عنكم، وإن أرادكم أحد بسوء فقولوا إنكم تابعون لي، فإن أصر على عناده فأرسلوا لي، وأنا آتيكم وأكشف الضر عنكم. ثم ودعهم ورحل، ومضى في القفار لا يدري أين يسير.

وفي اليوم الثاني رأى شبحًا من خلفه ينهب الأرض ركضًا، فوقف ينتظره ليعرفه، فلما بان لناظريه عرف أنه عمر العيار، وظن أن أباه أرسله ليدعوه إليه، فسأله: لم جئتني وبحثت عني؟ فقال عمر: جاءتنا رسالة باسمك من الأمير ليث صاحب مدينة السنجام وحماك فكلفني أبوك أن أدفعها إليك فجئتك بها، وها هي ذى. وناوله إياها، وفض بديع الزمان الرسالة وقرأها، فإذا فيها:

– من ليث صاحب مدينة السنجام إلى الأمير بديع الزمان من الأمير حمزة البهلوان. بلغنا من قوافل التجار أن بهزان قادم إلينا في جيوشه الحرارة لسبي زوجتك كوهين، وتخريب المدينة، ونحن لا قدرة لنا على لقائه ودفعه وإن لم تدركنا مزقنا شر ممزق ونال بغيته منا.

فقال لعمر: هل قرأ أبي هذا الكتاب؟ فقال: قرأه وكان يريد أن يجيء ليدافع عن زوجتك ومدينة أبيها، ولكن منعته الحرب القائمة بينه وبين الخوند، وبعد إطراقة طويلة ناولني الكتاب وقال: ابحث عنه في كل مكان وأعطه كتابه ليدافع عن زوجته. فقال بديع الزمان: بلغه سلامي وقبل يديه عني واسأله أن يدعو لي ويرضى عني، وقل له إن ابنك سيقتل بهران ويمزق جيشه، ويحمي زوجته ومدينة أبيها، وسيجدني عنده وقت الشدة والمحنة، والحاجة إلى سيف ابنه بديع الزمان، ولولا قاسم ابن أخي ما فارقته.

رجع عمر وبلغ حمزة ما قاله ابنه بديع الزمان، فالتهبت أحشاؤه حنانًا، واغرورقت عيناه بالدموع وقال: أما طلبت منه أن يرجع إلى أبيه؟ فقال عمر: ما دمت قد طردته فإني لا أحب أن يعود إليك إلا وأنت في أشد الحاجة إلى سيفه. فقال حمزة: لا أنسى لابني بديع الزمان طاعته ورعايته حق الأبوة غائبًا وحاضرًا، غاضبًا وراضيًا. فقال عمر: لا عجب في ذلك فهو عربي كريم وابن عربي كريم.

سار بديع الزمان حتى وصل إلى مدينة السنجام فوجدها مغلقة الأبواب، وجنود بهران مرابطون بظاهرها، فطرق بابًا من أبوابها، وعرف الحرس بنفسه ففتحوا له، ودخل المدينة ومضى بعضهم به إلى ليث في قصره، فنهض إلى لقائه فرحًا، وسأله عن قدومه وحده فقال: إن العرب يحاصرون مدينة

السبائل، وسأطرد عنكم أعداءكم خائبين فاشلين، فأصدر أمرك إلى الجنود أن يعسكروا خارج المدينة تجاه الأعداء، وانتظر ما يكون بإذن الله تعالى، فصدع ليث بمشورة بديع الزمان.

وبعد يومين فتحت أبواب المدينة، وخرج جيشها واصطف أمام جيش الأعداء، فعجب بهرام من خروج أهل المدينة لقتاله بعد اختفائهم وراء الأسوار خوفًا منه ورعبًا، وتساءل عن السبب وذهبوا في ذلك مذاهب شتى، فمن قائل كذا. ..! ومن قائل كذا. ..!

استعد الفريقان للقتال، ودقت الطبول الآذنة ببدئه، وانطلق بهران إلى الميدان على جواده داعيًا إليه من يبارزه من أعدائه، فانفلت إليه بديع الزمان، ونشبت بينهما مبارزة من أعجب ما رأى الفرسان دامت إلى ما بعد الزوال في أخطر كفاح وجلاد، ثم أصاب بديع الزمان بهران بجرح بليغ في فخذه، فركن إلى الهرب، ولكنه قبل أن يفر رماه بعمود حديدي فرض عظم الفخد من بديع الزمان، وكان هذا سببًا في أن رجع كل فارس إلى جيشه، أما بهران فإنه اضطجع في فراشه وقام الحكماء بعلاجه، وأما بديع الزمان فإن ليث حماه حمله إلى قصره وكلف الحكماء أن يقوموا بعلاجه، وانتظر الجمعان ما سيكون من أمر هذين البطلين، وأراد ليث أن يخبر الأمير حمزة بما وقع لابنه، ولكن منعه قدوم عمر العيار.

كان الأمير قد قلق على ابنه بديع الزمان، وخاف أن ينال منه بهران، فأرسل عمر العيار إليه، ولما وجده قد أصيب برض في عظم فخذه واطمأن عليه، تنكر في زي الدراويش وذهب إلى بهران في صوانه، وعرف أنه جرح سيشفي منه قبل أن يشفى بديع الزمان، وربما أثار الحرب قبل أن يغادر بديع الزمان فراش مرضه، فانفلت إلى أبيه الأمير حمزة وقص عليه حكايتهم، فدفعه الحنان إلى أن يعلن المضي بالجيش إليه قبل أن يتمكن الخصم منه، وقال ملك العرب: ليكن للجيش بقية هنا حتى تعودوا إلينا، وفي الحال ركب حمزة في جيش يهد الأرض، ويزلزل الجبال إلى مدينة السنجام، وجاءها والحرب قائمة، وذلك أن الفارسين بديع الزمان وبهران ساعة

أن أحسا قدرة على ركوب الخيل، نهض كل منهما إلى جواده، وهجم بهران وجنوده وكان على المدينة، ولقيه بديع الزمان وجنود ليث حميه، واستمر القتال إلى الزوال، وكان بديع الزمان قد ضرب بهران في كتفه ضربة أسقطته عن جواده، فأسرع إليه وكتفه، وشعر إذ ذاك أن أباه قد أقبل بجنوده، فقال: ما كنت أحب أن يجيئني وأنا في تلك الحال، وفكر في الخروج من المدينة وذهب إلى زوجته وكانت قد جاءها المخاض فرجته أن ينتظر حتى يرى ولده فقال لها: إن أبي قد حضر وهو أرحم منا، فاطلبي منه ما تشائين، ثم أخذ ما يحتاج إليه وخرج من المدينة من ناحيتها الأخرى.

خاض الأمير حمزة المعركة هو وجنوده، وكان عمر العيار يجول هنا وهناك في القصر وفي المدينة باحثًا عن بديع الزمان فلم يجده، وعثر ببهران مكتفًا فسأله من كتفك يا بهران؟ فقال: بديع الزمان، فقال: وأين هو؟ فقال: لا أدري أين ذهب؟ فوكل حراسته إلى بعض جنوده، وكر راجعًا ينادي بأسر بهران، فاستسلم جنوده وخضعوا ووقف القتال، ومضى الأمير حمزة إلى ديوان الحكم، وجاءه عمر بهران مكتفًا، وأخبره أن بديع الزمان لا بد أن يكون قد خرج من المدينة لأنه كريم النفس عالي الهمة، ولا يجب أن تراه في موقف لا يعجبه، وكانت زوجته قد وضعت عنها ما يشبهه، فحزن الأمير حمزة وقال: لنا في ابنه بعض السلوى حتى ألتقي به، ثم التفت إلى بهران وقال: وجب علينا قتلك لأنك اعتديت علينا، وطمعت في انتهاك حرمتنا، فقال بهران: إني لا أكره الموت لأنه واقع لا محالة عاجلا أو آجلا، ولكني أحببت الحياة من أجل سيدي بديع الزمان، فقد شغفت بخدمته، وأن أكون من رجاله وأعوانه، فإني ما رأيت أشجع منه ولا أكرم نفسًا من نفسه.

فقال الأمير: إننا لا نرد واحدًا يريد مصادقتنا، ولكننا نقبله على أن يكون واحدًا منا له منزلته وحرمته، وعلى أن يكون على ديننا، فقال بهران: إنني من الإيمان على دينكم وأؤمن بالله الذي آمنتم به، فأمر حمزة أن يعتق من قيوده وأسره، وأجلسه بينهم كأنه واحد منهم، ثم سألهم بهران عن بديع الزمان، فقال: يظهر أنه خرج من المدينة غاضبًا، ثم قص عليه قصته، ثم لبث في

مدينة السنجام شهرًا حتى خلصت كوهين من ضعف الوضع، وبعد ذلك ودعها وودع الملك ليثا، ووصاه بابنته كوهين وابنها، وأن يحكم بين الناس بالعدل والرحمة، ثم مضى بجنوده إلى مدينة السبائل، وكان معهم بهران في رجال بديع الزمان.

***

سار بديع الزمان تتقاذفه القرى والنواحي حتى دخل مدينة اسمها الغمام، وهي لقوم يعبدون الله، وملكها اسمه سندروس، فأقاموه بينهم ضيفًا كريمًا، وأسبغوا عليه فضلهم وكرمهم، وسألوه عن اسمه وحاجته فقال: اسمي عبد الله، وأجول في البلاد أبتغي الرزق ومعرفة الناس، وذات يوم سمعهم يشكون من أنهم حرموا ثمار الأشجار والفواكه التي لهم، ويسألون الله أن يقيض لهم من يقتل هذا الأسد الذي حرم عليهم دخول الأرض التي فيها أشجارهم وثمارهم، فسألهم بديع الزمان عن أمرهم هذا، فقالوا: إن للملك سندروس بستانًا واسعًا عرضه مسيرة ثلاثة أيام، وهو غاص بأشجار الفواكه المختلفة، ولكن فوجئنا بأسد أقام فيه، ويفترس كل من دخل البستان، وحاولنا قتله فما استطعنا، وافترس كثيرًا من أبنائنا ورجالنا وحرم علينا الفواكه ودخول البستان ست سنوات، فقال: اطمئنوا فقد نفس الله عنكم هذه الغمة، وسأقتل الأسد وأجعل البستان مكان أمن وهناءة، فقال الملك: إنا نخاف عليك من الأسد يا عبد الله، وإذا افترسك كان علينا إثم قتلك، وسألنا الله عنك يوم القيامة، فقال بديع الزمان: لا تخف يا سيدي، وأنا الآن مكلف بقتل الأسد ما دمت قادرًا عليه، وسيحاسبني ربي إن تركتكم دون أن أقتله، فأرسل معي من يدلني على البستان.

ركب الملك وبعض الأعيان وساروا يقدمهم بديع الزمان حتى قربوا من البستان، فوقفوا هم وقالوا: لا نستطيع المسير معك يا عبد الله، فإن البستان أمامك وأشاروا إليه، فقال لهم: انتظروا هنا واطمئنوا.

دخل بديع الزمان البستان شاهرًا سيفه، وأخذ يمشي هنا وهنا باحثًا عن

الأسد حتى رآه قريبًا من الباب لأنه كان يربض على مقربة منه كثيرًا ليفترس الداخل فيه، وزأر الأسد حين رآه، زئيرًا اهتزت له الأشجار، وانخلعت له قلوب الملك وأعيان قومه، وصاح بديع الزمان على أثره صيحة كأنها زئيره، وابتدر رأسه بضربة من سيفه شقته نصفين، وسقط على الأرض جثة هامدة، وتقدم إليه بديع الزمان وأخرج قلب الأسد وأكله ثم سمع صوتًا فوقه يقول: انزع عنك شعارك يا بديع الزمان، فوجد نفسه مطيعًا من حيث لا يشعر، ونزع ثوبه الأعلى، ثم وجد نفسه قد ارتفع في الجو، وبعد نصف ساعة وجد نفسه على قمة جبل، وليس معه أحد، فنزل إلى سفح الجبل، ومشى في الوادي في حالة ذهول وحيرة لعله يجد أناسًا أو طعامًا، وبينما هو سائر سمع صوتًا ينبعث من مغارة في ذلك الجبل، فدخلها ووجد شيخًا أمامه غلام وهو يقول له: اصبر يا بني فعسى أن يبعث الله من ينصفك من عمك، فحيا الشيخ ورد التحية بأحسن منها وسأله: من أنت يا هذا؟

فقال بديع الزمان: أنا من بلدة الغمام وصاحبها الملك سندروس، فهل هي قريبة منا؟ فقال الشيخ: ما سمعت بهذه المدينة ولا بملكها، فقال: وفي أي البلاد أنا الآن؟ فقال الشيخ: أنت يا بني في بلاد الظلمات وهي عامرة بالسكان، فقال: وماذا تفعلان في هذه المغارة؟ وهل هذا الغلام ابنك؟

فقال: إنه ابن سيدي الملك سليم وكنت وزيرًا له، فجار الزمان علينا، وجعلنا في هذه الحالة التي تراها، وكنا ذاهبين إلى هرزان الظلماني نشكو إليه أمرنا، ونستنجده ليكشف عنا مصيبتنا، فقال: وما مصيبتكما؟ فقال الشيخ: اعلم يا سيدي أن بلاد الظلمات ستة أقاليم، وكل إقليم فسيح الأرجاء، وله ملك يحكم فيه، وكان والد هذا الغلام ملك الإقليم الأول. فلما توفي ولیناه ملكًا خلفًا لأبيه وأقامني الأهلون وصيًا عليه إلى أن يبلغ رشده، ولكن عم هذا الغلام طمع في الملك واحتال على قتله، ولكن الله نجاه من يده، ففررت به إلى هذه المغارة لنخرج منها إلى هرزان الظلماني ملك الإقليم الثاني لنستنجد به على عمه، لأنه كان صديقا لأبيه.

فقال بديع الزمان: إني ذاهب معكما إلى حيث شئتما، ولكن أرجو أن

تعيروني ثوبًا من فضل ثيابكم، فقال له: ومن أنت؟ وما الذي أخذ منك ثوبك؟

فقال: إني من بلاد العرب، ودخلت مدينة الغمام. وجرى لي فيها كيت وكيت، وحكى له قصته حتى كان معه في المغارة.

وكان الذي رفعه من البستان وأمره أن ينزع عنه ثوبه الخضر عليه السلام لأمر يعلمه الله. فأعطاه الشيخ ثيابًا مما كان قد حمله معه.

***

بديع الزمان يطير في الجو

﴿ ٧ ﴾

أما الملك سندروس والأعيان فإنهم انتظروا عودة «عبد الله» بديع الزمان بعد أن سمعوا الزئير والصيحة، فلم يعد، فقال: إن الأسد افترس عبد الله، وأرى أن نرسل من يمشي في خفية وحذر ليرى ماذا فعل الأسد. فمشى رجل منهم ونظر من الباب فرأى على مسافة منه الأسد ملقى على الأرض ورأسه قد شق نصفين، فاطمأن ودخل حتى بان له الأمر وتأكد أن الأسد قد قتل، فرجع مسرعًا إلى الملك والأعيان وبشرهم بقتل الأسد، فسأله الملك: هل رأيت عبد الله بجانبه؟ فقال: ما رأيت عبد الله أبدًا، ولكني وجدت الأسد مقتولا، فقال: ربما تركه وجال في البستان ينعم بأشجاره ويأكل من ثماره، فلما دخلوا ورأوا الأسد مضرجًا في دمه وثوب عبد الله، وسلاحه وأدوات حربه مبعثرة من حوله حزنوا لأنهم ظنوا أن الأسد ابتلعه بعد أن ضربه وقبل أن تزهق روحه. ثم رجعوا وأذاعوا في المدينة نبأ قتل الاثنين: الأسد وعبد الله، ففرحوا وحزنوا وأمر الملك أن يعلق ثوب: عبد الله وسلاحه وأدوات حربه على باب المدينة تخليدًا لذكره، وطمعًا في أن يعرفه أهله من ثوبه وسلاحه، واطمأن الملك وأهل المدينة، وجعلوا يذهبون إلى البستان، ويأكلون من ثماره، وهم آمنون.

أما الأمير حمزة فإنه بعد أن رجع كان لا يزال يذكر ابنه بديع الزمان نادمًا على ما فعله من إغضابه وطرده، ورأى ذات ليلة في منامه كأنه في برية قفراء ملقى على ظهره وليس معه أحد يأتنس به، فانقض عليه طائر وحط على فخذه وضرب بطنه بمنقاره فشقه وجعل يأكل من أحشائه خائف متألم، وأراد أن يمد يده ليمسك الطائر ويمنعه أو يطرده فما استطاع أن يحرك يده، ثم انتبه من نومه فزعًا، فقص رؤياه على قاضي العرب لتفسيرها وتأويلها فقال: ربما كان هذا رمزًا لما يصيب ابنك بديع الزمان من مكروه، وأرى

أن ترسل أخاك عمر إليه ليسترضيه ويرجع إلينا به، والأمر بعد ذلك لله الذي بيده كل شيء، فأمر حمزة أخاه أن يبحث عنه في مخابئ الأرض قاصيها ودانيها ليأتيه به، وقال له: وإن عصاك فقل له: إن أباك يود أن تنتظره في مكانك هذا، فإن وعدك فارجع إلينا حالا.

انطلق عمر وهو في شوق إلى لقاء بديع، وجعل ينتقل من مكان إلى آخر في أسرع من لمح البصر، وهو يسأل ويستقي الأخبار عنه، حتى دخل مدينة الغمام التي ملكها سندروس، فرأى ثياب ابن أخيه وسلاحه وأدوات حربه معلقة على باب المدينة، فبكى وقال: ويل لكم يا أهل هذه المدينة إن كنتم قد آذيتم صاحب هذه الثياب والأدوات المعلقة! فلما سمعه من حوله من الحرس والناس أسرعوا إليه وقالوا: نسألك بالله ونستحلفك به أن تعرفنا بصاحب هذه الثياب والأدوات المعلقة.

فقال: فارس الفرسان، ومذل الأكاسرة والقياصرة، وأبوه من انتشر صيته في كل مكان، وخدمته ملوك الجان، حمزة البهلوان. فاندهشوا وقالوا: تعال معنا إلى الملك سندروس ليخبرك عن هذا الرجل الذي قتل الأسد، والأسد أكله، ونحن لا نزال في حزن أليم لفقده.

فلما دخل عليه حياه وقال: إني جئت أسألك عن بديع الزمان بن حمزة البهلوان الذي أذل الجبابرة، وأخضع لسلطانه الأكاسرة، فقال: ما جاءنا رجل اسمه بديع الزمان ولا رأيناه، فقال عمر: إنه صاحب الثياب والأدوات المعلقة على باب مدينتكم، فإن كنتم قتلمتوه فأبشروا بالخراب والدمار... فعجب الملك وقال: أصاحب هذه الثياب المعلقة ابن الأمير حمزة الذي وصل إلينا صيته من سنين عديدة، والذي حاصر مدينة السبائل؟! إني والله ما عرفت ذلك إلا منك الآن، ومع هذا فإننا أكرمناه وأحببناه، ولا نزال نبكي عليه ثم قص عليه قصته، ثم قال: ولما كنا لا نعرفه علقت ثيابه وأدوات قتاله على باب المدينة تخليدًا لذكره، وأملا في أن يعرفه أحد من أهله أو أصدقائه، فقال عمر: إني لا أستطيع أن أصدق ما تقولون، فإذا كان قد قتل الأسد، فإن الأسد لا يستطيع أن يأكله.

فقال الملك: ربما افترسه الأسد قبل أن يقتله، فكاد عمر يضحك من جهل الملك، إلا أنه أدرك من سذاجتهم هذه أنهم أبرياء من دمه، ورجع إلى الثياب وأنعم فيها النظر فلم يجد فيها تمزقًا فارتاب في قتله، وظن أنه قد نزل به أمر، وأهل المدينة لا يعرفون، فاستأذن الملك، وأخذ الثياب والأدوات لفحصها والوصول منها إلى معرفة ما نزل به غير القتل، فقال الملك: خذها، ونرجو أن تبشرنا بأنه حي لم يمت، فأخذها وكر راجعًا بها إلى أبيه في مدينة السبائل، وقال له: هاك يا مسكين ثياب ابنك وأدوات قتاله، ولكني لم أجده، فنظر إليها واجمًا كأن به مسا من الذهول من هول الخبر، وشاع النبأ بين العرب فساد الوجوم وعمت الأحزان، ولكن الوزير بزرجمهر جعل يطمئنهم ويعدهم أنه سيعود إليهم سالـمًا حتى قشع عن نفوسهم سحب الجزع والهلع، ثم التفت إلى عمر وقال: أخبرنا كيف وجدت هذه الثياب والأدوات؟ وفي أية مدينة وجدتها؟

فحكى له القصة كما سمعها من الملك سندروس.. فخلا إلى نفسه ثم قال: إن بديع الزمان لم يقتل، ولكنه أخذ من غير ثيابه، وأدوات قتاله إما إلى أمر، وإما إلى مكان لا يعلمه إلا الله، ومع هذا فإني أبشركم بعودته إليكم سالـمًا، فاصبروا وأسلموا أمركم إلى الله اللطيف الخبير، فاطمأنوا لما عهدوه في بزرجمهر من الحكمة والصدق.

***

أما بديع الزمان فإنه سار هو والشيخ والغلام سليم، حتى كانوا في السهم المحيط بمدينة هرزان الظلماني، فوجدوا الرعاة ترعى بقرا وغنمًا لا يحصى عددها، فسألهم بديع الزمان: لمن هذه البقر والغنم؟ فقالوا: للملك هرزان الظلماني صاحب هذا الإقليم، فقال: نحن جائعون، فأعطونا شاة نذبحها ونأكلها، فقالوا: اذهب لشأنك وإلا قطع رأسك وعدمت حياتك، فغاظه قولهم، ومد يده إلى شاة وعزلها خلفه، فصاحوا وأسرعوا إلى رئيسهم فأخبروه فجاءه، يجري وضربه بالعصا، ولكن بديع الزمان مال بجسمه فهوت الضربة

على الأرض ثم ضربه بجمع يده في صدره فسقط على الأرض مغشيًا عليه، ثم أخذ منه خنجره، ولقى به الرعاة الذين اجتمعوا يريدون ضربه أو قتله، وجرح منهم كثيرين، ثم أسرعوا إلى مليكهم وأخبروه، فغضب وركب جواده، وخرج إليه في جماعة من فرسانه حتى كانوا عند بديع الزمان، فقال الرعاة، هذا هو الذي فعل بنا ما قصصناه عليك، ورأى بديع الزمان أن يعمد إلى اللين والحكمة حتى يصل إلى غرضه فابتدره قائلا: أهلا بالملك العظيم والسيد الكريم، هل أزعجك شاة أكلها ضيوف جياع في بلادك ومن مالك؟! إنك إن سمعت قصتي وجدت الذنب على رعاتك الذين سودوا ببخلهم وجهك، وما رضوا أن يعطونا من مالك الذي غمرت به القريب والبعيد، فخجل الملك وقال في نفسه: لا ريب أن هذا الرجل كريم، وما كان لي أن أخرج في هؤلاء الفرسان من أجل شاة أذبح العشرات منها كل يوم، ثم قال لبديع الزمان: اذكر قصتك، فإما عفوت عنك وأعذرتك، وإما قتلتك.

فقال بديع الزمان: أنا بديع الزمان بن حمزة البهلوان الذي أذل بسيفه الجبابرة! فقاطعه الملك ونزل عن جواده وتقدم إليه قائلا: أهلا بالسيد الكريم ابن السيد الكريم، لقد جاءتنا أخباره، وعرفنا أنه يقاتل في سبيل الله، وتمنينا أن تكون من رجاله، ولعلك تكون الوسيلة إلى تحقيق ما تمنينا! وأنت الآن أعز من أولادى، وما أملكه بين يديك، وهذه جنودي ورجالي طوع يمينك.

فقال بديع الزمان: لست إلا خادمًا لك، وأرجو أن تتخذني ابنًا وعونًا حتى يأذن الله بالعودة إلى بلادي وقومي.

ثم حكى بديع الزمان أول ما غادر قومه وقال: حصل كذا وكذا حتى وجدت في المغارة هذا الشيخ وهذا الغلام وأخبراني أنهما قادمان إليك في أمر يهمهما، فصحبتهما وجئت معهما، وكان المجيء مباركًا لأنه كان السبب في هذه المحبة الصادقة بيننا، فقال: وما حاجة الشيخ والغلام؟

فقال بديع الزمان: قل ما عندك أيها الشيخ فقص الشيخ قصة الغلام

وعمه «طرخان» فغضب هرزان وقال: اعلم يا سيدي أن ملوك الأقاليم تعيش في جو صاف كله محبة ووئام، وما اعتدى أحد منهم على الآخر، ولما كان أبو هذا الغلام صديقًا لي، وواحدًا منا، وظلمه عمه، فلا بد من الذهاب معه لتوليه ملك أبيه، وأنف عمه راغم، فهيا بنا إلى المدينة لنجمع الجنود، ونمضي بهم إلى الإقليم الأول بعون الله تعالى.

سار هرزان وبديع الزمان في جيش كبير، وكان «طرخان»، قد عرف مجيئهم، فهرب إلى هارون أبي العمد واستجار به، وقال: إن أخي مات وترك ابنه صغيرًا، فاجتمع أهل المدينة وولوني عليهم ملكًا حتى يكبر ابن أخي وأترك له ملك أبيه، ولكن الوزير أخذ الغلام واجتمعا برجل اسمه بديع الزمان، فسار بهما إلى هرزان وحرضوه على قتلي أو طردي، وقد جئتك مستجيرًا، فقال: لقد أجرتك وسأردك إلى المدينة ملكًا.

وصل هرزان إلى المدينة وعلموا أن «طرخان» قد هرب، فأرسلوا إلى أهل المدينة يخبرونهم بقدوم سليم ابن ملكهم، ففرحوا لأنهم كانوا يحبون أباه لعدله، ويكرهون عم الغلام لظلمه، وخرجوا إلى لقائه والاحتفاء به، ثم دخلوا المدينة وأجلسوه على عرش أبيه، وجعلوا الشيخ وزيره ووصيًا عليه حتى يبلغ رشده، وقال بديع الزمان: لا بد من اقتفاء أثر «طرخان» وقتله حتى نأمن منه على ابن أخيه. فقال هرزان: أنا معك بجيشي حيث تريد، وبعد أيام قضوها في المدينة رحلوا إلى هارون أبي العمد، وعسكروا على مقربة من مدينته، وأرادوا أن يرسلوا إليه كتابهم، فسبقهم وبعث إليهم الكتاب الآتي:

من هارون أبي العمد إلى هرزان الظلماني.

ما كدت أصدق أن تجيئني بهذا الجيش الجرار، وقد عشنا متحابين متعاونين لم يعكر صفو المودة بيننا خلاف أو شقاق، فكيف يخدعك هذا الغلام الصغير؟! وكيف تطيع هذا الرجل الغريب الذي ما جاء بلادنا إلا ليشعل نيران الفتنة بيننا، ويسفك الدماء ويخرب البلاد، فإذا جاءك كتابي هذا، فأقلع عن عزمك، وارجع إلى بلادك ليدوم السلام بيننا وما أرسلت إليك هذا عن خيفة، فأنت تعلم مبلغ شجاعتي وقوة رجالي، فاحذر أن

تسمع لهذا الغريب المفسد قولا، وحافظ على حياتك وحياة رجالك بالعودة إلى بلادك. والسلام.

فلما قرأ هرزان الكتاب على مسمع من بديع الزمان قال بديع: اسمح لي أن أكتب إليه، فقال: اكتب ما شئت، فكتب إليه من بديع الزمان بن حمزة البهلوان إلى هارون أبي العمد.

ما أردنا بالمجيء قتالا ولا حربًا، ولكنا أردنا أن نرد الحق إلى أهله، ونعيد الملك إلى وارثه، ولو عرفت الحقيقة لشكرتنا وما أغضبك قدومنا، وإذا شئت الحرب فنحن لها، وإن رغبت في السلام فنحن أرغب منك فيه، ولعلك عرفت من كتابي هذا أن ما قصه عليك «طرخان» كذب وبهتان، ولا إخالك تؤيد كذابًا وتعين ظالمًا، وما كان هذا الغريب ضالا ولا مفسدًا، ولكنه يبغي الحق الذي تبغيه، ويمحو الظلم الذي لا تطمئن إليه.

عجب هارون أبو العمد إذ كان الكتاب من بديع الزمان، ولم يكن من هرزان، وغضب من إنذاره بالحرب فأمر الجنود أن تخرج للقتال فخرجوا وعسكروا أمام جيش هرزان، وفي صبيحة اليوم الثاني من نزولهم ، تأهب الفريقان للحرب، وخرج إلى الميدان هارون أبو العمد ليبارز من يخرج إليه من الفرسان، فأسرع إليه بديع الزمان وقال له: اجعل القتال بيني وبينك، فإن غلبتني فقتلتني أو أسرتني رجعتم إلى السلم والوفاق، وإن غلبتك عفوت عن قومك وحقنت دماءهم، لأني لا أبغي إلا أن أضرب على يد الظالم الغادر، وأرد الملك إلى وارثه سليم ابن الملك المتوفى.

فقال هارون: لقد ظلمتنا يابن حمزة، ودفعتنا إلى الشقاق والخلاف بتدخلك فيما لا يعنيك، ولو أنك أقمت فينا ضيفًا لأكرمناك ورفعنا شأنك، فقال: ما كنت ظالمًا في يوم من أيام حياتى، ولكن الظالم هو الذي أجرته معتمدًا على كذبه، ولو أنك عرفت الواقع لقتلته حقنًا لدماء الأبرياء من عباد الله وما أجدى هذا الحوار شيئًا، وانقض كل منهما على صاحبه يتصاولان ويتجالدان، ودامت الحال بينهما إلى ما بعد الزوال، ورجع كل إلى فريقه من غير أن ينال من قرنه شيئًا، بل كان في نفسه من صاحبه إعجاب بشجاعته وقوته.

وقال بديع الزمان: لقد طالت المبارزة بيني وبينه لأني أريد أسره لا قتله، وقد تمكنت من إعدامه ثلاث مرات، ولكني امتنعت راجيًا أسره، وطامعًا في أن يكون عونًا لنا وصديقًا وذلك ما جعلني أمهله ولا أقطع بالقتل في أمره. فشكروا له حسن عمله وكراهيته لقتل النفس إلا للضرورة. وفي اليوم التالي قامت بينهما مبارزة أعنف من المبارزة الأولى، وحرص بديع الزمان على أن يكون هذا اليوم فاصلا، وأن تكون المبارزة حاسمة، ثم حمل على هارون حملة قاسية، واقتلعه من سرجه، وضرب به الأرض ضربة شديدة، وأسرع إليه يكتفه، فقال له: مهلا يابن حمزة، فإني لا أحب أن تحط من قدري بأسري، وأود منك أحد أمرين: إما أن تقتلنى، وإما أن تبقيني لك أخًا وفيا يكون لك الساعد الأيمن في حياتك.

فقال بديع الزمان: ما أردت بك شرًا، ولو أردته لانتهيت منك في المبارزة الأولى، وإذا سمحت أنت أن يكون هذا الغريب لك صديقًا حميما، ومعينًا مخلصًا - كنت لك من الشاكرين.

فقال هارون: لقد جمعت بين الشجاعة والإحسان وكرم النفس وعلو الهمة، وهأنذا بين يديك، ولا أبغي من حياتي إلا أن أكون لك أوفي صديق وأكرم رفيق، ثم تعانقا وتصافحا، ومشيا إلى جيش هرزان حيث قوبلا بالفرح والحفاوة، ووضعت الموائد فأكلوا وشربوا، وجاء سليم الغلام فقص قصته على هارون فقال له: إن عمك غشني وكذب عليَّ، وسأرجع إلى المدينة لأكتفه وأسلمه إلى بديع الزمان يفعل به ما يشاء. ورجع هارون إلى قومه فوجد طرخان قد هرب إلى ملك آخر ليستجير به، فعاد هرزان إلى بديع الزمان وأخبره بهربه فقال: وددت منه ذلك، وأحب أن ينتقل من إقليم إلى آخر حتى أغشى تلك الأقاليم، وأخرج منها صديقًا وفيا لأهلها وملوكها، وهم لي خير رجال وأعوان. وكان ما دبره بديع الزمان فأصبح ملوك الأقاليم له خير الأصدقاء وأقوي الأعوان، وفي الإقليم الخامس أمده الله من عنده بالخير العميم والنعمة السابغة، ويسر له السبيل إلى العثور على أخيه.

وذلك أنه قضى أيامًا في مبارزة ملكه بهران أبي الزنجير، ووجد أن هذا الملك لا يؤثر في جسمه سيف ولا سنان، فحار في أمره ؛ ماذا فعل؟ ضربته بالسيف غير مرة فما أثر فيه! وخزته بالسنان مرات فما أجدى شيئًا! إن في الأمر سرًا خفيًا لا أدرك كنهه، فمن لي بمن يقضي عليه؟! وألح عليه هذا الفكر ليلا، وحرمه لذيذ النوم، فتسلل من صوانه إلى الخلاء طالبًا الهداية من رب السماء، ومشى قليلا فلاح له من فوق الجبل نور: يظهر ويختفي، فمشى حتى كان عنده. ووجد بابًا من النحاس اللامع قد كتب عليه: يا من وقف أمام هذا الباب؛ إن كنت بديع الزمان بن حمزة بن إبراهيم أمير مكة. فاقرأ نسبك، ثم ادفع هذا الباب بيدك فإنه يفتح، وستجد المارد ينتظرك ليعطيك الكنز الذي يحفظه لك، فأنساه هذا ما كان يفكر فيه، ووقف أمام الباب وذكر نسبه، ثم دفع الباب بيده فانفتح، وسار في دهليز طويل، وخرج منه إلى مكان فسيح، وبعد خطوات معدودات فوجئ بمارد طويل قد انتصب أمامه، ثم هوى على يده فقبلها، وقال: إني في انتظارك يا سيدي منذ زمن بعيد، لأعطيك نصيبك الذي وكل إليّ الملك بهزاد حفظه وتخلي سبيلي.

فقال بديع الزمان في ثبات وفرح: أرني نصيبي حتى أخلي سبيلك، فقاده المارد إلى غرفة من الرخام الأبيض الصافي، بها صناديق من النحاس المنقوش نقشًا بديعًا، وفتح المارد صندوقًا منها، وأخرج منه قباء ورداء من الذهب المرصع بالجواهر، وقال: خذها يا سيدي فهذه حلة بهزاد كان يلبسها في المواسم والأعياد، فلبسها بديع الزمان، وكان فيها أعظم ملك وقال: هل هذه كل ما عندك لي؟ فقال: أمهلني قليلا، ثم أخرج تاجًا مرصعًا بالجواهر وناوله إياه، ثم أعطاه حذاء وسيفًا وخنجرًا، وبقية آلات الحرب والجلاد، ثم أخرج له من صندوق آخر صوانًا من الحرير الأحمر المنسوج بأيدي نساء الجان، وكانت عمده من الذهب، ولكل عمود جوهرة تلمع كأنها الكوكب، وله كراسي وخوان من الذهب وآلة موسيقية تعزف متي أردت.

فقال بديع الزمان: وكيف السبيل إلى عنقك أيها المارد الأمين؟

فقال المارد: صبرًا يا سيدي فإن لك عندي أربعمائة صوان من الحرير،

وأربعمائة بذلة مرصعة كانت لقواد بهزاد وعظمائه، وسبعة صناديق مملوءة ذهبًا، وها هي ذي فخذها؛ وهذا خاتم أسري فاطبعه على جبهتي وبذلك يخلى سبيلي، فقال بديع الزمان: ولكن أريد منك شيئًا، وذلك أن تنقل هذه الأشياء عند الإقليم الخامس فقال: لك ذلك يا سيدي، وأريد أن أطلعك على أمر يسرك، قال: وما هو؟ قال: إن بهزاد كان قد بنى في هذا الكنز المقاصير الكثيرة، ولما مات اتخذت امرأة عجوز ساحرة كاهنة اسمها ديجوزة إحدى المقاصير مقامًا لها، وخطفت رستم فرتم، وأحضرته عندها وأرغمته على أن يتخذها له زوجة، وهو يقاسي العذاب عندها، وكلما طلب منها العودة إلى دياره توعدته أن تهلك أباه وأهله، فترغمه على السكوت، فاغتاظ بديع الزمان وقال: أين هذه الساحرة الخاطئة لأقتلها؟

فقال: مهلا يا سيدي فلا تكن عجولا، فإنها إن رأتك أهلكتك بسحرها، وسأذهب بك إلى غرفتها وهي غافلة لا تشعر بك، وحينئذ تضربها بسيفك ضربة قاتلة، فقال: شكرًا لك، وساعده المارد على قتلها بما دبره من تلك الخطة، وماتت وخلص أخاه من يدها، ونظر بديع الزمان إلى أخيه فوجده قد حال لونه، وذهبت نضرته وهزل جسمه، وأراد أن يخفي نفسه عن أخيه، ووصى المارد ألا يخبره أنه أخوه بديع الزمان.

فرح رستم وأثنى على هذا الإنسان الذي خلصه من يد الساحرة وسأله: من أنت أيها الإنسان الكريم؟ فقال: أنا بهزاد صاحب هذا الكنز، وقد غبت عنه مدة في بعض شئوني، وقد سكنت هذه العجوز فيه دون إذن منى، فجازيتها بالقتل كما رأيت، ثم أمر بديع المارد أن يلقي العجوز في الخلاء فرماها في مكان سحيق، وأمره أن يضرب الصواوين عند الإقليم الخامس وينقل جميع الذخائر ففعل، ثم مضى هو ورستم وجعله في صوان من الصواوين، أما صوان بهزاد فجعله له. وبقى المارد عند بديع الزمان لأنه لا يزال محتاجًا إليه ليحمل أخاه إلى أبيه حمزة عند مدينة السبائل.

نهض ملوك الظلمات في الصباح فلم يجدوا بديع الزمان بينهم، وأرسلوا أنظارهم في الخلاء فرأوا صواوين كثيرة من الحرير مضروبة، وفي وسطها

صوان عال كبير يدل على أنه لأحد الملوك العظام، فذهبوا إليه، وهم يعجبون من جمالها ودقة صنعها، ولما دنوا من الصوان الأكبر وجدوا بديع الزمان جالسًا فيه على كرسي من الذهب، وبجانبه ثمانون كرسيا من العاج المطعم بالذهب وهو في حلة بهزاد، فوقفوا غارقين في ذهولهم ودهشتهم، فناداهم وقال: تعالوا يا أصدقائي، فأنا أخوكم بديع الزمان ابن الأمير حمزة البهلوان، وهذا عطاء العزيز الرحمن، فأقبلوا إليه فرحين وجعلوا يهنئونه والبشر يلمع في وجوههم، ثم أجلسهم وسرد عليهم قصته وقصة أخيه رستم، وقال لهم: أوصيكم أن تدعوني أمامه، بهزاد، لأني لا أريد أن يعرفني قبل أن أرسله إلى أبيه، ثم أحضر أخاه رستم فرتم وأجلسه بين الملوك وقال: هل تعلم يا رستم أين أبوك حتى أرسلك إليه؟ فقال: لا أدرى! لأني فارقته منذ مدة طويلة، فقال: لقد سمعت أنه عند مدينة السبائل يحارب ملكها الخوند، وسأرسلك إليه بعد سبعة أيام، بعد أن يقوى جسمك وتعود إليك نضرتك، فقال: جزاك الله خيرًا أيها الإنسان الكريم.

كان بديع الزمان لا يزال في عجب من أمر ملك الإقليم الخامس إذ إن السيوف لا تؤثر في جسمه، وبينما هو يفكر ليلا وهو على فراش نومه في صوانه سمع وقع أقدام فرس بجانبه، فالتفت إلى مكان الصوت فإذا به يسمع: لا تخف يا بديع الزمان، فأنا الخضر، وقد عرفت ما أحزنك وأقض مضجعك، واعلم أن هذا الملك طلت جسمه ساحرة بطلاء مسحور يجعل السيوف لا تؤثر فيه، ولكنها ماتت قبل أن يطلي رأسه بهذا الطلاء فإذا بارزته فأفهمه أنك لا تضربه إلا على رأسه، وأنك عرفت سر الذي فوق جسمه، وحينئذ سيخضع لك ويدخل في طاعتك، ويكون من جملة رفقائك وأصدقائك، وذلك ما حصل، وانتهى أمره من هذا الإقليم، ولكن «طرخان» هرب إلى الإقليم السادس.

***

ومضت الأيام السبعة فقال لأخيه: تحب أن ترجع إلى أبيك فقال: إذا

تفضلت عليّ فإني في شوق إليه وإلى أهلي، فقال: إذا رجعت إلى أبيك حمزة فقل له: إن الملك بهزاد الذي خلصني من يد الساحرة يقول لك: احفظ جميع ما غنمته من الأموال في حروبك واحفظ اليقظان جوادك، فإني قادم إليه وسآخذها منه طوعًا أو كرهًا، وإن كذبك في هذا أو شك في قولك فقل له: اسأل حكيم العرب الوزير بزرجمهر، فإنه يعرف أن الملك بهزاد أقوى من حمزة وأشد منه بأسًا. ثم قال: وأريد الآن أن تعاهدني على ألا تشهر في وجهي سلاحًا، فعاهده رستم على ذلك، ثم أمر المارد أن يحمله، فحمله وطار به إلى أن وضعه قريبًا من معسكر أبيه، ثم قال له: امض أنت إلى أبيك فلا خوف عليك. وكان حمزة لايزال يحاصر مدينة السبائل، ولا يعرف سبيلا إلى فتحها، والحزن على بديع ورستم يملأ صدره، ورآه بعض الفرسان الذين يجولون حول المعسكر قادمًا إليهم فعرفوه، وخفوا إليه وسلموا عليه، ثم انطلق بعضهم إلى أبيه وبشروه بعودة رستم، وذاع النبأ في المعسكر فكان يموج من الفرح موج البحار، ويتواثب تواثب الأمواج. ونهض حمزة من الفرح إلى لقائه، فاحتضنه وأمطرت عيناه دموع الحنان والفرحة باللقاء.

وبعد أن هدأت عاصفة الفرح سأله أبوه عما وقع له في غيبته فحكى له حكايته إلى أن قال: وإن الملك بهزاد الذي قتل ديجوزة الساحرة وخلصني سيأتيك، وينزع منك أموالك وجوادك اليقظان، وما ملكتموه وغنمتموه في حروبكم طوعًا أو كرهًا وقال: إن لم يصدقك أبوك فقل له: اسأل الوزير الحكيم بزرجمهر فإنه يعرفني فسأل حمزة الوزير فقال: إن ما قاله حق لا مرية فيه، فغضب حمزة وقال: لو لم تكن رجلا جليلا ولك منزلة في نفوسنا لغضبت عليك، فقال: وإني لأستحق الغضب إن لم يكن قولي حقًا، وإني سأعتزل ديوانكم حتى يتبين لكم أن بهزاد أقدر منك وأقوى سلطانًا، وأنه مثلك شرفًا ونسبًا وخرج الوزير بزرجمهر واعتكف في صوانه. وكان الملك والأمراء في ألم شديد لأن حمزة أغضب رجلا له فضل عظيم على العرب بما أفادهم من تدبيره وحكمته ومعونته لهم مدة حياته، ولكنهم سكتوا حتى لا يشتد غضب حمزة ويعظم الأمر ويستفحل.

انعقد مجلس العرب في الصباح عند الملك سعد كعادته، ودخل عليهم بلكان الهطال يبكي، فسألوه عن ذلك، فقال: ذهبت إلى بهران في صوانه لأجيء به إلى المجلس فوجدته جثة هامدة لا رأس لها، وما عرفت الذي قتله، ولكن الظن يتجه إلى قاسم بن رستم لأنه كثيرًا ما هدده وتوعده بالقتل، فقال الأمير حمزة: لا بد من قتل قاسم لأريح العرب منه فإني ما رأيت منه إلا الشر، وقد كان السبب في غيبة عمه بديع فقال الملك: يا جدي لا تعجل بقتل قاسم حتى نتبين الأمر. فربما ظهرت براءته بعد قتله فلا ينفعنا الندم، فقال: الأمر واضح، وهل نزل ملك من السماء قتله؟! وهل في العرب من يثير الفساد ويجري وراء الشر غيره؟! ثم نادى الذئب وأمره أن يأخذه ليقتله، فأقبل الذئب وكتفه، وقاسم يستغيث ويحلف الأيمان أنه لم يمد إليه يده بسوء.

ودخل عمر العيار إذ ذاك وفهم الأمر، فضرب الذئب بيده على صدره وقال له: اترك قاسمًا وفك قيده ثم التفت إلى حمزة وقال: إلى متى هذه الأخطاء التي ستودي بك؟ ! بالأمس أغضبت الوزير بزرجمهر الذي عالجك وشفاك وأنقذك من الموت غير مرة، والذي لولاه لكان العرب قد هلكوا جميعًا، واليوم تريد أن تقتل ابن رستم ظلمًا وعدوانًا ! ! ألم يأن لك أن تهدأ وتلزم الحزم والحكمة في أمرك ؟! هذا رأس بهران، وهذا رأس قاتله، وأخرجهما من جرابه ووضعهما في المجلس بين يدي الأمير حمزة، فنظر إليهما مليا ولم ينطق بكلمة، وكان عمر العيار جريئًا في مخاطبة أخيه حمزة ولا يلومه على شيء من جراءته، وإن أغلظ في قوله. فعجب الحاضرون وقالوا: وكيف كان هذا يا عمر؟! وكيف عرفت القاتل؟! وكيف جئتنا برأسه؟!

فقال: قتله عيار من عياري الخوند، كان قد سلطه بختكان بن بختك، أن يقتل الأمير حمزة، ولما دخل معسكرنا ظنه حمزة لأنه يشبهه، وقتله وحمل رأسه ورجع، فلما رأيته ارتبت في أمره وظننته من عياري الخوند، فأقبلت إليه وأمسكته وأنا في زي عياري الخوند وقلت له: إنك عيار من العرب ولا بد من قتلك، وعرف أني قاتله فقال: إني من عياري الخوند، فقلت له: إنك

كاذب ولا بد من قتلك، فقال: سأثبت لك أني من عياري الخوند، فقلت: إن أثبت لي ذلك نجوت ورجعنا معًا إلى المدينة، فقال: أمرني بختكان أن أقتل الأمير حمزة، فتسللت إلى معسكر العرب وقتلته وهذا رأسه، فأخذته منه وقتلته وفصلت رأسه من جسمه، ثم حملت جثته وألقيتها في المدينة من خلف سورها، ووضعت الرأسين في جرابي وجئتكم ولولا حضوري الآن لنفذ أمر حمزة وقتل ابنه، ثم التفت إليه وقال: قم الآن إلى صوان الوزير بزرجمهر واعتذر إليه وصالحه وارجع به إلى مجلسنا، فقال حمزة: ذلك حق يا عمر، ولا بد من الاستجابة إليه، ثم نهض ونهض معه الأمراء، وذهبوا إلى صوان الوزير، فلما رآهم قادمين عرف غرضهم فخرج واستقبلهم، وقبل الأمير حمزة يده واعتذر إليه وسأله أن يعفو عنه ويغفر زلته، فقال الوزير: لقد غفرت لك قبل أن أغادر الصوان، ولا أحمل لك في قلبي كراهية، لأني أحبك محبة أولادى، وما فارقتكم إلا امتثالا لأمرك، وحين تأمرني بالعودة إليكم عدت طائعًا راضيًا، فلم ينطق حمزة بكلمة، وقال الأمراء: هيا بنا لتعود إلى مجلسك فينا، فسار معهم وأخذ مجلسه بينهم وباشر عمله فيهم كما كان.

***

انتظر بديع الزمان حتى رجع إليه المارد، وأخبره أن أخاه قد وصل إلى أبيه، فطبع جبهته بالخاتم وأخلى سبيله، وفرح المارد فرحًا عظيما وقال: أشكر لك أيها السيد الكريم كرم نفسك، إذ أطلقتني وربما كنتم في حاجة إلى خدمتي، ولو كان غيرك لآثر أطماعه على إخلاء سبيلي، وتقديرًا مني لكرم نفسك فإني أحب أن أكون تحت أمرك، فدلني على مكان أجيئك فيه لأقضي لك ما تريد، فقال: شكرًا لك، لست الآن في حاجة إليك، ولكن أريد أن تأتيني عند مدينة السبائل بعد أن أرجع إليها. فقال: سمعًا وطاعة، وودعه وانصرف. ثم أمر بديع الزمان بالرحيل إلى الإقليم السادس للقبض على «طرخان».

وكان طرخان قد هرب إلى إسحق ملك الأقليم السادس، وكان معروفًا

بالعقل النافذ، والرأي السديد، وصدق الحكم، ولهذا اتخذه ملوك الظلمات قاضيًا لهم فيما يعرض من الشئون، وكان مسموع الكلمة نافذ الحكم، فلما جاءه طرخان وحكى له ما حكاه للملوك السابقين من عدوان ابن أخيه ووزيره وإفساد بديع الزمان وظلمه، وطلب منه أن يجيره وينصره قال له: إن كنت على حق فيما تقول نصرناك وأجرناك، وإن كنت كاذبًا جازيناك، وإن استوجبت القتل قتلناك، ولننتظر حتى يأتي ابن أخيك والوزيرُ بديع الزمان ونتبين الأمر، ونعرف إن كنت ظالمًا أو مظلومًا لتلقى جزاءك، فقال طرخان وقد ارتعد من الخوف لأنه يعرف أنه كاذب وظالم: إذا كنت لا تجيرني فأطلق سراحي لأذهب إلى حيث آمن على حياتي. فقال إسحق: لو كنت مظلومًا كما تقول ما طلبت إخلاء سبيلك في الوقت الذي وعدتك فيه بمعونتك ما دمت مظلومًا، ويبدو لي من طلبك هذا أنك كاذب، وتريد أن تخدعني وتغشني كما خدعت وغششت الملوك من قبلي؛ ولهذا فإني لا أخلي سبيلك حتى أنظر في أمرك بعد أن يحضر خصومك، وأمر رجاله أن يحبسوه عندهم ويحافظوا عليه ويكرموه لأنه لا يزال بريئًا حتى يثبت ذنبه.

وصل ملوك الأقاليم وجنودهم يتصدرهم بديع الزمان في حلته الملوكية وفخامته الجديدة، وأمر أن تضرب الخيام وينزلوا في الخلاء، فلما استقروا وجدوا أن أهل المدينة يأتونهم ويبيعونهم بضاعتهم ويختلطون بهم. وعرفوا أن الملك يحب السلم والحزم في الأمور، وأنه لا يرغب في القتال، فقال بديع الزمان: يحسن أن نرسل إليه كتابًا رقيقًا لطيفًا نبين فيه أننا لا نبغي حربًا، وما أردنا إلا الحق والعدل، فإن أحب ما أحببناه ذهبنا إلى ديوانه واجتمعنا به ونظرنا في الأمر نظرة الحق. فقال الملوك: حسنًا رأيت، وكتب إليه بديع الزمان كتابًا بين فيه ظلم ذلك العم الهارب وعدوانه وغشه وكذبه، وأن بديع الزمان والملوك لا يريدون من قدومهم إلا دفع الظلم ومعاقبة الظالم، ولهذا أردنا أن نلقي هذه المسألة بين يديك، ونحن راضون بما تحكم به فيها والسلام.

بعث بهذا الكتاب رسولا من خدم الملوك، فوجد الرسول الملك خارجًا

من باب مدينته في جماعة من أعيانها وكبرائها فناوله الكتاب، ولما قرأه قال: إن بديع الزمان من أوفر الناس عقلا وأكرمهم نفسًا، وإن رسالته هذه لتحملنا على محبته، ثم قال للرسول: ارجع إليه وبلغه أنا قادمون إليه في إثرك. فرجع الرسول وبلغه رسالته، وأنه وجده خارجًا من المدينة مقبلا إليه. فنهض بديع الزمان والملوك وخرجوا من الصوان لاستقباله، وبعد قليل حضر إليهم، وصافحوه ودخلوا الصوان فهاله ما فيه من الكراسي وعمد الذهب وعظم بديع الزمان في عينه، وتقدم بديع الزمان إليه ليجلسه على كرسيه الخاص به في صدر المجلس فامتنع إسحق، وألح عليه بديع الزمان قائلا: إنك سيدنا والحاكم فينا ولك حق التقدم والصدارة في مجلسنا، لأننا نعتبرك سيدًا وسندًا تتطامن الرءوس بين يديك.

فأعجبه كلامه، وزادت محبته في نفسه وقال: إن الله حباك بهذه العزة والسعادة، فانعم بفضل الله عليك واجلس على كرسيك، ولو استطعنا أن نجعل من قلوبنا مجلسًا لك لفعلنا، ونحن فرحون بك وبقدومك الميمون.

ولما اطمأن المجلس قال بديع الزمان: إننا لا نريد شرًا لأحد من عباد الله، وهذا الغلام له ظلامة سيذكرها لتنظر فيها، وما نريد إلا الحق سواء أكان له أم عليه. فقال: هذا جميل. فما ظلامتك أيها الغلام؟ فقص عليه قصته وظلم عمه وعدوانه وقتله أمه – لأنه كان قد هجم على ابن أخيه بخنجره فحالت دونه أمه وجاءت الطعنة فيها فماتت – ولما أتم قصته قال إسحق: لله در بديع الزمان فهو نصير الحق، ولا يحب الكذب والخديعة، وهو أعقل رجل رأيته في حياتي، فقد استطاع أن يجمع الملوك إليه دون أن يريق قطرة من دم، وقد بان لي وجه الحق، ولكني أرجئ الحكم حتى يقف طرخان موقف المحاكمة، فربما كان عنده من الحجج ما يدافع به عن نفسه.

فقال بديع الزمان: لا ينسى السيد العظيم أنه قتل أم هذا الغلام، وأن القتل يستوجب القصاص. ومع هذا فإني سأجعله يثبت على نفسه ما قاله الغلام، وتكون البينة عليه ما تراه منه في المجلس، ثم اتفقوا على أن يذهبوا في الغد إلى ديوان الملك إسحق في مدينته لمحاكمة طرخان الخائن القاتل.

وفي الغد ذهبوا إليه، وأحسن لقاءهم وأكرم نزولهم، ثم أحضر طرخان فقال له بديع الزمان: لماذا هربت من وجهي وأتعبت الملوك؟ ولو أنك جئتني من أول الأمر لأعدتك إلى الملك لأنك رجل عاقل حكيم حازم، والإقليم في حاجة إلى رجل مثلك. فقال طرخان: ظننت أنك تنتصر لابن أخي فهربت من وجهك، فقال: لو كنت أنتصر لسليم ابن أخيك لرجعت معه ووليته الملك، وما كنت في حاجة إلى أن أسير وراءك ولكني رغبت فيك وفي صداقتك، فقبضت على الغلام وجريت خلفك لأجعله خاضعًا لك مطيعًا، ولتكون من رجالي الذين أعتمد عليهم في شدتي، والحمد لله الذي يسّر لي لقاءك، وقد أعدتك إلى الملك فكن مطمئنا ونحب أن تكون عونًا لنا وردءًا، فقال: شكرًا لك يا سيدي وتلك نعمة كبرى أسبغتها عليّ إذ أعدت إليّ الملك، ولكني أخاف أن يكون ابن أخي مصدر المتاعب والقلاقل، فلا يجعلني أطمئن في الملك يومًا لكثرة ما يشكو ويستجير ويستنجد، فقال: الحق بيدك، الآن أفضل أن نقتله ونريحك ونريح الناس منه. فخذ هذا الخنجر واقتله حتى ينتهي الأمر، ويصفو الجو، ويستقر الأمن والسلام.

فأسرع إليه وأخذ منه الخنجر ومضى إلى سليم ابن أخيه ليقتله فنهض الملك إسحق وأمسكه وجره من عنقه وقال: ويل لك أيها الظالم الخائن، لقد صدقت بفعلك هذا ما قيل فيك، وعلى كل فقد قتلت أم الغلام بغير حق، وكنت تريد قتل ابنها الآن لولا أن منعناك، ولهذا فقد حكمنا عليك بالإعدام.

فقام بديع الزمان وجره من يده إلى خارج الصوان، وضربه بسيفه فشقه نصفين. وأقام الملوك الغلام ملكًا على الإقليم الأول خلفًا لأبيه، وكان نصر الله لعباده المظلومين نصرًا عزيزًا.

وقال الملك إسحق لبديع الزمان: لقد زرعت في قلوبنا محبتك، وأهنئك بأنك سيد الأقاليم وفارسها، فإن شئت الإقامة فينا فنحن إخوان لك، وإن أردت الرحيل إلى بلادك فنحن إخوان لك أيضًا، فإنك من قوم جبلوا على فعل الخير، وإغاثة المظلوم، وحماية الضعيف، ومثلك من يتخذ ملاذًا وسندًا.

❊❊❊

﴿ ٨ ﴾

وحكى لهم بديع الزمان حكايته مع أبيه، وما جرى حتى اجتمع بهم وقال: وإني أريد أن ترجعوا معي إلى أبي لأني أبغي أن أحاربه باسم الملك بهزاد لأمر في نفسي أبغيه، فقالوا: نحن معك أينما حللت، فقال: ليكن رحيلنا بعد يومين، فأعلنوا ذلك في جنودهم. وفي اليوم الموعود بدأ سيرهم، وكانوا يسيرون بالنهار، وينامون بالليل حتى اعترضهم سد في طريقهم عالي البناء كأنه الجبل، فأمر إسحق أن تنزل الجنود أمامه حتى يأتي الله بالفرج. ونام بديع الزمان ليلة من الليالي وكانوا قد استيأسوا وفكروا في أن يعودوا، فرأى الخضر عليه السلام يقول له: انهض من نومك يا بديع الزمان، فأنا الخضر رسول الفرج. فانتبه من نومه يبحث عنه فقال له: خذ هذه الورقة يا بديع الزمان والزم مكانك، وإذا صحوت في الصباح فاجمع الملوك وقل لهم: إن الذي يرفع هذا السد نحلف له يمين الطاعة والولاء، ويكون ملكنا والحاكم فينا، وستكون اليمين والطاعة لك يا بديع الزمان، فإذا ما أقسموا فمرهم بالركوب والاستعداد للسير، ثم ضع هذه الورقة في كفك وامرر بها يدك وارفع السد فإنه يرتفع في يدك بقوة الله تعالى، لا بقوتك ولا بقوة أحد من خلقه، ثم اختفى.

وفي الصباح جمعهم وعرض عليهم أن يحلفوا اليمين، ويجعلوا الملك فيهم لمن يرفع: السد، فقال إسحاق: نحن عاهدناك على أن تكون ملكنا وسيدنا ولا مانع لدينا من تأكيد ذلك باليمين وحلف له أولا، ثم حلف بقية الملوك والأمراء والوزراء والقواد، وبعد هذا أمرهم بالركوب والاستعداد للمسير ففعلوا، ووقف هو أمام السد ودعا الله أن يرفعه، ثم مد يده إليه والورقة في كفه، فارتفع عن الأرض بمقدار ثلاثة أمتار أو تزيد، فمر الجيش كله والأمراء والوزراء، ثم مر بديع الزمان وهو رافع السد بيده، ولما خرج

من تحته رفع يده فعاد كما كان، وأحدث ضجة زلزلت لها الأرض ورجفت القلوب، وكان هذا من عوامل احترام بديع الزمان والاستمساك بطاعته إذ وجدوه مؤيدًا من الله بالمعونة والرعاية، ثم استمروا سائرين حتى كانوا في أرض السبائل، وضربوا خيامهم فيها، وكانوا لا ينادونه إلا باسم بهزاد كما وصاهم، وبعث الأمير حمزة الذئب ليعرف لمن هذا الجيش؟ ولأي شيء جاء؟ فذهب إليه ورجع وقال: هذا جيش بهزاد ملك الظلمات، وقد جاء ليحاربك، فتذكروا قول الوزير بزرجمهر، فقال الأمير حمزة: وكيف يكون أشرف الملوك وليس هو من العرب؟!

فقال الوزير: لأن نسبه يتصل بنوح عليه السلام، وهو وجيشه مؤمنون وقد منحه الله التأييد والرعاية. فقال الأمير حمزة: ما داموا مؤمنين فلن نجرد في وجوههم سيفًا، ولكن إصراره على أخذ أموالنا وما ملكت أيدينا سيضطرنا إلى ذلك.

وظن الخوند أن بهزاد جاء لمعونته، وكان قد عرفه عياروه، فأمر الجنود أن تضرب خيامها بظاهر المدينة استعدادًا للقتال، ورأوا بعد هذا شرذمة من الفرسان قادمة من خلف المدينة، وضربت خيامها بين جيش الخوند وجيش بهزاد، فقال الأمير حمزة: عرفنا هذا الجيش للخوند، وهذا الجيش لبهزاد، ولكنا لم نعرف لمن هذا الجيش الصغير؟ وهل هو لنا أو علينا؟ فقال الذئب: سآتيك بخبره حالا. وانطلق إلى قائده وقال: إني رسول الأمير حمزة وقد بعثني لأعرف من أنت؟ وهل جئت له أو عليه؟ فقال: لست فارسًا ولكني بنت، وهؤلاء جميعهم بنات نلبس ملابس الفرسان، واسمي سرخابة، وأمي قاطر، وأبي يسمى الخوند في بلاده، وقد اتصل بنا خبر العرب وما هم عليه من الشجاعة والإقدام والنخوة والمروءة، فأحببنا أن نرى قتالهم مع الخوند ملك السبائل، وجئنا لنكون في حماية الأمير حمزة وتحت أمره. فقال لها: اطمئني فلن يجسر أحد أن يتعرض إليكن بسوء.

وشك بديع الزمان في هذا الجيش الصغير أيضًا، وعرف رسوله الحقيقة كما عرفها من قبل رسول الأمير حمزة، فوعدهن الحماية والصون والاطمئنان.

ولما رجع رسوله إليه عرض عليه أن يتزوج الفتاة القائدة فقال: ذلك ما سيكون ولنتركه إلى حينه، ثم كتب إلى أبيه يقول: باسم الله العزيز القدير الذي لا تخفى عليه خافية، والذي ينصر المظلوم، ويكبت الظالم ويشفي المريض، ويرد الغريب إلى وطنه.

من بهزاد ملك بلاد الظلمات إلى الأمير حمزة سيد الفرسان، لقد سمعت في بلادي أنك قد هدمت تخت كسرى، وغنمت كثيرًا من الأموال، وملكت اليقظان، وقد جئتك لأنزع منك جميع ما ملكت يمينك، فإذا أعطيتنيه رجعت دون أن أشهر سيفًا أو أريق دمًا، وإن أبيت فقد دفعت بنفسك إلى الذلة والهوان، ولا تغرنك كثرة الجنود، وما فيكم من شجاعة وجرأة وثبات، فإني بعون الله قادر على أن أفنيكم وحدي، وإني لا أضمر في نفسي لك إلا كل إجلال ورفعة، وأتمنى لك علو الكعب وسمو المنزلة، ولهذا أود أن تبعث إليّ بما طلبته منك، ولا ترغمني على قتالك والسلام.

وأخذ الملك بهران الكتاب ومضى به إلى حمزة لأنه أحب أن يرى العرب وأحوالهم. فلما قدم إليهم وقال: إني رسول بهزاد إلى الأمير حمزة، أخذوه إلى الملك سعد وناوله الكتاب، ثم أمر الملك أن يجلسوه ويكرموه وقرأ الكتاب على الحاضرين، فغضب الأمير حمزة وقال: لقد ظن حمزة كغيره من الفرسان، إن دون ما يطلبه قطع الرقاب، وستريه الأيام ما يجهله فقال الملك سعد: مهلا يا جدي، إن الملك بهزاد بلغنا في رسالته ما يريده، وهو ملك عظيم، ومن الواجب أن نكتب إليه بما نشاء كما كتب إلينا، ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء، فقال حمزة: اكتب ما شئت ولا تلن في القول، واطلب إليه أن الملتقى غدًا في ساحة القتال، فكتب إليه:

من الأمير حمزة فارس الحجاز، ورافع شأن العرب، ودين الحق، ومذل الجبابرة - إلى الملك بهزاد صاحب بلاد الظلمات.

لقد طلبت في رسالتك ما أحرزته وجمعته من الأموال والذخائر وقلت: إنك ما جئت من بلادك البعيدة إلا من أجلها، فكان عجبًا أن تجمع الجنود، وتلقى المتاعب من أجل مال عندك منه أضعاف مضاعفة، وهل من عظمة

الملوك أن يسوقهم الطمع إلى طلب ما في أيدي غيرهم وهم في غير حاجة إليه؟! كان ذلك موقفك من نفسك، وسترى غدًا في ساحة القتال موقفك مني والسلام.

ثم أخذ بهران الكتاب ورجع إلى بديع الزمان، فلما قرأ الكتاب التفت إلى الملوك وقال: لا تظنوا أني جئت بكم للقتال والحرب، فإني لن أريق دم واحد منكم ولا منهم، ولن ينزل ساحة القتال أحد غيري لأمر أردته في نفسي. فقالوا: افعل ما تشاء فنحن طوع يمينك.

أما حمزة فإنه قال بعد أن خرج بهران بكتابه: يخيل إليّ أن حربًا طاحنة ستقوم بيننا وبين الملك بهزاد، وقد رغبت في مبارزته، لأخفف وطأتها بقتله، فتنافس الأمراء في مبارزته، وكل منهم يطلبها لنفسه، وأن يكون أول من يبارز الملك بهزاد. وما سكتوا حتى أشار حمزة عليهم بالقرعة، ثم قال لعمر أخيه: اذهب إلى معسكر بهزاد وتبين أحوالهم، واعرف من بهزاد: أهو ينوي أن تكون الحرب حملة بالجنود، أم ينوي أن تكون مبارزة بين الفرسان؟ ثم ارجع إلينا لساعتك.

فانتظر عمر حتى مضى من الليل أكثره، ثم تنكر ودخل معسكر بهزاد وجعل يطوف هنا وهناك وهو في عجب من أنهم ينامون مطمئنين ؛ وليس بينهم من يحرسهم، وعلل لذلك بأنهم قوم لا يعرفون الغدر والخيانة، ويحسبون أن غيرهم من الناس مثلهم في ذلك، ثم ظهر فجأة رجل من خلفه وأمسكه ومضى به إلى الصوان، وعجب عمر أن كان هذا الرجل الملك بهزاد، وأنه عرفه وأنه يقوم هو بنفسه بالتجسس والحراسة وجنده ينامون مطمئنين، ثم قال الملك: ويل لك يا عمر! ظننت أن الملك بهزاد لا يعرف مكرك واحتيالك، فاقتحمت معسكره للتجسس، وربما أضمرت له الغدر؛ ولكني لن أعاملك بما تستحق، وسأسبغ عليك نعمتي حتى ترضى؛ فهل تقبل أن أعطيك ألف دينار على ألا تدخل معسكري متنكرًا، وألا تسطو عليّ ولا على أحد من أتباعي، أو أقتلك الساعة وأستريح منك؟ فإني أعرف أعمالك وحيلك، ثم ذكر له كثيرًا مما فعله، حتى ظن عمر أنه يحفظ تاريخ

حياته، وأنه ساحر، واستطاع بسحره أن يعرف عنه ذلك الشيء الكثير وهو في بلاد الظلمات البعيدة عن العرب بعدًا سحيقًا، ثم قال: وكيف لا أقبل منك تلك المنحة، وقد تبين لي أنك ملك كريم إذ رغبت في إخلاء سبيلي، ورددتني فضلا بالإنعام عليّ بهذا المال الجزيل، وإني أقسم ألا أسطو عليك ولا أضمر لك شرًا. فأعطاه ألف دينار، وألبسه ثوبًا من ثياب الكنز مرصعًا بالذهب، وأعتقه.

فرجع عمر مسرورًا وهو في عجب من حلمه وكرمه. ودخل على أخيه وقص عليه ما حصل، وذكر له أنه يعرف كل صغيرة وكبيرة فعلتها، وأنه منحه المال والثوب، ثم عاهده على ألا يسطو عليه ولا يضمر له شرًا.

فقال الأمير حمزة: يبدو لي أنه كريم النفس نقي الطوية لا يحمل شرًا لأحد، فلا تطرق معسكره بعد ذلك، فإني لا أحب أن يكون أكرم منا ولا أكثر وفاء.

وأرسل بديع الزمان إلى أبيه يقول: إن أبغض الأشياء عندي أن تراق الدماء وتقتل الأنفس، ولا أحب أن يقتل أحد منكم ومنا، ولهذا فقد رأيت أن يكون القتال بيننا وبينكم مبارزة، وموعدي معكم صبيحة الغد فاقترع الأمراء وبات من يبارز بهزاد غدًا عارفًا نفسه.

ولما جاء الغد بدأت المبارزة واستمرت إلى الزوال عنيفة الكفاح ثقيلة الوطأة، وأسر بديع الزمان من بارزه – وكانوا ثلاثة من الفرسان أحدهم بعد الآخر، ثم رجع إلى صوانه، وجلس على كرسيه ومن حوله ملوك بلاد الظلمات، وكانوا بنصره فرحين. فقال: عليّ بالأسرى فلما حضروا بين يديه أمر أن تفك قيودهم، وأن يجلسوا ويطعموا، ثم ألبس كلا منهم ثوبًا من ثياب الكنز وقال لهم: أريد أن تحلفوا لي أنكم لا تقاتلونني ولا تبارزوني مرة ثانية: فحلفوا له، ثم أخلى سبيلهم، وأمرهم أن يرجعوا إلى معسكرهم. فودعوه وانصرفوا وهم في عجب مما فعل بهم. وهناك قصوا على الأمير حمزة والأمراء ما فعله، فاندهشوا وحاروا ولم يعرفوا غرضه من ذلك العمل ولا ما يريده.

وفي اليوم الثاني برز بديع الزمان إلى الساحة، فبرز إليه قاسم بن رستم دون أن يجيء دوره، ولما دنا منه جعل يسبه ويشتمه، فقال له بديع الزمان: من أنت؟! وإلى من تنسب من العرب؟! فإني أراك سفيهًا شاذ اللسان كأن بك مسًا من الجنون.

فقال قاسم: وماذا يعنيك من معرفتي؟ أنا الذي سأقتلك وأجعل منك عبرة، ثم زاد في سبه وشتمه وحمل عليه بسيفه فتلقاه بديع الزمان بثباته وجرأته، وأخذ يجالده حتى أرهقه، ثم اقتلعه من سرج جواده ومضى به إلى جماعته، فأخذوه منه وقيدوه.

ولما جلس واستراح أمر أن يحضر إليه. فلما حضر أمر الخدم أن يضربوه ثلاثين جلدة، فضربوه وأوجعوه، ثم أمر أن يفك قيده، وقال لبهران: خذ هذا وامض به إلى حمزة وقل له: أليس عندكم فرسان عقلاء حتى ترسلوا إلى الملك بهزاد المجانين، لولا أنه ابن رستم بن حمزة لقتلته، لأنه قذر اللسان خبيث النية؛ يجهل نفسه، ويعتدي على أقدار غيره. فذهب بهران به إلى أبيه، وكان في غيظ أليم من قاسم لأنه خرج للمبارزة دون استئذان، فلما بلغه رسالة بهزاد زاد غضبه، والتفت إلى ابنه وقال: ليته قتلك! فقد أخزيتنا وحططت من قدرنا، وهنيئًا لك ثوب الجلد الذي منحك إياه، فقال قاسم: والله يا أبي لولا جواده الذي يركبه لقتلته، والأيام بيني وبينه، وسوف ترون ما أفعله به. فضحك الأمير وجماعته وقال: شفاك الله يا بني.

انفض مجلس العرب وذهب كل إلى صوانه، وبعد قليل ذهب قاسم إلى عمر العيار ورجا منه أن يسرق جواد الملك بهزاد، فقال: ذلك محال، لأني أقسمت له ألا أسطو عليه، فقال قاسم: ولن تحنث في يمينك لأنك ستسطو على جواده لا على الملك، فاسرق الجواد دون أن تمسه أو أحدًا من رجاله بسوء، وما زال قاسم يتذلل ويرجو حتى وعده.

لم يخرج بديع الزمان للمبارزة بعد هذين اليومين، وشغله التفكير في زواجه من سرخانة بنت قاطر، لأن بهران لا ينفك يلح عليه ويرغبه فيها، فعزم على أن يذهب إلى صوانها بالليل خفية ليراها دون أن تشعر به، حتى

إذا راقت في عينه، واطمأنت إليها نفسه تزوجها، ولما جاء الليل وهجع الناس وساد السكون انفلت وحده إلى معسكر سرخانة، فوجد البنات جميعهن غارقات في نوم عميق آمن لا يقلقه خوف من أحد، وعرف صوان سرخانة من بين الصواوين فدخله يسترق الخطا حتى كان أمام سريرها، فمد يده ورفع غطاء السرير، فوجدها نائمة وعليها سترة تغطيها ما عدا وجهها ويديها، فأعجبه جمالها، وأرخى غطاء السرير وهم أن يرجع فرأى أفعى تمشي على عمود السرير، فأسرع إلى خنجره وغرز نصله في جسمها، فنفذ منه إلى عمود السرير وسكن فيه، فتركه ممسكًا الأفعى وخرج. ومشى حتى وصل إلى صوانه ونام وهو موقن أنها ستقوم في الصباح وتجد الأفعى ميتة، والخنجر مغروزًا في عمود سريرها، فتعرف أن أحدًا فعل هذا وهي نائمة، وتحاول البحث عنه لتشكره.

استيقظت سرخانة في الصباح ونزلت عن سريرها، وحانت منها التفاتة فرأت الأفعى ميتة وهي مدلاة على العمود والخنجر يمسكها، فنزعت الخنجر وسقطت الأفعى على الأرض وقالت: لقد دخل صواني الليلة رجل قتل الأفعى وهذا خنجره، ولكنه لم يمسسني ولم يوقظني، ولا بد أن يكون سيدًا من سادات العرب، لأنه عف كريم ولأن الخنجر مرصع بالذهب، وليس في معسكري خنجر مثله. وقد أراد أن يخفي عني نفسه، ولكني لا بد أن أعرفه، وكتبت إلى الأمير حمزة بالحادثة وطلبت إليه أن يرسل إليها ذلك الرجل النبيل الذي قتل الأفعي لتكافئه، وأن يكون معه قراب الخنجر الذي تركه، فلما قرأ الأمير كتاب سرخانة، أخفى قاسم خنجره وأبدى قرابه فارغًا وقال: أنا الذي قتلت الأفعى، وهذا قرابي فارغ من خنجره، فاغتاظ جده في نفسه وقال له: اذهب إليها لتكافئك..

لبس قاسم أحسن ما عنده، وتطيب ومضى إلى معسكر البنات، وكان لقاؤهن له حميدًا، ولما جلس في صوان سرخانة وأكرمته سألته فقال: قاسم بن رستم بن حمزة البهلوان، فقالت: وهل أنت الذي قتلت الأفعى ونجيتني من الموت وأنا نائمة ولم ترد أن توقظني؟ فقال: نعم فعلت ذلك وأنت نائمة.

فقالت: ضع هذا الخنجر الذي تركته في قرابه أمامي، فأخذه منها وحاول أن يدخله القراب فلم يستطع. فقالت: أعطني الخنجر يا قاسم، فناولها إياه، ثم قالت: ارجع إلى جدك فما أنت بصاحب المعروف. فقال: إني صاحبه. فقالت سأنظر في أمرك وقتًا آخر. ومع السلامة. فخرج مغتاظًا وقال في نفسه: لا بد أن أقنعها أني صاحب المعروف، ثم كتبت إلى الأمير كتابًا تلومه، لأن ابنه كذب عليها وادعى لنفسه ما ليس له يد فيه، فزاد غيظه من قاسم، ولما جاءه أخذ يعنفه ويوبخه، وقاسم لا يزال مصرًا على أنه صاحب المعروف، ثم كتب الأمير إليها معتذرًا.

عرفت سرخانة أن الذي جاءها ليس من رجال الأمير حمزة، فظنت أنه من رجال الملك بهزاد، وكتبت إليه فقصت القصة، وطلبت أن يأتيها الرجل الذي قتل الأفعى، ومعه قراب خنجره الذي تركه. فلما قرأ الملك بهزاد الكتاب أحضر إليه بهران وأطلعه على ما حصل وقال له: خذ قراب الخنجر معك، وعرفها أني صاحب هذا المعروف، ثم ائتني بخنجري، فلما وصل إليها بهران أكرمت لقاءه، وظنت أنه صاحب الحادثة فقالت: أأنت الذي قتلت الأفعى؟ فقال: لا ياسيدتي، إن الذي قتلها سيدي بهزاد ملك بلاد الظلمات، وقد جاء لزيارتك فوجدك نائمة، ولم يشأ أن يوقظك، ورأى الأفعى تنساب على عمود السرير فقتلها بخنجره وتركه مغروزًا في العمود والأفعى.

فقالت: إنه رجل ذو عفة ومروءة ونخوة ونفس كريمة، وأين قراب الخنجر؟ فقال: ها هوذا. وناولها إياه، فوضعت الخنجر فيه فوجدته قرابه الذي صنع له، فقالت: ما صنع هذا القراب إلا لهذا الخنجر، فشكرًا لسيدك، ولولاه لكنت الآن جثة هامدة فماذا أكافئه؟ فقال: إنه في غير حاجة إلى المال والجواهر، وهو الآن أعظم ملك وأكرم رجل، فماذا تكافئينه يا سرخانة؟ ألا تجدين لديك مكافأة تليق به وهو جدير بها؟ فقالت: لا أجد شيئًا لأنه فوق ما أجد، وأعظم مما أجد.

فقال: ولكني أجد شيئًا يسرك ويسره ويرضيك ويرضيه. فقالت: دلني

عليه حتى أفعله ولك مني الشكر الجزيل، فقال: إنه بين جوانح صدرك وعلى لسانك. فقالت: أبن عما تريد فإني فاعلته ما دمت قادرة عليه، فقال: لن يقدر عليه غيرك. فقالت: قد فعلته فأبن لي عنه. فقال: أن تكوني له زوجة.

فابتسمت وأشرق وجهها وقالت: رضيت به. فقال: سأعرض عليه الأمر وأرجو أن أعود إليك بالبشرى، ثم ودعها بهران وأخذ الخنجر في قرابه وانصرف إلى الملك بهزاد، وقص عليه الحديث برمته، فقال لبهران: لا مانع لدي من الزواج منها، ولا أن يتزوج الفرسان من يريدون من البنات اللائي معها، فعليك أن تتصل بها وتتفقا على موعد العقد، وعلى أن يتخير الفرسان زوجاتهم من بناتها.

فرجع بهران إليها وبشرها بما رغبت وتمنت، وعرض عليها زواج الفرسان من البنات فقالت: ذلك ما أتمناه. واتفقت على أن يكون موعد الزواج بعد ثلاثة أيام، كما رضيت أن يدخلن في دين الإيمان بعد ما تبين لها مما وجدت أنه الحق. ثم رجع بهران يحمل للملك منها كثيرًا من الهدايا وأخبره بما حصل. فقال بديع الزمان: اذهب الآن إلى الأمير حمزة وقل له: إن الملك بهزاد قد عزم على أن يتزوج سرخانة كما سيتزوج الفرسان من جيشه جميع البنات اللائي معها، لأنهن دخلن في دين الإيمان، فابعث إليه الوزير بزرجمهر ليتولى عقد الزواج.

فذهب بهران ودخل مجلس العرب وبلغ الأمير الرسالة فقال: وكيف أبعث وزيري لعدو يحاربني ويروم أخذ أموالي؟! إن هذا الملك أوقعني في حيرة من أمره، فهو مصر على أخذ أموالي، ثم هو يأسر فرساني ويردهم إلينا، وقد أنعم عليهم وأكرمهم، ثم يمنع القتال إلا أن يكون مبارزة ! فلست أدري! أهذا الملك عدو لي أم صديق! فارجع إليه وبلغه أني لست راضيًا بإرسال الوزير.

فقال الملك سعد: وكيف تمنع القاضي أن يؤدي عملا دينيًا؟! أليس ذلك يغضب الله؟! وقد علمت أن بهزاد ملك عاقل حكيم يحب الناس ويكره أن تراق دماؤهم، فما علينا إن أرسلنا الوزير، والحال بيننا وبينه كما هو حتى

يقضي الله فيه أمره؟! فمن العدل والمروءة أن ترسله. فقال الأمير: الأمر للوزير، فإن رضى أن يذهب إليه فلا مانع عندي، فقال بزرجمهر: وكيف لا أرضى وهذا عمل ديني يرضى عنه الله، وفيه تمكين لدين الإيمان في نفوس جمع من البنات لا يستهان بشأنهن؟ إن امتناعي عن المضي إليه لا جزاء له إلا نار جهنم، لأنه قد يكون سببًا في ترك الإيمان وعودتهن إلى كفرهن ودينهن، فإني ذاهب إليه إذا أمرتني. فقال الأمير: الحق معك، وقد كنت مخطئًا، فاذهب مصحوبًا برعاية الله وتوفيقه.

سار الوزير وبهران إلى معسكر بهزاد واستقبله هو والملوك، ورجال ديوانه وأقام فيهم عزيزًا مكرمًا، وفي اليوم الموعود ذهب بهزاد والوزير وملوك الظلمات إلى معسكر البنات فوجد الأرض مفروشة بالأزهار وصوان العروس مكلل بالورود وأنواع الزهر. وجلسوا فيه، وهي جالسة في ناحية منه، ومن حولها جواريها وبعض بناتها، وسألها الوزير: هل رضيت بالزواج من الملك بهزاد، فأشارت برأسها إشارة القبول، وأبرم الوزير العقد، وشربوا شرابه.

وبعد ذلك سأل بهزاد زوجته أن تذهب البنات إلى معسكره ليختار كل فارس منهن من تعجبه فيتزوجها. فأمرت في الحال أن تنقل الخيام إلى معسكر زوجها الملك بهزاد، وما مضى غير قليل حتى كانت خيامهن مضروبة هناك، وكن قد لبسن ثياب النساء، وخلعن ثياب الفرسان؛ وما مضى أكثر من يومين حتى اختار كل فارس زوجته، وأبرم الوزير عقدها، وأقيمت الولائم وعمت الأفراح.

***

وفي تلك الأثناء تسلل عمر العيار وسرق جواد بهزاد وأسلمه إلى قاسم ففرح وعزم على أن يبارزه على هذا الجواد ويقتله، وفي صبيحة اليوم الذي سرق الجواد في ليلته دخل الخادم على بهزاد وقال: ذهبت اليوم لأطعم الجواد فما وجدته. فأدرك بديع الزمان أن عمر العيار سرقه، فأمر في الحال أن تدق

طبول المبارزة والكفاح، وركب جوادًا غيره وانطلق به يجري إلى الميدان. فبرز إليه قاسم بن رستم على جواده الذي سرقه عمر، فلما رآه بديع حزن ونوى أن يقتل الجواد من تحته، حتى يفجع قاسمًا فيه، ويحط من شأن سرقته، ثم جال بهزاد بقاسم جولات وطعن الجواد برمحه، فسقط قتيلا وأسرع إلى قاسم فهجم عليه وأمسكه وكتفه إلى معسكره، وقال: يكفيني اليوم هذا الأسير. وأمر أن يضرب بالسياط حتى يسيل دمه. فجعلوا يضربونه حتى أشفق هو عليه، وأمرهم أن يكفوا عن ضربه، وأن يأخذه بهران إلى حمزة ويقول له: صعب علينا ضربه، ولكن قذارة لسانه وضعف عقله وخبث نفسه ساقته إلى ما نزل به، فامنعه من المبارزة، وإن لم يكن عندك فرسان غيره فأعطنا ما عندك من الأموال والذخائر، وبذلك يكون السلام.

وصل بهران إلى حمزة ومعه قاسم وبلغه ما قاله بهزاد، فقال الأمير: أما الأموال والذخائر فدونها ضرب الرقاب، وأما الفرسان فعندنا منهم من يبارزون مردة الجان، وأما قاسم فإنه برز إليه دون علمنا وساعده على ذلك عمر العيار الذي سرق له الجواد، وأخجلنا من سيدك الذي ما رأينا منه إلا الخير، فقد أطلق الأسرى ومنحهم الثياب الغالية؛ أما قاسم فقد منحه ثوبًا من دمه، وفي رأيي أنه يستحقه. ثم التفت إلى قاسم وقال: وإن برزت إليه مرة أخرى قتلك. وليتني قيدتك وشددتك بالأوتاد كما تشد الجمال. فسكت قاسم ولم يتكلم.

❊❊❊

﴿ ٩ ﴾

وجاء دور الأمير حمزة ونزل إلى الميدان ليبارز ابنه بديع الزمان وهو لا يعرفه، ولكن يعرف أنه يبارز الملك بهزاد، فلما التقيا وأراد الأمير أن يحمل عليه قال له: إن قلبي يميل إليك ميلا فيه الحنان والرحمة، ولا أعرف لذلك سببًا، ولهذا فإني غير راغب في مبارزتك خشية أن أجرح قلبي بإيذائك، وهذه أول حالة أجدها في نفسي عند لقاء الأبطال والخصوم؛ فإذا شئت الصلح أرحت ذلك القلب الذي أحمله في صدري، ويحمل لك حنانًا كحنان الوالد، وعطفًا كعطف الأبوة؛ وما قلت ذلك عن عجز أو خوف، فربما سمعت عني ما لا يدع في نفسك مجالا للشك في قولي. فقال بديع الزمان: إني أعلم أن حنو الوالد لا يموت، وإن نظرة من الوالد إلى ولده جديرة بأن تنبه خامده، وتسعر لهيبه، كما أعلم أن قلوب الناس تتجاوب حبًا وكرها، وقربًا وبعدًا؛ ولهذا فإني أحس من قلبي ميلا إليك وعطفًا، وغاية الأمر في نفسي أن تعطيني ما ملكت من أموال وذخائر فإن أعطيتنيها قويت ما بيني وبينك من محبة وسلام.

فقال الأمير: أما الأموال والذخائر فقد أعلنت فيها رأيي وعرفه الصغير والكبير من قومي، والرجوع فيه لغير سبب لا يليق بكرامة عربي مثلي، وأما تركك إياها وتنازلك عن طلبها فلا شائبة فيه، وربما كان ذلك مرجعه إلى نبل في نفسك ومحبة للسلام تزيدها منزلتك، ولست أدري غرضًا تنشده بطلبها حتى يكون لك عذرك. فقال: هكذا أردت ولا بد مما أردت.

فقال حمزة: السيف أمضى منك حكمًا. ثم حمل كل منهما على الآخر حملات لا ينتظر منها المشاهدون من الجمعين إلا الموت الأحمر؛ ولما جاء الزوال رغب كل منهما أن يرجئا المبارزة إلى الغد رحمة بالجوادين، وأراد حمزة العودة فناداه ابنه وقال: قف يا حمزة، فوقف ينتظر ما يريده، ثم نزل بهزاد عن

جواده وأمسك بلجام جواد حمزة وقال: إنك كريم وابن كريم ولا إخالك إلا مستجيبًا لسؤالي فقال: قل ما شئت ولك ما تريد، فقال: أريد أن تزورني في صواني وتأكل من طعامي، فليس بيننا دم يطلبه أحدنا، ويمنع زيارتك لي.

فزاد عجب الأمير من بهزاد وأمره معه، فهو شديد الإصرار على المبارزة، وفي الوقت نفسه حريص على الأخذ بأسباب الوفاق والمودة. فقال حمزة: إن من عادة العرب إذا أكل أحد طعام الآخر حرم عليه قتاله، فقال: أعلم ذلك ولكنه بين الأعداء، ونحن لا عداوة بيننا، وغاية ما أبغيه من المبارزة أن تستولي على ما أملك إن غلبتني، وأستولي على ما تملك إن غلبتك وحرام عليّ أن أريق قطرة من دمك.

فقال حمزة: أزورك على شرط أن تزورني في الغد، فقال: أزورك وأرافقك إلى حيث شئت، فنزل عن جواده وأشار إلى فرسانه وجنده أن يرجعوا، ثم سار هو وبهزاد إلى صوانه، وكان الملك والأمراء صفوفًا يستقبلونه؛ ولما دخل الصوان أدهشه، وفاق في نظره صوان كسرى وغيره من ملوك الأرض.

ثم جلسوا وأعدت المائدة فطعموا وشربوا، ولبث معهم إلى أن مضى من الليل جزء غير قصير، وأحب العودة إلى معسكره، فقال بديع الزمان: لا ينبغي أن ترجع في هذا الوقت من الليل، وستنام آمنًا مستريحًا في صوان خاص حتى الصباح، ثم تعود إلى قومك غدًا، فقد جعلته يوم راحة لامبارزة فيه.

فقال حمزة: إن أردت أن أبيت عندك الليلة، فلتسر معي إلى زيارتي على أن تقضي عندنا النهار كله، ويكون معك هؤلاء الملوك الكرام.

فقال: سأقضي عندك النهار كله، وما شئت غيره، ولكنك كما زرتني وحدك فسأزورك وحدي فسكت الأمير ونام الليلة عند بهزاد وهو لا يزال تائه الفكر لا يعرف لبهزاد غاية ولا هدفا.

واجتمعوا في الصباح في صوان بهزاد وأكلوا وشربوا، ثم صحب بهزاد الأمير ومضيا إلى معسكر العرب، وظنوهما قد اصطلحا فاستقبلوهما فرحين؛ وكان حمزة قد حرم الجلوس على كرسي بديع حتى يحضر، فلما دخلوا

الصوان وجلسوا كان جلوس بهزاد على كرسي بديع الزمان، فتذكر حمزة ابنه وبكى، واغرورقت عينا بديع الزمان لبكائه وقال: ما يبكيك أيها الأمير، وما حصل شيء يدعو إلى البكاء؟! فحكى له قصة ابنه بديع الزمان، وقال: إن جلوسك على كرسيه الذي حرمت الجلوس عليه ذكرني وأثار الحنان إليه فبكيت، فقال بهزاد: اصبر وسيعود إليك قريبا، وما جلوسي على كرسيه إلا فأل حسن، فلم يجد الأمير إلا أن يسكت ويصبر، ثم قضوا يومًا في هناءة ومسرة، وودعهم آخر النهار على أن تكون المبارزة غدًا.

وفي الصباح التقيا في الميدان فقال بهزاد: أرى أن نترك الجلاد بالسلاح، وأن نجعل المصارعة بالأيدي فليس الغرض منها إلا أن يعرف كل منا مبلغ الآخر من القوة والشجاعة.

فقال حمزة: كما تريد يا بهزاد، ونزل كل منهما عن جواده وتصارعا بالأيدي مصارعة حادة دامت ساعتين، ثم أمسك بديع الزمان حمزة وكاد يلقيه على الأرض، ولكنه لم يرد ذلك وقال: مهلا يا أبي! فإن الذي أمامك ابنك بديع الزمان - وكان ملثما فنزع اللثام عن وجهه ورأسه - فانكفأ حمزة على ابنه وجعل يقبله، وصاح ملوك بلاد الظلمات: بديع الزمان... بديع الزمان.. فانهال الجمعان عليهما يهنئونهما وهم في فرح عظيم. ثم أخذوا بديع الزمان إلى معسكر العرب، وكلهم مشرق الوجه باسم الثغر فرحًا ببديع الزمان ما عدا قاسم بن رستم فإنه كان في غم وهم عظيمين، وأمر بديع أن ينضم معسكره إلى معسكر العرب ففعلوا.

كان الخوند ينتظر ما يكون بين حمزة وبهزاد، فلما عرف أن بهزاد هو بديع الزمان بن حمزة خاف وفزع وأمر أن تدخل الجنود المدينة فدخلوا وأغلقاها عليهم في انتظار الفرج.

وسأل حمزة ابنه عما جرى له في غيبته فحكى له كل شيء، كما حكى حمزة كل شيء جرى له وللعرب في غيبته.

***

حمزة يهم بتقبيل ابنه بديع الزمان

﴿ ١٠ ﴾

وبينما هم جالسون دخل عليهم عمر العيار يتصبب جبينه عرقًا وقال: كنت أمشي في الخلاء فرأيت غبارًا كاد يبلغ السحاب فأسرعت إليه ووجدت تحته فرسانًا كالجراد المنتشر، وأمامهم فارس طويل القامة يحمل ساطورًا على كتفه طوله خمسة عشر ذراعًا، ، ومن ورائه قومه يحملون أسلحة مختلفة كالفأس والمنجل، وسألت عنه فقيل: إنه طهماز أبو الساطور من بلاد الكلبة وقد جاء ليساعد الخوند، فتركتهم وأسرعت إليكم لأخبركم. فقال حمزة: تلك فرصة لفتح أبواب المدينة وخروج الخوند منها، وعسى الله أن يعيننا على دخولها بعد فتحها.

وصل طهماز أبو الساطور وجنوده وضربوا خيامهم أمام المدينة، وعجب العرب أن وجدوا أجسامهم نصفها حيوان ونصفها إنسان؛ وعلم الخوند بقدوم طهماز لمعونته، فخرج من المدينة وضرب خيامه في مكانها وجلس بينهم في صوانه، فجاءه طهماز وقبل أقدامه وقال: لقد حلمت كثيرًا على العرب، وكان عليك أن تخبرني لأجيء إليهم وأفنيهم، فقال: حلمت عليهم كثيرًا طمعًا في أن يؤمنوا بي ويعبدوني، فلما وجدتهم عصوا ألهمتك أن تجيء لتبيدهم. فقال طهماز: شعرت بإلهامك، وأريد الآن أن تمنحني القوة وتحفظني من كل نكبة حتى أنتهي من العرب والقضاء عليهم. فقال بختكان ابن بختك – وكان حاضرًا –: اعلم يا طهماز أن بين العرب فرسانًا يحاربون الجن، فإذا تركتهم دون أن تقضي عليهم قتلوا كثيرًا من جندك، ولكنك إن عجلت بقتلهم هان عليك أمر العرب فقال: سأبرز إليهم وأقتلهم، وإذا امتنعوا عن المبارزة حملت عليهم حملة واحدة وأهلكتهم.

وجاء الصباح ودقت طبول الحرب، وانطلق طهماز إلى الميدان على جواد ضخم وفي يده الساطور، ونادي من يبارزه من العرب، فبرز إليه الأمير

رستم بن حمزة، وناضله نضالا أرهق طهماز وأتعبه، ولبث زمنًا طويلا وهو يحاول أن يضربه بذلك الساطور الذي يبلغ طوله خمسة عشر ذراعًا، ثم لاحت له فرصة وضرب رستم بساطوره فشقه وسقط قتيلا؛ وثارت ثائرة حمزة والعرب فهجموا على طهماز، وهجم قوم طهماز عليهم ليدافعوا عنه، وكانت معركة وجد فيها قوم طهماز من الفتك والقتل ما لم يخطر على بالهم. ولولا شجاعة طهماز واعتمادهم على ساطوره، وأنه دخل المساء لفروا من وجه العرب مذعورين. وإن كانوا قد قتلوا من العرب كثيرًا، وحزن الأمير والعرب على رستم حزنًا أليما، وكانوا قد حملوه إليهم ودفنوه.

وجاء اليوم التالي وبرز طهماز إلى الميدان فخرج إليه بلكان الهطال، وفعل به ما فعله بأخيه فضربه بساطوره ضربة أردته قتيلا، وانهال إذ ذاك الجمعان وكانت معركة كأنها ثورة البركان، وكثر القتل في رجال طهماز حتى فزع، وجاء المساء وهم يئنون من هول ما وجدوا، ويأسفون على من قتل منهم، وباتوا إلى الصباح، وفي نية الأمير حمزة أن يبرز إلى طهماز ويعجل بقتله.

وأشرقت الشمس لتنظر ما يجرى بين الفريقين من ضروب الفتك والدمار، وبرز طهماز إلى الميدان وجاءه الأمير حمزة يحمل له الموت في صفحات سيفه، وتجاولا وتطاولا إلى الزوال، وأصاب الأمير حمزة ضربة من الساطور فجرحت رأسه وانكفأ على سرج جواده الذي أحس ذلك فانفلت إلى قومه، وتدفق العرب إذ ذاك تدفق السيل والتقى الجمعان وقامت حرب طاحنة كانت شديدة الوطأة على طهماز وجيشه، ثم انفصلا عند المساء، وكان جواد حمزة قد طار به في الخلاء حتى لا يكبو بفارسه في الزحام، وظن الخوند وبختكان وطهماز أنه قتل ففرحوا فرحًا عظيما ولكن كسرى قال لهم: لو دفن حمزة أمام عيني لرجع إلى الحياة وإني لا أصدق موته.

وفي اليوم التالي بدأت الحرب، وكان طهماز قد سبق إلى الميدان طالبًا من يبارزه فنزل إليه بديع الزمان، وبعد جلاد عنيف ضربه بالساطور فجرحه جرحًا بليغًا، وأراد أن يقضي عليه وإذا بفارس هجم عليه وصاح أمسك أيها الخائن فقد جاء حمزة البهلوان، ونزل عليه نزول الصاعقة، وأسرع العرب إلى

بديع الزمان وأخذوه إلى بزرجمهر ليعالجه، ورأى جيش طهماز أن ملكهم في خطر فهجموا ليخلصوه، وهجم العرب عليهم ليدفعوهم ويحموا أميرهم، ودارت الحرب دورتها العنيفة، ولكن الأمير حمزة كان قد أصاب طهماز، وألقاه عن جواده، فأسرع العرب وكتفوه وأخذوه أسيرًا؛ واستمرت المعركة على أشدها حتى دخل الليل، وافترق المتحاربون ورجعوا إلى خيامهم.

واجتمع مجلس العرب وهم ينتظرون أن يأمر الملك سعد بقتل طهماز للأخذ بثأر بلكان الهطال ورستم، وأمر حمزة عمر أخاه أن يأتيهم بطهماز فجاءهم به مقيدًا بالأغلال والقيود يقوده الذئب بن عمر كما يقود البعير، فقال له الأمير: حان موتك والانتقام منك، وأن أثأر لأبنائي الذين قتلتهم.

فقال طهماز: لا أصدق أن الأمير حمزة يقتلني، لأنه يأنف الغدر ويعف عن الخيانة، ويحب الإنصاف والعدالة، وإذا كنت أنا قتلت أولادك، فإني قتلتهم في ساحة القتال، وما في ذلك غدر ولا خيانة ولا ظلم. ولكنك أنت إن قتلتني الآن، كان قتلك لي ظلمًا وغدرًا إذ جئتني وأنا أبارز بديع الزمان وضربتني غدرًا، فإن كنت تريد العدل فبارزني في الميدان ودمي حل لك إن غلبتني، لأنك لا تكون إذ ذاك ظالمًا ولا غادرًا، فتأثر الأمير حمزة بهذا القول، وأمر أن يعتق من أسره، وأن يعطى ساطوره، ويذهب إلى قومه؛ وثارت ثائرة الأمراء إذ ذاك إنكارًا لما فعل الأمير حمزة، ولكنه لم يحفل بثورتهم وأصر على إطلاق سراحه، وأخلى سبيله، ورجع طهماز إلى قومه.

***

كان بزرجمهر لا يزال يعالج بديع الزمان، وقال لهم: إن جرحه وإن كان بليغًا فإن الأمل في شفائه قريب، وقال عمر العيار لحمزة: إنك جرحت في رأسك جرحًا أبلغ من هذا ورجعت إلى الميدان ثاني يوم وكأنك لم تصب بشيء، فكيف شفيت من جرحك؟ فقال: لقد ذكرتني، وإن الذي عالجني سيعالج ابني بديع الزمان ليرجع إلى حالته وعافيته في أسرع وقت وأقصره، فقال: ومن عالجك؟ وفي أي مكان؟ فقال الأمير حمزة: طار بي جوادي إلى

الخلاء، ووقف بي عند سفح الجبل، وهناك شعرت بالألم قد اشتد، فألقيت نفسي على الأرض وكنت إذ ذاك في يأس من الحياة، ورأيت إذ ذاك غلامًا أمرد عليه لثام رقيق خارجًا من مغارة في الجبل، فأسرع إليّ وكان كأنه يعرفني، فسألني: كيف جئت إلى هذا المكان؟ فلم أستطع النطق، وأشرت بيدي إلى رأسي، فنظر إلى الجرح وقال: إن دواءك عندي، ثم أسرع إلى المغارة ورجع ومن خلفه شيخ كبير ذو لحية بيضاء ناصعة، فحملاني وأدخلاني المغارة، وجعل الشيخ يأتي بدواء من هذه الزجاجة، ودواء من هذه، وخلط الأدوية وألف منها مرهمًا وضعه على جرحي، فشعرت بالراحة التامة، وأخذني نوم عميق استيقظت منه فلم أجد الجرح ولا أثره، وكأني لم أصب بشيء، ومن عجب أني حين استيقظت وجدت الغلام نائمًا بجانبي على فراشي، ولما استيقظ سألني: أأنت حمزة العرب؟ فقلت: نعم أنا حمزة العرب، ومن أين عرفتني؟ فقال: أتذكر أني رأيتك في المدائن حين كنت تريد الزواج من مهردكار، فزاد عجبي، لأن هيئة الغلام تدل أنه ولد بعد أن كنت في المدائن بمدة طويلة وسنوات عديدة، فكيف رآني قبل أن يولد؟! ولكني لم أرد أن أجادله وأعترض على قوله، وشكرته على ما أنعم عليّ به من العلاج، فقال: إن الذي فعلته معك واجب لا يمكن أن أتخلى عنه، فإني حين رأيتك عرفتك فأحضرت أبي وهو كبير الأطباء فداواك حتى شفيت بإذن الله، وأحب الآن أن أسألك عن زوجتك مهردكار هل لا تزال تنعم بالحياة.

قال حمزة: فاغرورقت عيناي بالدموع وقلت للغلام: لا تذكرني بأيام سعادتي، فقد غربت منذ فارقتني مهردكار، فوا أسفاه على جمالها وأدبها وعقلها وحزمها وحكمتها، ومن الغريب أني كنت أتكلم والغلام يبكي كأنه شريكي في الحزن والألم على فقد مهردكار، ثم قلت للغلام: إنك في رأيي لم تبلغ العشرين سنة وقد تركتها منذ مدة تزيد عن العشرين بكثير، فكيف رأيتني في المدائن قبل أن تولد؟

فقال: لا تسأل عن ذلك الآن وسأحدثك به في وقت آخر، وإن حديثي غريب ويهمك أن تعرفه، وسألزم صحبتك من الآن ولن أفارقك مدى

الحياة، ولكني أحب أن تذكر أمرك، وكيف جرحت وأتيت إلى هذا المكان؟

قال حمزة: فحكيت له قصتي في إيجاز، وقلت هلم بنا إلى المعسكر فإني في خوف على فرساني فاستشار الغلام والده في أن يذهب معي، فقال: لا تذهب معه، وإن الأمير يأتينا في مكاننا هذا، ونحن مقيمون فيه، وسننتظره حتى يجيئنا لنذهب معه في غير هذه المرة، فتركتهما وجئت مسرعًا، فوجدت طهماز قد جرح بديع الزمان، فدلفت إليه وحصل ما كان. فهيا بنا الآن، لنأخذ بديع الزمان ونمضي به إلى ذلك الغلام ليعالجه الشيخ كما عالجني.

حمل حمزة وعمر أخوه بديع الزمان ومضيا به إلى الشيخ في مغارته فدخلا عليه فوجداه قائمًا يصلي، فانتظرا حتى فرغ من صلاته، ثم سلما عليه، وكان الغلام نائمًا، فلما أحس قدومهما استيقظ وسلم عليهما وقال الشيخ: ما الذي جاء بك في هذا الوقت؟ فحكى له قصة ابنه بديع الزمان وجرحه وقال: وقد جئتك الآن به لعلاجه وجزاؤك عند الله، فقال الغلام: ومن بديع الزمان هذا؟ فقال حمزة: إنه ابني من سلوى، وهو فارس لا نظير له، وليس لي الآن ولد غيره، فقال الغلام: وجب علينا أن نعالجه ليشفى بإذن الله، لأنك تقاتل في سبيل الله ونشر دينه.

ثم تقدم الغلام إلى بديع الزمان وحل رباط جرحه وقال لأبيه: هلم يا أبي! فإن الجرح عميق، وتقدم الشيخ وغسل الجرح ووضع عليه المرهم وربطه، فأحس بديع الراحة التامة ونام، ثم جلسوا، وجعل حمزة يتحدث هو والغلام. أما عمر العيار فإنه حين رأى الغلام تذكر كلامًا كانت أسما بري قد قالته له، فسكت ولم يرد أن يظهر شيئًا، وفي آخر النهار أمر حمزة عمر العيار أن يذهب إلى المعسكر، ويعرف ما جرى للعرب هذا اليوم.

كان العرب قد نهضوا في الصباح وتأهبوا للقتال، وكان طهماز قد ذهب إلى الخوند يطلب منه البركة، فقال له الخوند: اذهب وقاتل فإني ناصرك على العرب، وإن وقعت في أيديهم أرسلت إليك ملائكتي لتنقذك منهم، كما ألهمت الأمير حمزة أن يطلق سراحك، مع أنك قتلت ولده وحفيده، فقبل طهماز يديه وانفلت إلى الميدان مناديًا من يبارزه من العرب، فلم يتقدم

إلى مبارزته إلا أندهوق، وطالت مدة المبارزة على عنفها وشدتها، إلى أن فر أندهوق من وجه طهماز خوفًا من ساطوره فجرى خلفه ليدركه ويميته، ولكنهم رأوا حينئذ في البرية رايات خفاقة وسيوفًا براقة، وفرسانًا تسرع في سيرها وتتقدم وأمامهم فارس أمرد، فانتظروا ماذا يكون من أمر هذا الجيش القادم، فلما كانوا عند ساحة القتال نادى ذلك الفارس الأمرد وصاح: أبشروا يا فرسان العرب فقد جاءكم نور الدين بن بديع الزمان بن حمزة البهلوان، ثم انفلت مسرعًا إلى طهماز وأطلق الرمح من يده فخرق صدره، ثم هوى عليه بسيفه وضربه فقطعه نصفين من وسطه، وسقط طهماز على الأرض جثة غارقة في دمها لا تبدي حراكًا، وخرجت روحه إلى بارئها، وسقاه نور الدين كأس منيته حامية عاجلة. ثم احتدم القتال بين جيوش طهماز والعرب وجيش نور الدين بن بديع الزمان، وكان كارثة حطت على رءوس الأعداء، ولما رأى الخوند وبختكان أن طهماز قد مات وأن القتل استمر بجيشه ورجاله، وأنه لا مفر لهم من سيوف العرب إن استمر القتال، انتهز فرصة الهدنة ليلا، وأمر جيشه ورجاله أن يدخلوا المدينة ويعتصموا بها، لتحميهم من الفناء الذي يرى طلائعه فى سيوف العرب، فدخلوها وأغلقوا عليهم أبوابها.

قضى حمزة يومه عند الشيخ في المغارة، ومعه بديع الزمان الذي قام الشيخ بعلاجه حتى شفى من جرحه، وجاءهما البريد فأخبرهما أن نور الدين ابن بديع الزمان أدرك جيش العرب في وقت شدته، وخاض معه المعركة وسقى الأعداء بسيفه موتًا زؤامًا. وقتل طهماز شر قتلة، وخشى الأعداء على أنفسهم فلاذوا بمدينتهم وأغلقوا عليهم أبوابها فقال حمزة: حمدًا لله وشكرًا، فقد جعل قتل طهماز بسيف أبنائي، ليعلم العرب أننا في الضيق والشدة، نكشف عنهم كربهم، ونكبت أعداءهم، وأننا آفة لكل من أرادهم بسوء.

واستأذن حمزة الشيخ أن يعود هو وابنه بديع الزمان إلى الجيش، وود لو رافقه الشيخ والغلام، فاعتذر الشيخ ووعده أن يأتيه هو والغلام بعد أيام، وقال: إني الآن في آخر حياتي، وربما قرب أجلي، وسآتيكم قريبًا لأترك عندكم

هذا الغلام وأوصيكم به، وأقص عليكم قصته، فرجع حمزة وبديع الزمان في صحة وعافية، وفرح العرب بهما، كما فرح بديع الزمان بلقاء ابنه نور الدين، وما فعله بالأعداء من الفتك وقتل طهماز، حتى أرغمهم على أن يلوذوا بالمدينة، وقرر حمزة أن يحاصروها ويضيقوا على أهلها حتى يأتي الله بالفرج.

كان حمزة مشغولا بالغلام الذي في المغارة مع الشيخ، حريصًا على إحضاره، فقال لعمر العيار: هيا بنا إلى المغارة لنحضر الغلام بأية وسيلة، فقال عمر: إن الشيخ وعدنا أن يجيئنا به خلال الأيام المقبلة، فلا حاجة بنا إلى أن نعجل بأمر لم يحن أوانه، فقال: لا بد من أن أذهب إليه الساعة، ونزل عمر على إرادته وذهب معه إلى المغارة ولكنهما لم يجدا فيها أحدًا فبحثا في مغارات الجبل هنا وهناك، ولكنهم لم يعثروا على أحد، فوقف حمزة في شبه ذهول واجمًا لا يتكلم ولا يتحرك. فقال عمر: ربما كان للشيخ أمر، فأخذ الغلام ومضى ليقضيه، فلنرجع، وقد وعدنا الشيخ بالمجيء إلينا ومعه الغلام، ولا إخاله إلا صادق الوعد وفيا. وإذا لم يف بوعده ولم يأتنا فإن الغلام غريب عنا، ولا يهمنا أمره، سواء أجاءنا أم لم يجئنا، فرجعا والأسى يملأ صدر حمزة.

كان عمر العيار قد عرف هذا الغلام حين رآه، وحين تذكر قول أسما برى: إن مهردكار لا تزال حية لم تمت، وثبت لديه أن مهردكار تلك التي مع الشيخ متنكرة في شكل الغلام، وأن ذلك الشيخ شفاها وأواها عنده، وأخفاها في صورة الغلام حتى لا يعرفها أحد.

كان قاسم بن رستم لا يزال يبغض بديع الزمان عمه، ولا يفتأ يجد ويسعى في كيده والغدر به، وكان لقاسم هذا بنت جميلة فتانة اسمها هند من زوجته بنت الخوند، ورآها نور الدين فأحبها حبًا جمًا ورغب في أن تكون له زوجة، وكانت هذه الرغبة فرصة سنحت لقاسم، وفتحت له باب الغدر بعمه بديع الزمان وأن يفجعه في ابنه نور الدين، فأظهر لنور الدين عطفه وحبه، وفرحه العظيم برغبته في الزواج من ابنته، ودعاه إلى بيته ووصى به زوجته وأخبرها أنه يحب ابنته حبًا جمًا وأنه يطلب يدها، وقل أن نجد فارسًا مثله، يكون لنا الفخر بمصاهرته وألح عليها أن تغلو في إكرامه والحفاوة به، وأن تريه أننا

نحبه، وأن له في نفوسنا منزلة سامية، ولم تكن الزوجة تعرف ما وراء هذه الوصية من غدر زوجها، وأنها حيلة لصيد نور الدين، وقتله، نكاية في أبيه بديع الزمان الذي لا يزال يكرهه، ولا يود أن يرى وجهه.

كان نور الدين يختلف إلى منزل قاسم فيجد من زوجته وابنته حفاوة بالغة وكرمًا فياضًا وإعزازًا كأنه إعزاز الأم لوحيدها الذي تحبه أكثر مما تحب نفسها، فغرق نور الدين في بحر من الهوى، وبرق له نجم الأمل في حياة زوجية سعيدة، وهو لا يدري ما يضمره له قاسم من الغدر والمكيدة.

وذات يوم قال له قاسم: بودي أن أراك في معركة لأفخر بشجاعتك وسيفك، فقال: إن الأعداء لاذوا بمدينتهم فوقف القتال، ولا ندري متى يبدأ، فقال: لنخرج إلى الخلاء ونجوس خلاله فعسي أن نعثر على جماعة من أعدائنا فنثيرها حربًا طاحنة تأكلهم ونغنم أسلابهم فقال: إني معك حيث تريد.

كان قاسم لا يبتغي من وراء قوله هذا إلا أن يلقي بنور الدين في التهلكة ويجعله لقمة سائغة للسيوف، ثم يعود من غيره، مظهرًا أسفه على فقده، دون أن توجه إليه أية تهمة، فخرج معه إلى الخلاء، وكان أن وجدا عصبة من الأعداء فأغراه بهم، ونزل نور الدين بساحتهم وجعل يجزهم بسيفه جزًا، وفي أثناء تلك المعركة دنا قاسم منه ورفع سيفه وضربه به، ولكن نور الدين كان شديد الحذر، فانحرف عن ضربة قاسم في سرعة ونجا منها، ورأى الأعداء والمعركة حامية خيلا قادمة في نشاط وسرعة، وما لبثوا أن وجدوهم قد خاضوا المعركة بسيوفهم فمزقوهم شر ممزق، وفروا من وجوههم مشردين، وكانت هذه الخيل لحمزة وابنه بديع الزمان وجماعة من الفرسان، وذلك أن عمر العيار ذا العين الخارقة رأى المعركة دائرة، وأيقن أنها من تدبير قاسم وكيده، فأخبر حمزة وبديع الزمان، وقال لهما أدركا نور الدين فلا إخاله إلا واقعًا في شبكة من كيد قاسم، وعرفهما أن المعركة قائمة في مكان كذا من الخلاء، فخفوا سراعًا إليه وعمر يقدمهم إلى مكان المعركة.

ولما خمدت المعركة وأدبر الأعداء هاربين قال نور الدين لقاسم: كيف

أقدمت على ضربي بسيفك؟!! فقال: وهل يضرب الأخ أخاه، أنسيت أنك زوج هند ابنتي، وأنك ابن عمي، وأن أفعالك المجيدة أنشودة الهناءة في أفواهنا، وأنك أملنا في الحياة؟!! إن كنت قد رأيت شيئًا مما تقول فلا بد أن يكون قد اختلط عليّ الأمر، واشتد بي الحرص عليك والدفاع عنك؛ فكنت أضرب بسيفي كالمصروع، وما تبينت أين يقع؟ والحمد لله الذي أكرمني بنجاتك ودفع عني فجيعة ينوء بها ظهري وتنسخ هناءتي. فصدقه نور الدين ولم يخالج نفسه شك أو ريبة.

سأل بديع الزمان ابنه: ما الذي جاء بك إلى هذا المكان، فحكى له ما قاله قاسم، فقال له: إن قاسمًا هذا يبغض أباك يا بني، ويتمنى له كل سوء، وقد احتال عليك وجاء بك إلى هذا المكان ليقتلك ويفجعني فيك، وقد رأيناه ونحن قادمون إليكم أنه ضربك بسيفه ولولا أنك حذر لكنت الآن من الهالكين، فحذار منه، ولا تأمن له، إنه ماكر غادر لا يحبك ولا يحب والدك، وما فتح صدره لك إلا ليصيدك ويأتيك من مأمنك.

أخفق قاسم في هذه المكيدة وباء بالفشل والخيبة، ففكر في مكيدة أخرى لعلها تسعفه وتحقق له أمله. انفرجت أمواج تفكيره الصاخبة عن حيلة اطمأن إليها، وأيقن أنها لنور الدين القاضية قال له ذات يوم: إني سعيد بمصاهرتك، فخور بأنك ستكون زوجًا لابنتي هند، وأنت تعلم أن جدك حمزة يحبك وهو حريص على أن يعجل بزفاف هند إليك، ووافق هذا أمنية في نفسي، ولكنك تعلم أن المهر مناط الفخر للزوجة، فهل يرضيك أن يكون مهر ابنتي وزوجتك من أيدي العرب يمدونك به معونة وكرمًا؟ فقال: ذلك لا يرضيني، ولن يكون مهر ابنتك إلا من كسب يدي، ونابعًا في ظلال سيفي، فاطلب ما شئت، وستجده حاضرًا وإن كان من بين أنياب الأسود، فقال: اذهب إلى أمها وشاورها في أمر المهر، فقد جعلته لها حتى أشبع رغبتها، وكان قاسم قد قال لزوجته من قبل: إذا جاءك نور الدين وسألك عن مهر ابنتك فقولي: إن أبي كان قد وعدني ألا يزوجني إلا ممن يحضر لي ثريا الجواهر من مدينة الدواليب، مدينة الملك كاروس، ولما لم يوفق إلى تحقيق ما

وعدني، جعلت مهر ابنتي هند ثريا الجواهر، فقالت له: كأنك تريد موت نور الدين وفجيعتنا فيه، ولا تحب أن يكون زوجًا لابنتك، فقال: لا تخافي على نور الدين، إن له قلبًا وسيفًا يحارب بهما الشياطين ولو كنت أرتاب في قدرته على إحضارها ما طلبتها منه ولا جعلتها مهرًا لابنتي، فاطمئني ولا تقنطي، وكانت لا تزال جاهلة ما في نفس زوجها وما بيته من الغدر بنور الدين والسعي في قتله فقالت: سمعًا وطاعة.

ولما جاءها نور الدين وسألها عن مهر ابنتها قالت له: إن أبي كان قد جعل مهري ثريا الجواهر، ولكن الأيام وحوادث الزمن لم تمكنه من تحقيق أمنيته، فرأيت من البر به أن أحقق ما كان يتمناه في ابنتي وحفيدته، وجعلت مهرها ثريا الجواهر، ويقول الناس: إنها في مدينة الدواليب، مدينة كاروس شاه. فقال لها: لك ما طلبت، وتركها وانصرف.

ذهب إلى أبيه بديع الزمان في مجلس جده حمزة، وأخبره بما دار من الحديث في المهر بينه وبين قاسم وزوجته، فقال أبوه: ما أراد بك إلا سوءًا، ووافقه حمزة وعمر العيار، فقال الأمير حمزة: سآتيك بها وأنت مستريح، فقال نور الدين: لن يكون ذلك، ولن يحضر المهر أحد غيري، فقال حمزة لوزيره: وأين مدينة الدواليب؟ فقال: مدينة للملك كاروس، بيننا وبينها مسيرة خمسة وعشرين يومًا في العراء الذي لا يخلو من مهالك ومخاوف، وهو يقيم فيها، وقد وضع الثريا في حصن حصين منها، وشدد في حراستها، لأنها من الجواهر وإذا أضاءت كانت كأنها الشمس الساطعة، فالتفت إلى نور الدين وقال: ما دمت مصرًا على أن تذهب أنت لإحضارها فليصحبك عمر ليكون عونًا لك في حلك وترحالك، فقال: ولن أصحب معي أحدًا، فقال عمر: إنك قادم على مدينة فيها سحرة مهرة، وقد لا تنجو من شرهم، أو يعجزك أمر الثريا فلا تستطيع الوصول إليها، فقال: لن يصحبني أحد، وأنا كفيل بإحضار الثريا وحدي، وإن خبئت في طوايا الأرض، أو أقيم بيني وبينها سد من الحرس المدججين بأسلحتهم.

فقال له حمزة: لك ما شئت يا نور الدين، والله يحميك وينصرك، ثم أمر

عمر سرًا أن يتنكر ويسير من خلفه أو من قدامه يحرسه ويعينه دون أن يشعر بأن أحدًا معه، فقال: سمعًا وطاعة. ركب نور الدين جواده، وتقلد سلاحه، وخرج ساعيًا يقطع الفيافي، حتى دخل مدينة الدواليب، وعمر من خلفه في زي وشكل لا يعرفه أحد منهما، واختار نور الدين مكانًا نزل فيه، ثم أخذ سيفه ودخل قصر الملك كاروس يبغي أخذها بقوة سيفه.

وكان لكاروس وزيران أحدهما اسمه دوش وهو ساحر ماهر، لا يفتأ يقول للملك: إن الثريا ستسرق، وسأخبرك عن كل غريب يدخل المدينة، والآخر اسمه عبد الله، وكان مؤمنًا طيبًا، وفي هذا اليوم قال دوش: إن سارق الثريا قد دخل المدينة، فقال: وأين هو الآن؟ فقال: إنه في قصرك الآن بين الخدم.

فأمر الملك بالقبض عليه، فثار الحرس وجعلوا يبحثون عنه بين الخدم حتى عرفوه، وكان متنكرًا في زيهم، فاستل سيفه وجعل يحصدهم حصدًا، ولكنهم تألبوا عليه وحاصروه وأمسكوه، ثم جاءوا به الملك، فلما مثل بين يديه نظر إليه في سخرية وغضب وقال: جئتنا لتسرق الثريا، وما جزاؤك عندي إلا أن تقتل وتصلب، فقال: ما جئت سارقًا ولكني أتيتك لآخذ الثريا بقوة سيفي، وما السرقة إلا من طبيعة اللئام، وإن اللؤم نأباه وتعف عنه نفوس الأبطال، وأنا نور الدين بن بديع الزمان بن حمزة البهلوان، فإن أنت أصبتني بمكروه جاءك قومي فمزقوا لحمك، وخربوا ديارك، وأضاعوا ملكك، فاختر لنفسك ما شئت، فقال الوزير عبد الله: أرى أن يلقى في السجن ويكرم فيه، وأن ننتظر ما يفعله العرب وقومه، فإن كنا غالبين قتلناه ونحن آمنون، وإن كانت الغلبة لهم فدينا أنفسنا به وأصلحنا ما بيننا وبينهم، فاستحسن الملك هذا الرأي، وأمر أن يلقى في السجن، وأن يكرم فيه إكرامًا يليق بالأمراء الأبطال.

وعرف عمر العيار ذلك في مخبئه فاكتحل وجعل نفسه في صورة دوش الساحر وزير كاروس؛ وذهب ليلا خفية إلى حجرة نومه، فبنجه وسرقه، وذهب به إلى مخبئه، ولبس ثيابه وكتفه، ثم رجع خفية إلى حجرة نومه، وبات فيها، وفي الصباح لبس ملابسه وخرج من بيته إلى قصر الملك وقال له: إن

السحر حدثني أن مدة الخطر على الثريا ثلاثة أيام تبدأ من يومنا هذا، وأريد أن آخذها لأعكف على حراستها بالسحر في بيتي حتى تنقضي مدة الخطر، ثم أعيدها إلى مكانها من قصر الملك.

فأمر الملك أن يأخذ وزيره دوش الثريا، فأخذها ومضى بها إلى مخبئه الذي اتخذه لنفسه في تلك المدينة، وفي الليل ذهب إلى السجن فرآه الحارس فعرف أنه الوزير وعظمه واحترمه، وأمره عمر أن يريه هذا الذي حضر ليسرق الثريا فدخل به إليه، وهناك قال له: احذر أن تنام الليلة، لأني عرفت من السحر أن شخصًا سيأتيك ويسرقه منك، فخذ هذه الشمعة وأوقدها على باب السجن، فإذا انطفأت فاعلم أن السارق قد حضر، وكان قد وضع فيها عمر بنجًا، فأخذها الحارس وأوقدها، فخرجت رائحة البنج إلى أنفه فأغمى عليه في الحال، أما عمر فإنه أخذ نور الدين من يده وخرج به، وقبل أن يغادر السجن ذبح الحارس بخنجره، وأطفأ الشمعة وأخذها ومضى بنور الدين إلى مخبئه، وهناك عرفه بنفسه، وما فعله، فأخذا الثريا وهربا بها ليلا من المدينة، وجدا في المسير حتى كانا في معسكر العرب، وفرح حمزة وبديع الزمان والعرب، وتم عقد الزواج، وزفت هند إلى نور الدين، وضاعت مكيدة قاسم سدى.

أما المدينة فإن أهلها حين عرفوا أنهم هالكون إن دام الحصار من حولهم، نزلوا على إرادة حمزة فسلموا المدينة، ودخل كثير من أهلها في دين الإسلام، كما أسلم ملكها ووزراؤه.

وجاء الشيخ ومعه الغلام ففرح حمزة بقدومهما وقال الشيخ: ما هذا غلام ولكنه مهردكار زوجتك، وقد شفيتها من علتها، وحافظت عليها طوال هذه المدة، وقد خبأتها في صورة غلام حتى لا يعرفها أحد، ولا ينتشر خبرها، وقد جئتك بها مؤمنة تعبد الله حق عبادته، فشكر له حمزة معروفه، وبعد أن استراحوا رحلوا إلى مكة وأقاموا فيها حتى جاءهم أجلهم، بعد أن نشروا الإسلام في بقاع كثيرة من الأرض، وأخرجوا أهلها من الظلمات إلى النور.

❋❋❋

طبع بمطابع دار المعارف